مايكل هوجّز

بندقية الكلاشنكوف

رحلة سلاح من حروب التحرير إلى حروب العصابات

فيتام - السودان - فلسطين - أفغانستان - العراق - أمريكا

دار نون

مايكل هوجّز

بندقية الكَلاشنِكوف

رحلة سلاح من حروب التحرير إلى حروب العصابات

فيتام - السودان - فلسطين - أفغانستان - العراق - أمريكا

ترجمة: حربي محسن عبد الله، ومحمد مصطفى مقداد

مراجعة: فائز نمرود داود

دار نون للنشر

بندقية الكَلاشِنكوف

اسم الكاتب: مايكل هوجّز / عنوان الكتاب: بندقية الكَلاشنِكوف
الغلاف والإخراج الفني: الناصري
الطبعة الأولى 2014 / 1000 نسخة

دار نون للنشر

ISBN: 978-91-87373-19-0 / ©دار نون للنشر
ص.ب ٤٠٠٤٤ رأس الخيمة / دولة الإمارات العربية المتحدة
www.dar-noon.com

© جميع حقوق الطبع محفوظة لدار نون للنشر بموجب عقد مع المؤلف. لا يُسمح بإعادة إصدار أي جزء من الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون الإتفاق مع المؤلف ودار النشر. يجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة الرجوع إلى الدار أو المؤلف الأصلي.

ملاحظة الترجمة: يستعمل الكاتب اختصاراً في الإنكليزية لبندقية الكَلاشنِكوف هو AK ونظراً لتعدد أنواع هذا السلاح بحسب تاريخ صنعه ومنشئه احتفظنا بهذا الاختصار وتنوع الأرقام التي تعقبه، وهو دلالة على بندقية كَلاشنِكوف أينما ورد في الكتاب.

... مع كامل الاحترام لإيمانويل وميخائيل

كان يرتدي بنطالاً خاكيّاً أكبر من مقاسه بثلاث مرات وقميصاً ولّادياً طُبِعت على صدره صور لميكي ماوس وكانت يده اليمنى تقبض على سبطانة كَلاشنِكوف.

روبيرت فيسك، في كتابه: (ويلات وطن)

فليُجِب الرئيس عن هذه الفوضى العارمة

وليتنكَّب بُندقيةَ الكَلاشنِكوف

وليذهب ليخوض الحرب بنفسه

(من أغنية موش Mosh لمغنيّ الراب إيمينيم Eminem التي انتقد فيها الرئيس الأميركي جورج بوش الإبن.)

تسلسل زمني للأحداث

1947 ميخائيل كَلاشنِكوف يفوز بمسابقة تصميم البندقية الهجومية السوفييتية.

1949 الجيش السوفييتي يتبنى بندقية الـ AK47.

1956 التوزيع واسع الانتشار لبندقية الـ AK47 لدى الحلفاء في أوروبا الشرقية. قمع الثورة الهنغارية من قبل الجيش السوفييتي. تأسيس معامل بندقية الـ AK47 في الصين الشيوعية.

1959 ميخائيل كَلاشنِكوف يكشف النقاب عن بندقية AKM المعدَّلة.

1965 الرئيس ليندون جونسون يورّط الجيش الأميركي في فيتنام. الصينيون يزودون القوات الشيوعية الفيتنامية ببنادق الـ AK موديل 56. زيادة الإنتاج في الصين وأوربا الشرقية وتزويد أفريقيا والشرق الأوسط بهذه الأسلحة.

1967 حرب الأيام الستة، إسرائيل تحتل مناطق عربية من ضمنها الضفة الغربية وقطاع غزة ومرتفعات الجولان.

1968 معركة الكرامة بين جيش الدفاع الإسرائيلي وفدائيي منظمة فتح.

1972 منظمة أيلول الأسود تقتل أحد عشر رياضياً إسرائيلياً في دورة الألعاب الأولمبية في ميونخ.

1973 انسحاب القوات البرية الأميركية من فيتنام.

1974 إدخال تعديلات على أشكال بنادق الـ AK وبنادق AKM لتطلق مقذوفات أصغر من 5.45 ملم رشاً.

1978 انتشار بنادق AK74 لدى الحلفاء في أوروبا الشرقية.

1979 الغزو السوفييتي لأفغانستان.

1983 حالة الطوارئ في السودان تؤدي إلى نشوب حرب أهلية.

1989 انسحاب السوفييت من أفغانستان.

1991 انهيار الاتحاد السوفييتي.

1993 معركة مقاديشو (حادثة سقوط طائرة بلاك هوك)، في الصومال.

1994 الكونغرس الأميركي يمرر قانون حظر الأسلحة الهجومية.

1999 روسيا تغزو الشيشان.

2000 اندلاع الانتفاضة الثانية في المناطق الفلسطينية.

2001 الولايات المتحدة تغزو أفغانستان.

2003 الولايات المتحدة تغزو العراق.

2004 حصار بسلان ومعركة فودكا كَلاشنِكوف التي طرحت في أسواق المملكة المتحدة.

المقدمة

كان من المتوقَّع أن نعثر على بندقية الـ AK47 في كومة الخردة على مزبلة التاريخ، فعمرها ستون سنةً، وثقيلٌ حملها وهي تفتقر إلى الدقة. إنها قديمة الطراز مقارنةً بالبنادق الهجومية المصنَّعة من البلاستك والكاربون التي يستخدمها الجيشان الأميركي والبريطاني اليوم. وحتى أنها لم تكن البندقية الهجومية النصف آلية الأولى التي تُستخدم في ساحات الوغى، بل البندقية الألمانية MP43 التي استخدمت ضد الروس خلال الحرب العالمية الثانية. كذلك لم تكن بندقية الـ AK47 السلاح الأكثر تعقيداً في عصره: فقد كانت منظومة الإطلاق التي تعمل بضغط الغاز ونابض الإرجاع تقنية بسيطة معروفة حتى في الأربعينيات. مع ذلك فإن البساطة الشديدة لهذه البندقية هي التي أدت إلى نجاحها. إن هذه البندقية بأجزائها الثمانية فقط القابلة للفك والتركيب هي في الوقت نفسه رخيصة التصنيع وسهلة الاستخدام. في الحقيقة إنها سهلة جداً لأي مقاتل، طفلاً كان أم راشداً، بحيث يستطيع أن يطلق ما معدله 650 طلقةً مدمرةً في الدقيقة بعد عملية تدريب بسيطة. ويمكن ان تُفكّك هذه البندقية في أقل من دقيقة واحدة وتُنظَّف بسرعة وفي الظروف المناخية كُلِّها تقريباً. وحتى لو لم تكن نظيفة، فإنها تبقى الأكثر قدرة على الإطلاق من منافساتها في حالات مشابهة في ساحة المعركة.

إن هذه الخصائص هي التي ساعدتها في اجتياز رحلتها عبر المراحل الثلاث التي سيتتبعها هذا الكتاب. أولاً، كسلاح مكَّن الاتحاد السوفييتي من السيطرة على مناطق شاسعة اكتسبها من نصره على ألمانيا النازية؛ ثانياً كأيقونة

لثورات العالم الثالث؛ وأخيراً، في يد أسامة بن لادن، كعلامة لقائد الإرهاب العالمي، والسلاح الأكثر انتشاراً في العالم.

شغّل المذياع أو التليفزيون لسماع الأخبار وسوف تسمع مراسلاً يتحدث عن مهاجمين يحملون أسلحة هجومية من نوع الكَلاشنِكوف أو متمردين مسلحين ببنادق الـ AK47. التقط أي جريدة واسعة الانتشار أو صحيفة تهتمّ بموجز الأخبار وسوف تجد على الأقل صورة لبندقية الـ AK47. غالباً ما ستكون الصورة في الصفحة الأولى، أحياناً تختبئ في الداخل، في صفحات الأخبار العالمية؛ بل حتى لو لم تكن تعرف أي شيء عن الأسلحة ستتعرف بشكل غريزي على المخزن المقوّس المميّز لذخيرة الكَلاشنِكوف.

يمكن أن يكون الكَلاشنِكوف بأيدي جنود الحكومة العراقية أو المتمردين عليها، أو لدى المجاهدين الأفغان، أو بحوزة المليشيات الكولومبية، أو بأيدي المسلحين الفلسطينيين أو بأيدي الأطفال المجندين الأفارقة. كان الكَلاشنِكوف الحقيقي الذي رأيته للمرة الأولى بيد مقاتل في جيش لبنان الجنوبي، على الحدود بين بلده وإسرائيل، في شهر أيار من عام 1982. كان رجل المليشيا المسيحي يركب سيارة بيك آب وهي تتعرج في طريق ترابية في الجانب اللبناني من الحدود، محاولاً تجنب قذائف مدافع الهاون المنطلقة من موقع فلسطيني. كان الإسرائيليون الذين كنت معهم يضحكون من تحدي رجل المليشيا، وظننت أنه لمن المضحك أن ترى الطريقة التي لوّح بها رجل المليشيا الوحيد بسلاحه للناس الذين كانوا يحاولون قتله. لكني لم أضحك بخلاف الإسرائيلين لأني لم أكن قد رأيت أبداً رصاصاً حقيقياً ينطلق أو قنابل حقيقية تسقط، وكنت كالمسحور من رؤية ذلك الرجل في الشاحنة المسرعة وهو يرفع بندقيته الكَلاشنِكوف في الهواء بينما الانفجارت تدوّي من حوله. كان هناك شيء ما فريد من نوعه في سلاحه ليست فقط الحالة التي بدا بها، بل شيءٌ آخر أيضاً. في عمر الثامنة عشر أدركتُ أن بندقية الـ AK47 لم تكن كباقي الأسلحة: كان لديها جوُّها الخاص.

ربما كان من الصعب التصديق أن هذه المجموعة الشهيرة من الأحرف الاستهلالية والأرقام المملة بما فيه الكفاية هي نتيجة عملية ترميز عسكرية بسيطة أنتجت العديد من الحروف والأرقام الأخرى في الاتحاد السوفييتي أواسط القرن العشرين: أي رمّزت بها أسلحة مثل TT-33 وPPS1943 و PPSh 1941. فالرقم 4 والرقم 7 يدلان على سنة اختراع السلاح. والحرف A يشير إلى نوع البندقية، افتومات بالروسية وأوتوماتيكية بالانجليزية. والحرف K هو الحرف الأول لكنية مخترعه: كَلاشنِكوف.

عندما التقيت الجنرال ميخائيل كَلاشنِكوف للمرة الأولى في روسيا كان يسميه (غولم)[1] وهو اسم عفريت الأسطورة (اليديشية) وقد أقر بأنه سلاح قد أفلت من سيطرة مبتكره وأصبح قوةً بحدِّ ذاته. لذلك لدينا المبرر للخوف من نفوذه الذي انتشر، فعلى وفق تقديرات متحفظة للأمم المتحدة فإن هناك 70 مليون قطعة كَلاشنِكوف تستخدم في طول العالم وعرضه: إنه رقم مذهل وبالتأكيد هو أكبر من ذلك بعدة ملايين. وعليه فإني لا أستطيع في هذا الكتاب تغطية كل الصراعات التي يُستعمل فيها هذا السلاح في الوقت الحاضر، أو الصراعات التي كان قد استعمل فيها؛ لأن ذلك يتطلب عدة مجلدات، وسيكون العمل متقادماً ما أن يكتمل. لذلك حاولتُ أن أتتبع رحلة (الغولم) من خلال تلك الصراعات ومن الأجواء التي نشأت فيها ونستطيع بذلك أن نقيّمها بشكل أفضل، في البلدان التي يصبح بها الكَلاشنِكوف، مع الأسف، ماضيها ومستقبلها.

بعد شهرين من حادثة رجل المليشيا اللبناني الذي يسوق شاحنته وسط قذائف الهاون حاملاً بندقية الـ AK47 ملوحاً بها عالياً في الهواء، غزت القواتُ الإسرائيلية الجنوب اللبناني وأخرجت منه الفلسطينين الذين

١- غولم: هو عفريت جاء نتيجة عمل سحري في أسطورة يادیشية وهي لهجة من اللهجات الألمانية فيها الكثير من العبرية والسلافية وينطق بها اليهود في الاتحاد السوفييتي وبلدان أوروبا الوسطى وتكتب بحروف عبرية (المترجم).

كانوا يزعجونها. وكلما تقدمت القوات الإسرائيلية كانت تستولي على الآلاف من بنادق الكَلاشنِكوف الفلسطينية. تلك البنادق وجدت طريقها عبر السي آي أي وجهاز الاستخبارت الباكستانية ومنها إلى المجاهدين في أفغانستان، لمقاتلة جنود الوطن الأم لبندقية كَلاشنِكوف. قد تكون أول بندقية كَلاشنِكوف التقطها أسامة بن لادن من ضمن الكمية الكبيرة من مخابئ الأسلحة التي عثر عليها الإسرائيليون، بل قد تكون هي البندقية نفسها التي ظهرت في الفيديو الذي ظهر فيه زعيم القاعدة وهو يدعي مسؤوليته عن هجمات 11/9 على الولايات المتحدة.

وفي هذا الكثير من المفارقات التي يصعب تصديقها كما سنكتشف فإن بندقية الـ AK47 هي ذلك النوع من السلاح.

١ - المزحة القاتلة

«أستطيع إدخالك إلى المصنع، لا إشكال في ذلك».

كان المتحدث رجلاً قصير القامة في أوائل الخمسينيات من العمر، ذا بشرة زيتية ويرتدي سترة رياضية أنيقة وقميصاً. كان ذلك في شهر آب من العام 2004. كنت حينها في مدينة إيزهفسك Izhevsk وهي بلدة كَلاشنِكوف واختراعه، استمرّت الزيارة لبضع ساعات لاغير وكنت على وشك الدخول إلى المباني التي صُنع فيها الملايين من بنادق الـ AK منذ أواخر الأربعينيات.

مع أني كنت ثملاً، بدا لي العرضُ جيداً بما يكفي ليكون صادقاً.

تساءلت «أليس هناك صعوبة في الدخول إلى مصنع حكومي للأسلحة في منتصف الليل؟»

«لا توجد مشكلة! إنه الوقت الأفضل للدخول. إنهم سيحظون بوقت للمرح. بإمكاننا أن نحصل على بانيان».

«بانيان»؟

«نعم. حمام بخاري، والمزيد من الفودكا!» كانت لغته الانجليزية ممتازة، لا يشوبها سوى تردد بسيط الأثر في اللهجة، لكن كل الذي عرفته عن الرجل، الذي كنت قد التقيته في إحدى الحانات لمدة ساعتين، تناولنا خلالها الكثير من الشراب هو أنه يدّعي بأنه جاء إلى «إيزهفسك» من القوقاز في رحلة عمل. أما ما الذي كان يجري في معمل كَلاشنِكوف في الواحدة صباحاً هو

ما لم أكن متأكداً منه تماماً، لكننا وبعد بضعة زجاجات من الفودكا كنا قد شربناها وألقيناها فارغة خلفنا أصبح المرح وكأنه فكرة جيدة جداً.

استدعى سيارة أجرة، اجتازت بنا الشوارع الفارغة وجادات عريضة من العهد السوفييتي لواحدة من أضخم المدن، قبل أن ينعطف إلى طريق سريع يحاذي بحيرة كبيرة، تتلألأ تحت ضوء القمر الذي يظهر من خلال الغيوم. لم أستطع أن أرى المياه التي ترتطم برفق بمواجهة السدّ الذي كان صدئاً يتآكله الملح منذ مائتي سنة ومصبوغاً بلون أحمر بسبب ملايين الأطنان من مخلفات الحديد. لم تكن بحيرة بل كانت خزّاناً، تمّ حفره بأمر من القيصر الاسكندر الأول في عام 1810 لتزوّد المدينة الضخمة التي تمّ تأسيسها، بملايين الغالونات من الماء اللازم لمصانع الحديد والصلب العملاقة. رجال إيزهفسك هم من صنعوا الأسلحة التي تمكنت، مع الشتاء من صد الجيش الكبير لنابليون عام 1812. لقد زجرت مدافعهم عبر الفوضى والإرباك لمعركة بورودينو، وهي المدافع التي أنهكت فرنسا في انسحابها المروّع من موسكو. لذلك لن تنسى المدينة أبداً أنها هزمت نابليون، كانت ساريات الأعلام التي تمّ الاستيلاء عليها من الأفواج الفرنسية قد سبكت في قوالب حديدية على شكل جملونات في المبنى الرئيسي لسبك المعادن.

شرعت المسابك ومصانع الفولاذ، ابتداءً من هذا النصر ومع التقدم النكنولوجي، بالتطور والازدياد ومن ثم تمّ التوسع الكبير خلال الحرب العالمية الأولى. بعد العام 1920 تمّ تطوير ثلاثة مصانع عملاقة لإنتاج الأسلحة إبّان حكم السوفييت، وعندما جرى نقل إنتاج الأسلحة شرقاً لمواجهة الغزو النازي في العام 1941م توسعت إيزهفسك لتصبح مدينة تضمّ سبعمائة ألف عامل. غطت المصانع مساحة تزيد على 13 كيلومتراً مربعاً وكانت كبيرة للغاية، وفيها الآلاف من العمال المنتجين، الأمر الذي جعل إيزهفسك تنتج إبّان الحرب العالمية الثانية كميةً من الأسلحة الخفيفة أكبر من الكمية التي

أنتجتها معامل الإمبراطورية الألمانية مجتمعةً. بحلول العام 1945 كان بإمكان هذه المدينة أن تعدّ هتلر كسلفه نابليون من الطغاة الذين استطاعت أن تهزمهم. كان هذا الإنجاز وحده كافياً لها كي تكسب التقدير والمساواة الدائمة مع أخواتها من المدن الأخرى في جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاشتراكية، بل كانت مشهورة في روسيا إذ فوق كونها ساهمت في المجهود الحربي لستاخنوفيت. فإنّ لإيزهفسك أيضاً أهمية أخرى تستحق أن تسمو بها. بينما كانت سيارة الأجرة تنعطف نحو مصنع إزهاميش الضخم شعرت بارتعاشة وإثارة، إلى حد أني شعرت بالدوار؛ كان هذا موطن بندقية الـ AK47، هذا هو المصنع حيث عمل ميخائيل كَلاشنِكوف مخترع البندقية، مع فريق من ألمع مهندسي الأسلحة السوفييت وقد صمموا البندقية وعملوا على ضبط أدائها بشكل جعلها تكتسح العالم.

لكن لم يكن هناك أي إشارة إلى المجد السابق لسلاح AK. صحيح أن هناك أروقة ذات أعمدة من زمن الكلاسيكية الجديدة لأوائل القرن التاسع عشر تقف بكل فخامتها على طول الطريق الذي يمتد على الأقل لمسافة كيلو متر من الدرابزين؛ ولكن وراء تلك المظاهر الخادعة تغيّرت أشياء كثيرة تغيّراً دراماتياً. سرنا ببطء بين مباني المجمّع الصناعي التي بدت للعيان، بالنوافذ القديمة المحطمة وبمداخلها الفارغة، وبساحتها المتداعية. لم تعُد إيزهفسك بعد ستين عاماً من اختراع بندقية الكَلاشنِكوف، تلك المدينة السوفييتية السابقة بل أصبحت عاصمة لجمهورية روسية فدرالية هي أدمورتيا. وعلى الرغم من الطلب العالمي المتزايد للأسلحة الهجومية، فإن المدينة التي برّت رايخ هتلر بإنتاج الأسلحة تحتضر اليوم وهي واقفة على قدميها. لم يكن هناك إشارات ضوئية تقودك إلى داخل المجمع الصناعي حيث كانت، ذات يوم، ملايين بنادق الكَلاشنِكوف تخرج من خطوط الإنتاج. كانت البندقية الأكثر شعبية في أرجاء المعمورة، لكن لم يكن هناك أي

مردود من نصيب إيزهفسك، حتى إن الروس كانوا يحاولون بجد إنقاذ ثروات المدينة. إذ كانت دول أخرى هي من يقبض أثمان الطلب على المنتج الذي اشتهرت به إيزهفسك.

في العام 2003 اقتنعت الحكومة الأميركية في نهاية المطاف بفاعلية الكَلاشنِكوف بعد المناوشات المُنهِكة خلال حرب فيتنام وفي أحداث الشرق الأوسط، فأعطت موافقتها على عقد يقضي بتوريد بنادق الـ AK من مصانع أرسنال البلغارية للأسلحة إلى قوات الأمن العراقية التي أعيد تشكيلها. اعترضت وكالة التصدير الحكومية الروسية (روزوبورو إكسبورت) على هذه الصفقة بحجة أنه يجب شراء البندقية من المصنع الذي طوّرها في البداية. لكنّ البلغار كانوا يبيعون الكَلاشنِكوف بسعر 100 دولار أميركي للقطعة الواحدة؛ بينما كان سعر الموديل الروسي الحديث 500 دولار. لم يعد مصنع «إزهامش» الذي تمَّ فيه تطوير السلاح للمرة الأولى المنتِج الأكبر. كانت خطوط التجميع المتبقية بمعظمها قد عُدلت لتتحول إلى إنتاج محدود مختص بأسلحة الصيد والبنادق الرياضية التي صُمِّمت عموما في الثمانينيات والتسعينيات، وكان إنتاجها من بنادق الكَلاشنِكوف لايتجاوز ثلاثة آلاف بندقية هجومية في السنة. كان الرجال والنساء الذين كانوا يتفاخرون بتفوق سلاح الاتحاد السوفييتي الصغير على الولايات المتحدة قد أصبحوا الآن عاطلين عن العمل. تراهم جالسين على مقاعد المتنزهات أو خارج الحانات حيث يستطيعون مشاهدة المجموعات الصغيرة من الأميركيين المُتحمِّسين للبندقية والذين أتوا برفقة أدلاّء سياحيين إلى مصانع إيزهفسك وهم يرتدون قمصان (رحلة كَلاشنِكوف حول العالم) التي تعدد البلدان المشتعلة بالحروب والمناطق التي أدخلت بندقية الـ AK إليها الرعب. تحوّل المواطنون المحلّيون إلى أساليب أخرى لكسب الدخل؛ كان هناك صرافون لم يبلغوا سن الرشد يعملون خارج معامل سيارات لادا في ساحات محطات البنزين،

وشباب ذوو شعر سبط يبيعون في الحانات مواد مخدرة محلية الصنع من النوع المروّع. يبحث الشباب الصغار عن ذاتهم في الموسيقى الشعبية الأدمورتينية أكثر من بحثهم عنها في الروح الوطنية الروسية. إن الطواطم التي ترمز إلى هزيمة نابوليون كانت ما تزال مُركّبة فوق أسطح المصانع لكنها الآن تطل على مدينة على حافة التداعي.

لقد بدا لنا المصنع ونحن نطوف حوله بالسيارة تلك الليلة مهجوراً، ولم ألحظ حتى وجود حراس أمنيين. في تلك اللحظة مال عليّ صديقي الجديد من مقعده الأمامي وباح لي بإسم المنطقة القوقازية التي تنحدر أصوله منها. «أنا اذربيجاني. يمكن أن يقلق الحراس إذا رأوا وجهي».

«لماذا»؟

«قد يظنوني شيشانياً. يعني إرهابي. يمكن أن يطلقوا النار عليّ. إذا التقينا بأي من الحراس فمن الأفضل أن تُريهم جواز سفرك».

فجأة خطر ببالي أنني لا أعرف حقيقة هذا الرجل وأننا كنا نتجوّل داخل ما يفترض أنها منشأة عسكرية حساسة، وقد يكون ذلك أقل مرحاً مما كنت آمل. وقبل أن أتجاوز مخاوفي انعطفنا حول زاوية لنفاجأ ببوابة مغلقة حيث رأينا أول بشري منذ دخولنا إلى هذا المجمع. إنّه جندي يرتدي بلوزة خاكية تحتها قميص باللونين الأزرق والأبيض. تتدلى من كتفه بندقية كَلاشنِكوف وكان يدخن سيجارة ملفوفة. أومأ إلى السيارة لكي تبطئ من سرعتها.

«جواز السفر! جواز السفر» ألحّ عليّ صديقي الآذري. انحنيت إلى الأمام وأخرجت يدي من نافذة الركاب الأمامية مُمسكاً بالجواز. نظر الجندي فيه من دون أن تطرف له عين قبل أن يفتح لنا البوابة ويسمح لنا بالدخول.

قال مرافقي»أرأيت! كل شيء على مايرام». ثم واصلنا السير متجاوزين المزيد من الأبنية المهجورة وجسراً للمشاة. كان من الواضح أن السائق قام

بعدد من الرحلات الليلية كهذه فقد نفّذ وبثقة سلسلة من الانعطافات قبل أن يتوقف أمام شاليه خشبي ذي طراز سويسري أكثر من كونه روسي يغمره ضوء أصفر لطيف.

قال الآذري «ها قد وصلنا»، وبدا مرتاحاً للغاية لكونه الرجل الذي أدّعى بأن الوصول إلى هنا سيكون سهلاً. توجّه نحو الباب، حيث تقف امراة روسية في منتصف الخمسينيات من العمر بشعرٍ أسود مصبوغ. انسلا إلى الداخل فتبعتهما إلى غرفة استقبال صغيرة. فجأةً أدركت أن كل تلك الفودكا أصابتني بالتوعك أكثر مما كنت أتوقع، فذهبت نحو نافذة مفتوحة لأستنشق الهواء.

نبهتني قهقهات الرجل الآذري والمرأة الروسية من الأفكار التي كنت مستغرقا فيها؛ أخذتني المرأة من ذراعي ودفعتني من خلال باب داخلي ثاني إلى ما توقعت أنه «البانيه» نفسه. كنت أتوقع أن أجد شيئاً ما عسكرياً، من قبيل ديكور داخلي يشير إلى تاريخ هذا المكان، او ربما حانة مزدانة بصور جنود روس أو بندقية الـ AK47 أصلية مثبتة على أحد الجدران وغرفة ملأى برجال سكارى متأزرين بالمناشف يتحدثون عن معدل الرمي ودقته. لكن المشهد الذي قابلني كان مختلفاً جداً. كان هناك في الوسط طاولة مستديرة كبيرة محاطة بثمانية مقاعد. ثمة بعض الكراسي بذراعين وبضع أرائك منتشرة في أنحاء الغرفة، وفي إحدى الزوايا وضع تليفزيون بشاشة مسطحة من الحجم الكبير يعرض فيدو لحفلة بوب أميركية. كان هناك ثلاجة بباب من زجاج ملأى بزجاجات الشمبانيا والبيرة والفودكا وعلب الكافيار. وفي زاوية أخرى يقع السلّم الذي يقود إلى الطابق العلوي حيث يمكنني أن أرى المزيد من الأبواب التي تؤدي إلى غرف أخرى. ثمة مخرج بجانب الثلاجة افترضت أن يكون باباً يؤدي إلى «البانيه» وبالتأكيد لم يكن هناك أي صور لجنود أو لبنادق AK. كانت الجدران قاطبةً مُبطَّنةً بالخشب وإضافة إلى الرجال الملتفين بإزاراتهم كانت هناك فتيات يرتدين تنانير قصيرة وكنّ يتمايلن بغنج على الكراسي.

دعاني الآذري قائلاً «تعال ومتّع نفسك».

كان هناك قنينة فودكا مفتوحة فأتخذت لي مقعداً. تقدمت مني على الفور فتاة شقراء جذابة مستديرة الوجه وقالت بإنجليزية ضعيفة «مرحباً... لقد أعجبتني»، وجلست بجانبي، صبّت ليّ كأساً وبدأت الحديث باللغة الروسية.

مع أنها كانت جميلة إلا أنني لم أنظر إليها بل كنت أحدّق بقنينة الفودكا التي وضعتها على الطاولة حيث كتب على أعلى الملصقة بالأبجدية السلافية القديمة (سيريلي)[2] كلمة واحدة «كَلاشنِكوف» أمّا في الأسفل فكان هناك صورة لشاب يرتدي زي الخدمة السوفييتية في الحرب العالمية الثانية.

أدارت الفتاة وجهي نحوها وسألتني «هل تريد الذهاب إلى الطابق العلوي؟»

هززت رأسي وقلتُ بتزمت غبي: «كلا، أنا هنا لكي أعمل، أريد فقط أن أشرب، شكراً لك».

«أي عمل جاء بك إلى هنا؟»

فأشرتُ إلى القنينة «من أجل البندقية»

«أية بندقية؟»

«بندقية الكَلاشنِكوف. أنا هنا من أجل أن أكتشف بندقية الـ AK47».

أبدت الفتاة قليلاً من خيبة الأمل؛ مع أنّها كانت تعمل في ما كان يعتبر ذات مرة قلب عالم كَلاشنِكوف، إلاّ أنّها لم تكن مهتمة بالبنادق، فبندقية الـ AK كانت بالنسبة لها كما لكل الشباب في إيزهفسك شيئاً من الماضي

٢- - سيريلي: ذو علاقة بأبجدية سلافية قديمة يقال إن مخترعها هو القديس سيريل ولا تزال أشكالها الحديثة تستعمل في صربيا وبلغاريا ومناطق من الاتحاد السوفييتي السابق. (المترجم).

وما يهمها هو المستقبل. هبّت واقفةً وسحبتني من يدي قائلة «تعال الآن، نذهب إلى الطابق العلوي».

«لا، شكراً، حقيقة أنا مرتاح هكذا».

تركتني وهي مستاءة وجلست مع الفتيات الأخريات بالقرب من التلفزيون. أفترض أنها أخبرتهن بأني لست مُعجَباً بالشقراوات، وذلك لأن فتاة ذات شعرٍ أسود طويل يصل إلى كتفيها وتلبس حذاءً أسوداً لمّيعا عالي الساق حتى الركبة جاءت إليّ ورفعت الزجاجة وسكبت المزيد من الفودكا المُثلَّجة في كأسي. شاهدتُ الآذري يصعد إلى الطابق العلوي مع أثنتين من زميلاتها. أومأت لي الفتاة ذات الشعر الأسود كي ألحق بها، لكني ابتسمت وقلت كلا مرةً أخرى. نظرت إليّ الفتاة بتقزّز كأنني عَيِّنةُ خُروجٍ في وعاء زجاجي، وما أن وصل المشروب إلى معدتي حتى اعتراني الشعور نفسه أيضاً. أما الفتيات الأخريات فقد صرفن اهتمامهنّ عني ورحن يتفرجّن على مغنّي الروك وبينما كان مغنّو الروك الكهول على الشاشة يلهثون بأغنيّاتهم بدت زجاجة فودكا الكَلاشنِكوف وكأنها تسبح في الهواء أمام عينيّ وشعرت أن مدينة إيزهفسك والفتيات تبتعد شيئاً فشيئاً بعيداً عني.

استيقظت متأخراً ومنزعجاً في اليوم التالي. لم أتذكر كيف عدت إلى الفندق وكنت أشعر بالصداع والجوع وكانت بطني تقرقر. ركبت سيارة أجرة وذهبت إلى موعد مهم على الغداء.

يقع المنزل الريفي للجنرال ميخائيل تيموفايفتش كَلاشنِكوف على بعد ستة كيلومترات من إيزهفسك في الجانب الآخر من البحيرة الخزان.التقيتُ بحفيد الجنرال ويدعى آيغور عند بوابة الحديقة، وقادني إلى البيت الخشبي المكوّن من طابقين، مشيراً بفخر إلى الأدوات التي صنعها جده بيده وإلى التحسينات التي قام بها.

«هل ترى مرشة المياه هناك؟ هو من قام بتركيبها. وفي الخارج عند الشرفة ستجد صندوقاً لخزن الخبز هو من من قام بتصنيعه.

كانت هناك في الداخل طرق تؤدي إلى غرفةٍ مركزيةٍ مفتوحة وضِعت في وسطها طاولة سفرة معدّةٌ للغداء. كان الرجل ذو الخمسة والثمانين سنةً ينتظر عند أسفل السلم. كان يرتدي سروالاً رمادياً فضفاضاً مجعداً، مع قميص أبيض مزرر حتى القبة، وسترة بنية من الصوف وخفين من الفرو شبه جلد الفهد. ما أن انتهى من الترحيب بي حتى انخفض سقف توقعاتي.

قال الجنرال: «سيكون هذا الكتاب صعباً للغاية بل قد يكون مُحالاً. كما ترى فإن المسألة هي ليست مسألة من صمَّم البندقية، نحن فقط نخترعها نعم. أمّا من يقرر من يحصل عليها فهم السياسيون، ولا يريد السياسيون الحديث عنها». لكنّي سرعان ما اكتشفت أن الشخص الوحيد الذي كانت لديه مشكلة في الحديث عن بندقية الـ AK هو الجنرال نفسه.

لقد أومأ إليّ لكي أدخل إلى المطبخ حيث كانت مُدبِّرة المنزل تعدُّ له حساء الأيّل. قال وهو يفكك أجزاء البندقية: لبندقية الـ AK47 ترتيبٌ خاصّ في التفكيك؛ نقوم بحل عتلة المخزن ثم يتم نزعه بعد ذلك ندفع غطاء مجموعة الكابس نحو الأمام ونحرره منها ومن الترباس. كان هناك طريقة مُعيَّنة لتحضير حساء الجنرال. أولاً تقوم مُدبِّرة المنزل بقلي البصل مع قليل من الزيت النباتيّ حتى يقارب النضوج ثم تضيف عليه ضلوع الأيل الذي أصطاده الجنرال بنفسه. ثم يغليان سوية لمدة ساعة. وفي النهاية يضاف إليه أوراق الملفوف. عندما يُصب الحساء في الوعاء يطفو على سطحها البصل والكرمة. كانت مدبرة المنزل تتحدث كأنها تطبخ.

«إنه دقيق جداً بخصوص أضلاع الأيّل. فهو يغليها بنفسه ويقول لي: تذوقي هذا! أنا أضمن لك بأنها أفضل ضلوع تتذوقينها في حياتك، حتى إنها أطيب مذاقاً من التي حضّرتها مؤخراً».

ضحك الجنرال وعلّق قائلاً: "لكن الأشياء يجب أن تكون صحيحة"

"نعم أنا موافق، ذلك مايجعلني أتوق بشدة لسماع روايتك عن حكاية البندقية".

فكّر الجنرال مليّاً للحظة، ثم قال ضاحكاً "يجب علينا أن نأكل أولاً!" ومع ذلك أشار إليّ بالتقدم نحو الطاولة التي ستشهد على الكثير من الأنخاب التي سنشربها في تلك الظهيرة. صاح "نخب الصداقة!" وقرع كأسه بكأسي، بطريقةٍ أنزلت كأسي إلى الأسفل.

لدى كَلاشنِكوف سببٌ وجيه للإعجاب بنفسه. لقد كرّمه كل من ستالين وخرشوف وبريجينيف ويلتسن وبوتن. وتوّج مرتين بطلاً للطبقة العاملة الاشتراكية في العام 1958 وفي العام 1976. حصل على جائزة ستالين من الدرجة الأولى في 1949. ونال جائزة لينين في 1964، واستحق إضافةً إلى ذلك ثلاثة أوسمة من لينين الأولى الراية الحمراء للطبقة العاملة، ووسام الحرب الوطنية العظمى (من الدرجة الأولى) وكذلك نال وسام النجمة الحمراء. بموازاة الميداليات كانت هناك الدعاية التي رافقت هذا البروليتاري الأصيل الذي أثبت معجزات الشيوعية السوفييتية الشامخة. في العام 1948 أظهرت مقالات في جريدة "البرافدا" وصحف القوات المسلحة السوفييتية، الثناء والإطراء على بطولة قائد الدبابة الشاب الذي اخترع البندقية التي ستقف بوجه الفاشية، مع أن الحقيقة تقول إن هذه البندقية لم تدخل الخدمة إلا بعد أربع سنوات من تدمير ألمانيا الهتلرية. وبعد أكثر من نصف قرن لايزال هذا الأمر مُسوَّغاً بالنسبة للجنرال. "أخترعتُ سلاحاً لكي أحمي وطني الأم"، قال ذلك وهو يمسح آخر ما تبقى من حساء الأيل بقطعة من الخبز، وأضاف: "لحماية بلدي من الفاشية. لقد كان عملي مكرّساً لخدمة بلدي".

توصلت خلال الوقت الذي أمضيته مع الجنرال إلى قناعة بأن بندقية الكَلاشنِكوف بالنسبة له لم تكن السلاح الذي اخترعه لحماية روسيا فحسب،

بل كانت الرمز الأسمى لروسيا التي أراد حمايتها. وبطريقة ما توقف الزمن لديه عند أواخر الأربعينيات. استمر في العمل كمهندس لتطوير المزيد من الأسلحة السوفييتية الصغيرة. والحق أن بعض أروع منجزاته كانت ما تزال بانتظاره، لكن بريق الانتصار في الحرب العالمية الثانية والنجاح الأوّل لبندقية الكَلاشنِكوف قد ثبّتا تلك الفترة في ذاكرته بوصفها الفترة الذهبية في مسيرته. لقد كابد الآلاف من الشعب السوفييتي معاناة فظيعة خلال الحرب، ثم في فترة دخول ستالين في المرحلة الأخيرة من الزورانية العنيفة، لكن بالنسبة للجنرال "كان ذلك زمناً توحّدت فيه شعوب الاتحاد السوفييتي برمتها لوقف زحف هتلر، وعشنا سويةً بأخوّة، وقاتل كل منّا من أجل الآخر. شارك الجميع في تقديم التضحيات العظيمة، لكن كُنّا سعداء بذلك. في تلك الأيام كُنّا بلداً موحّداً. لم يكن مهماً إلى أي عرق تنتمي، تترياً كنت أم اوكرانياً، ما دمت قد كرّست حياتك لخدمة الوطن الأم".

لقد جلبت له بندقية الـ AK47 العديد من الميداليات لكنها أكسبته القليل من المال. على عكس المليونير الأميركي يوجين ستونر مصمِّم بندقية 15M الذي لم يكن معروفاً خارج عالم تصميم الأسلحة لكنه جمع الملايين من اختراعه. لم يحظ كَلاشنِكوف بحقوق الملكية أو النشر أو بالصفقات المالية على اختراعه. كسب ستونر عمولة عن كل قطعة سلاح، بينما كان كَلاشنِكوف يعيش على الراتب التقاعدي الذي يتقاضاه من الحكومة، والذي كان يعادل ما قيمته 300 دولار أميركي. في حياته الطويلة الزاخرة بالأحداث واجه من المصاعب ما هو أسوأ بكثير من ضيق ذات اليد، لكنه الآن يحتاج إلى المال لكي يورّثه لأحفاده ولفاروزا بعد وفاته. فأحفاده لايمكنهم أن يعيشوا وفقاً لمبادئ لينين والحرب الوطنية الكبرى. كسب كَلاشنِكوف مبلغا ضئيلاً لقاء وضع اسمه على الزجاجة التي كنتُ قد حدقتُ فيها وأنا مصابٌ بالغثيان في الليلة السابقة تسمية الفودكا بأسماء رجال مشهورين هو تقليد روسي قديم

متأصل في روسيا، ومن الممكن أيضاً أن تشتري قنينةً بإسم فلاديمير بوتن أو بوريس يلتسن.

يقدم الجنرال الآن دعمه لرجل أعمال بريطاني هو جون فلوري الذي يبدو مقتنعاً أنّ اسم كَلاشنِكوف سيكون إسماً تسويقيّاً مدوّيّاً في الغرب وفي أماكن أخرى وقد أحضر معه مجموعةً من المستثمرين البريطانيين لشراء حقوق توزيع الفودكا خارج روسيا. في أيلول 2004 كان من المتوقع وصول الجنرال إلى لندن للاحتفال بالانطلاقة الأوروبية لفودكا كَلاشنِكوف. استحضر اسم كَلاشنِكوف بالإضافة إلى مشاعر العزة الروسية أشياء أخرى أقل جاذبيةً، كان من بينها الرعب والموت. ركّز فلوري ومجموعته على الغوص في التقليد المتأصل لتاريخ كَلاشنِكوف الشخصي: الروح الرفاقية، الجدارة بالثقة، والجودة. وللتأكيد على الطبيعة الكونية لهذه الصفات، كان يجب أن يُضفي على حفلة الانطلاقة طابعاً إنجليزياً تقليدياً. وصل الجنرال باعتباره ضيف شرف في عشاء احتفالي في الهاوس هولد كافالري وسيكون هناك استقبال في بوردي سانت جيمس مزوِّد العائلة المالكة البريطانية بالأسلحة الخفيفة منذ مائتي سنة.

بقي أربعة أسابيع على زيارة الجنرال إلى لندن وهو جالس يتناول ما بقي من حسائه المفضّل، تساءلت، ترى ماذا سيكون شعوره لو أستخدم صورته هذه بهذه الطريقة (وهو يأكل)، أظنها على الأقل، ستحسّن وتخفف من وابل الانتقادات التي عادةً ما كانت تصله. فالنّاس في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأميركية لا يعني لهم الاتحاد السوفييتي شيئاً ولا الجنرال وأوسمته والأخوّة، بل يعني فقط النظام الشمولي والإبادة الجماعية. فقد كانت صورة الجنرال قد ترسخت باعتباره مصمم الموت الكبير، وكان القليل خارج الكتلة السوفييتية السابقة قد سمعه عندما قال إنه يمقت فكرة أن سلاحه بات يستخدم ضد المدنيين أو عندما دعا، في عدة مناسبات، من أجل جمع بنادق الكَلاشنِكوف كلَّها في العالم وتدميرها. وظل مُتمِّسكاً بهذا الموقف وهو على طاولة الغداء.

"كيف كان لي أن أدرك كم سيستمر هذا السلاح أو ماذا سيفعل بالعالم؟ لكني الآن أدركت بما يكفي. كانت هذه البندقية طفلي المدلّل في يوم ما، لكنها خرجت عن السيطرة. لا أستطيع إيقافها فجأة. لقد شبّت عن الطوق مسبقاً. لا أحب أن أرى أطفالاً يستخدمون سلاحي في أفريقيا أو في أي مكان آخر، لكن من وضع هذه الأسلحة بأيديهم؟ بالتأكيد هناك كوارث. فكل حرب تؤدي إلى قتل الناس، لكن قتل المدنيين هو استخدام غير شرعي للسلاح. ليس المهم من صنع الأسلحة. اذ يجب أن يكون إشهار البنادق فقط في الحالات الطارئة أو في حالة التهديد الذي يتعرض له الوطن".

إنّ الطوارئ والتهديد من المعايير الموضوعية، لكن بينما كان الجنرال يتحدث، كان ثمة بشرٌ يجدون الأسباب المقنعة لكي يشهروا بنادق الـ AK في طول العالم وعرضه. في العراق يُطلق مقاتلو جيش المهدي نيران هذه البنادق على الجيش الأميركي من على السطوح في مدينة الصدر. وفي طول الصحراء الأفريقية وعرضها تستعر الصراعات وتخبو، وغالباً ما تعتمد في كثافتها على إمكانيات الكَلاشنِكوف وقدراته. في الضفة الغربية المحتلة كان المُسلَّحون الفلسطينيون يُطلقون النار على دبابات الميركافا الإسرائيلية، وفي كشمير يكمن رجال الجماعات المُسلَّحة المنتشرون في المنطقة للجيش الهندي ويهاجمونه بالبندقية ذاتها. في جبال الهملايا يطلق المتمردون الماويون نيران الكَلاشنِكوف على قوات الشرطة النيبالية. وفي مكان ما من أحد كهوف هندوكوش يصوّر أسامة بن لادن شريط فيديو وإلى جانبه بندقية كَلاشنِكوف.

كان من الصعب إيجاد ربط وعلاقة بين كل تلك المجازر ورجل صغير رشيق يجلس على دكة بقرب البحيرة الخزان. لكن الكثير حاولوا ذلك، والجنرال حذر من الغربيين وبالأخص الإنجليز والصحفيين منذ أن رُسمت له صورة باعتباره "وحشاً" و "مجرم حرب متأصل" في برنامج وثائقي للبي بي سي أواخر التسعينيات، أكثر من كونه مهندساً قام بإيجاد حلول لمشاكل تقنية معقدة ببساطةٍ ألمعية.

مع ذلك، إذا كان الجنرال ومالكو فودكا كَلاشنِكوف يعتقدون بأن رابطاً محتملاً مع بن لادن في مخيلة الجمهور هو الهم الأكثر ضغطاً في علاقاتهم العامة فهم مخطئون. الحقيقة أن هناك تهديداً تتعرض له الانطلاقة الموعودة لكن مصدرها أقرب المناطق إلى الوطن وليس أحداثاً في الشرق الأوسط أو نيويورك. يأتي التهديد من عصابةٍ من القتلة متحجري القلوب بكل معنى الكلمة في جمهورية صغيرة من جمهوريات القوقاز إنهم مصممون على الانفصال عن روسيا الفدرالية: إنها الشيشان.

عندما سقطت الشيوعية في العام 1991 انكمشت الدولة الروسية مؤقتاً. وفي مواجهة هذا التشوش والاضطراب استغل الكثير من البلدان السوفييتية في الأطراف الظرف لكي تعلن انفصالها. تلك الجمهوريات البعيدة عن الثقافة الروسية أو المسيحية الأرثوذوكسية كان انفصالها أكثرَ قسوة. وبفقدان روسيا السيطرة عليها خلّفت وراءها مستودعاتٍ ضخمةً من أسلحة الاتحاد السوفييتي التي تحولت إلى وقودٍ في صراعاتٍ محلية مريرة خلقتها المخاوف من حكم النخب المؤيدة لروسيا ومن الغرائز الدفينة لدى السكان. تحوّلت هذه الصراعات بفعل وجود الكثير من البنادق إلى حروب ضارية، حروب ميزتها مذابح عشوائية ضد المدنيين استخدمت فيها بنادق الكَلاشنِكوف.

في مواجهة مثل هذا الاضطراب وعدم الاستقرار في منطقة مهمة منتجة للنفط في القوقاز، قامت الحكومة الروسية بالتدخل بسرعة، فتحولت سياستها بشكل متزايد نحو ما يشبه سياسة السلطة الاستعمارية التي تلعب على الخلافات بين الدول الصغيرة والمجموعات الإثنية، تماماً كما كان يحدث في أيام روسيا القيصرية فثمة شيءٌ ثابت هو دعم المسيحيين ضد المسلمين. في العام 1992 قاتل الفوج 366 المؤلل والمسلح ببنادق الكَلاشنِكوف إلى جانب الجيش الأرمني الذي قام بمجازر بحق المئات من الأذربيجانيين

المسلمين المدنيين في منطقة ناغورني كارباخ المتنازع عليها بين البلدين. تمكنّت وسائل الإعلام الليبرالية الروسية الجديدة من عرض صور المذبحة لنشر الرعب بين عامة الروس. كان ميخائيل كَلاشنِكوف يتفرج في إيزهفسك ورأى شعوب الوطن الأم وهي تتواجه بالسلاح الذي اخترعه للدفاع عنها بوجه الأعداء. وهذا مادعاه لكي يصرّح أمام العالم أجمع بكلمات عامة عن استخدام بنادق AK47: "هل تعتقد إنه من دواعي السرور رؤية كل هؤلاء السفاحين يستخدمون بندقيتك؟ الأرمن والأذربيجانيون يتقاتلون. لقد كنا جميعاً نعيش في السابق بسلام".

لكن الأرمن والآذريين لديهم تقاليد راسخة لقرونٍ طويلة مثلهم مثل سائر الإثنيات في مناطق القوقاز، فهم اعتادوا على أن يتقاتلوا. كانت هناك مجرد فجوة أشبه بالهدنة دامت خمسة وسبعين عاماً فرضتها الدولة السوفييتية التي مارست بدورها القتل عبر صناعات الأسلحة الثقيلة والكبيرة. تمثل مناطق القوقاز نموذجا يبينُ كيف أن خلافاً محدوداً مع توفّر كميّات كبيرة من بنادق كَلاشنِكوف يتحوّل بسرعة إلى مذبحة. وبما أن الصراعات كانت في الاتحاد السوفييتي السابق، فقد كان من المحتّم أن تتدخل القوات الروسية عسكرياً، عندها ترى المواجهات بسلاح الكَلاشنِكوف بين الطرفين. لقد قتل الآلاف من الروس برصاص منطلق من بنادق الـ AK في الصراع الطويل في أفغانستان والذي استمر عشر سنوات منذ 1979، لكن حروب التسعينيات كانت تجربةً جديدةً للمجندين الروس المحبطين وهم يواجهون مقاتلين غالباً ما كانوا أكثر خبرة في استخدام السلاح الوطني الروسي من الروس أنفسهم. كان نشر السوفييت لبنادق الـ AK في المنظومة التعليمية للمدارس ثم بعدها للمجندين في خدمة العلم جعل انتشارها كاملاً بين الجميع، يتساوى في ذلك الأوزبك والكازاخيين مع نظرائهم الروس. استغل الانفصاليون الشيشان هذه المساواة في ملكية الكَلاشنِكوف ليصلوا إلى النقطة التي أصبحوا يشكلون فيها تهديداً للأمن، وللوجود بالنسبة للديمقراطية الروسية.

كان الشيشان يقاتلون ضد هيمنةِ موسكو عليهم منذ عام 1604، عندما كان الجيش الروسي تحت حكم القيصر بوريس غودنوف يحاول ولمدة عام كامل أن يفرض سيطرته عليها قبل أن يودعها خائباً. وفي 1944 اتهم ستالين الشيشان ومن على تخومهم من الأنغوش بأنهم يتعاونون مع المحتلين الألمان الذين يهددون القوقاز وحقول النفط. كان عقاب ستالين لهم هو النفي الشامل: تّم ترحيل أربعمائة ألف من الشيشان والأنغوش إلى كازخستان وسيبريا (الجزء الأولي من الرحلة كان بالشاحنات التي قدمتها الولايات المتحدة كمساعدة في المجهود الحربي ضد النازية). كانت القطارات خلال الرحلة تمرّ مباشرةً بهم قرب ورشِ العمل في كازخستان حيث كان كَلاشنِكوف ابن الثانية والعشرين من العمر، يقوم بمحاولته الأولى الفاشلة لصنع سلاح أوتوماتيكي للجيش الأحمر. استمرّت فترة النفي حتى عام 1957 عندما سمح خرشوف للشيشان بالعودة إلى موطنهم. لكن العائدين وجدوا بيوتهم وقد استولى عليها المهاجرون الروس وكانت شوارع العاصمة، غروزني، تحت حراسة رجال الشرطة السوفييت وجنود يحملون الكَلاشنِكوف. عاد الشيشان وهم مُثقلون بالحزن، لكن عادوا بحذر لممارسة حياتهم كرعايا للاتحاد السوفييتي بانتظار اللحظة المناسبة.

بينما هم ينتظرون كان أطفالهم، كسائر الأطفال في الجمهوريات الاخرى، يتدرّبون على فك وتركيب الـ AK بأقلّ من دقيقة في المدارس الثانوية. جاءت اللحظة التي كان ينتظرها الشيشان مع انهيار الاتحاد السوفييتي في العام 1991. كان جوهر دودايف جنرالاً في القوة الجوية للاتحاد السوفييتي السابق ومن بين أوائل القادة في القوقاز الذي أدرك أن تقرير المصير الوطني أصبح الآن ممكناً لكنه سيكون عنيفاً. وعلى الفور قام باستخدام الوحدات الشيشانية في الجيش السوفييتي لانتزاع الآلاف من بنادق الكَلاشنِكوف من المستودعات في غروزني واستولى على المؤسسات الحكومية المهمة هناك،

بما فيها مراكز قيادات الكي جي بي، لقد كان عصياناً فعالاً باستخدام الكَلاشنِكوف.

بعد فترة من المفاوضات وتفاقم أعمال النهب وقطع الطرق خارج غروزني أرسل الرئيس الروسي بوريس يلتسن في العام 1994 الجيش الروسي "لإعادة النظام". وبعد حرب دامت عشرين شهراً أوقعت ما يفوق المائة ألف قتيل أُجبر الشيشان وبنادقهم على العودة إلى التراب الروسي. في العام 1995 عندما استولى المتمردون الشيشان على مستشفى في منطقة غودنكوف في روسيا، قُتل أربعة وتسعون مدنياً أثناء الغارة خلال محاولات الكوماندوس الروسي إعادة السيطرة على المستشفى. ومرة أخرى قُتلَ معظم الضحايا بنيران الكَلاشنِكوف.

في العام 1999 قام المقاتلون الشيشان بقتل ثلاثمائة من الروس في هجمات منفصلة بالقنابل وبنادق الكَلاشنِكوف، في مواجهات بين الجيش الروسي والمقاتلين الشيشان في داغستان، جنوب الشيشان، في آخر الأمر أعاد الجيش الروسي احتلال غروزني المدمّرة. لكن وكما حدث في السابق، حاول الجيش الروسي قصف الشيشان بالقنابل من أجل إخضاعهم فاختبأوا، ولكن ما إن توقف القصف حتى خرجوا من بين الأنقاض والدمار وهم يحملون بنادق الـ AK على أكتافهم. عندما كان يلتقي المتمردون الشيشان والجيش الروسي وجهاً لوجه، عادة ما كان التوقيت والمكان من اختيار الشيشان. وكان المقاتلون الإسلاميون ينضمّون إلى الشيشان بصفة متزايدة، كان هؤلاء من المحاربين القدامى في الحرب الأفغانية - السوفييتية ومن الممكن أنهم كانوا يطبقون عملياً الدروس التي تعلموها في ذلك الصراع. لقد أصبحت الممرات الجبلية والوديان مسرحاً للكمائن المنظمة التي كلّفت المجنّدين في الجيش الروسيّ ثمناً باهظاً. مع أواخر التسعينيات لم تكن هناك مناطق آمنة للجيش الروسي في الشيشان.

كان خلف كل أجمةٍ أو شجرةٍ أو صخرةٍ شيشانيٌّ بيده كَلاشنِكوف.

في العام 1997، وهي الذكرى الخمسون لاختراع AK47، زار الرئيس يلتسن مدينة إيزهفسك وأهدى الجنرال كَلاشنِكوف مسدساً تذكارياً. قال الجنرال بشيء من التبرير والاعتذار "حالما يخترع أحدٌ ما سلاحاً هجومياً أفضل مما اخترعت، سأذهب إليه وأصافحه، لكن لم يحدث هذا حتى الآن". وأضاف في لحظة تجلٍّ هادئة متعجباً "هل من الممكن لسلاحي الهجومي الذي قدمتُ في سبيله أغلى التضحيات، أن يكون فقط عند الشيشان كي يضعونه في مهد الرضيع الذي كان يوضع فيه سابقاً السيف أو الخنجر؟" الجواب المختصر والقاسي كان: نعم.

كان الشيشان يقاتلون على طريقة حرب العصابات، وهو نوع من القتال كان فيه الكَلاشنِكوف الذي لا يضاهيه سلاح من حيث الخفة ومقاومة الوحل، والذي يمتلك قوة نارية مرعبة هو السلاح الوحيد الملائم. كان الروس أيضاً يقاتلون ببنادق كَلاشنِكوف، مع أن الشيشان يستخدمون نماذج أقدم بعشر سنوات أو أكثر إلا أن المزحة القاتلة بالنسبة للجيش الروسي كانت أن تلك البنادق جيدة جداً حتى وإن عفا عليها الزمن. أخذ المُسلَّحون الشيشان، الذين لم يعد لهم موطئ قدم في المدن الشيشانية، ينقلون هجماتهم بشكل متزايد ببنادق AK47 إلى عمق الاتحاد الروسي.

بسبب من الإصرار المطلق للشيشان على تحقيق هدفهم لم يبالوا بالضحايا التي يتسببون بها ولم يكن يهمهم إن اعتُبروا مقاتلين أحراراً أم إرهابيين فإنّ البندقية التي يحملونها ستشاركهم الإثم. وأصبحت بندقية الـ AK في أيدي الانفصاليين الشيشان شيطاناً. خلال زيارته لمعرض لبندقية الـ AK47 أقيم في مدينة سوهل في ألمانيا الشرقية في تمّوز 2002، أكد الجنرال كَلاشنِكوف لصحفي ألماني قائلاً: "أنا فخور باختراعي. لكني حزين لأن الإرهابيين يستخدمونه. سيكون عليَّ دين واجب التسديد هو أن أخترع

آلة يمكن للناس أن يستخدمونها وتساعد الفلاحين في عملهم. على سبيل المثال، جزازة عشب".

قبل أسبوع من إدراج وصول الجنرال إلى لندن في جدول المواعيد كان لا يزال هناك شك في تمكنه من القيام بهذه الرحلة. كانت نبضات قلبه مضطربة لذلك نصحه أطباؤه الروس بالراحة لبضعة أيام في بيته الريفي، تعاطى كَلاشنِكوف مع الأمر ببساطة، تحدّث مع حفيده إيغور، تناول حساء الكرنب ورشف من مشروب (شيلين برلوت) بالإضافة إلى الفودكا وتفرج على بعض برامج التفزيون. بينما كان فرسان هاوس هولد كافلري يلمّعون أزرار الفضة التي تزيّن البزات العسكرية وكان أفراد طاقم "بوردي" يجهزون صالات العرض للمناسبة.

في مكان آخر كانت هناك تحضيرات من نوع آخر، اذ كان اثنان وثلاثون من الانفصاليين الشيشان ينطلقون نحو بلدة بسلان المجاورة لأوستيا يحملون قنابل محلية الصنع وبنادقAK47 مسروقة. عندما شغّل الجنرال التلفزيون في الأول من أيلول 2004 شاهد أخباراً مُفزِعة: احتلال المدرسة المتوسطة رقم 1 في بسلان من قبل المتمردين الشيشان. واحتجاز 1156 رهينة، غالبيتهم من أطفال المدارس، كان المتمردون يطالبون بإنهاء الاحتلال الروسي لوطنهم. كانت جميع محطات الإذاعة والتلفزيون تحت سيطرة الكرملن سيطرةً تامةً مع أن الكرملن لم يكن يسيطر على حالة الحصار في بسلان.

مرة أخرى شاهد العالم برعب صورة البندقية الـ AK47 بمخزنها المنحني المميّز على شاشاته، ومرة أخرى كانت الرسالة التي ترافقها رسالة إرهاب. في باحة الملعب الرياضي الذي أحتجز فيه الرهائن كان الإرهابيون يحملون بنادق الكَلاشنِكوف. في الخارج القوات الخاصة الروسية وضباط المخابرات المحليين كانوا يحملون السلاح نفسه. ورجال المليشيات المحلية التي تشكلت بشكل ارتجالي كارثي كانوا هم أيضا يحملون البندقية ذاتها.

كرر المراسلون التفاهات وأنصاف الحقائق التي كانت تطلقها القيادة الروسية المضطربة: "الموقف تحت السيطرة" "هناك فقط 350 رهينة" "ليس هناك خطط لاقتحام المبنى". لكن في خارج المدرسة المتوسطة رقم 1 كانت هناك مشاهد فوضوية تشبه التباين بين مجاميع قوات الأمن المحلية وقوات الشرطةِ العسكرية وهي تتحرك دائرياً بلا انتظامٍ حول المدرسة لتشكل أطواقاً. وسط هؤلاء الرجال المسنين البدينين تجد ثمة من يرتدي زيّ القوات الخاصة الروسية بكامل رشاقته وقد تمّ إرساله من قبل وزارة الداخلية مع نخبة من وحدات "سبتناز" من الجيش الروسي. وكإسقاط من حالة انهيار السلطة المركزية الروسية، اضطرب الموقف وكان من الصعوبة بمكان أن يتحسّن: سلسلة الأوامر سقطت، لن يحتاج المرء أن يكون جنرالاً ليرى أن الأذى المتعمّد وشيك.

ما لم يكن باستطاعة الجنرال رؤيته، كان المشهد داخل المدرسة المتوسطة رقم 1 حيث المئات من الأطفال المرعوبين تم سحقهم ببنادقAK47 في ملعب المدرسة المغلق بموازاة ذلك كان هناك أمهات وجدّات كنّ يجلسن مشلولات من الخوف ومنهكات. كان أي شك حول نوايا رجال العصابات قد تبدَّد عندما منعوا أسراهم من شرب الماء. وبتصاعد درجات الحرارة في الملعب المغلق بدأ الأطفال بالتعري إلاّ من ملابسهم الداخلية ثم شربوا من بولهم لكي يتجنبوا حالات الجفاف. وفقاً لبعض التقييمات المحلية فإن الشرارة الأولى للأحداث كانت قد انطلقت على يد الميليشيا المحلية فهي من فتح النار أولاً مما شجع الإرهابيين على الرد، ووقعت المجزرة التي راح ضحيتها 334 قتيلاً من ضمنهم 186 طفلاً. أياً كان السبب، فقد ترك القتال عدداً كبيراً من الجثث الصغيرة شاهدة على عمق الصدمة الكارثية التي سببتها نيران بنادق AK47 وقد أُطلقت على طفل يهرب راكضاً.

عندما عاد قلب الجنرال ينبض بانتظام مرة أخرى، وصل إلى لندن في

20 من أيلول، العام 2004، ليقوم بدوره الجديد كونه رئيس شرف لشركة "جونيت ستوك فودكا كومباني". نهض واقفاً ليلقي خطابه أمام مجلس إدارة الشركة والمساهمين الذين اجتمعوا في النادي الخاص بالأعضاء والكائن في جادة شافتزبري (Schaftsburry Avenue) وذلك للاحتفال بالانطلاقة الجديدة لفودكا كَلاشنِكوف العسكرية في المملكة المتحدة. صرّح كَلاشنِكوف الذي كان يرتدي الزي الكامل للجنرال الروسي قائلاً: "أنا سعيد على نحو خاص لكوني هنا مع أُناس أعتبرهم رجال أعمالٍ جدّيين. أتمنى أن تكون هذه الماركة التجارية ناجحة حول العالم كما كانت بندقيتي". كان الاقتراح الضمني هو أن AK47 نفسها كانت ماركة مؤثرة كأي ماركة أخرى: بعيداً عن الأخلاق أو أية روادع أخلاقية، فالشيء المهم هو خيارات مجردة لنمط الحياة.

نهض مدير الشركة ليشكر كَلاشنِكوف ويجذب الانتباه إلى أوسمة لينين التي كان يحملها الجنرال. التي أدت إلى التصفيق الحاد لمن كان السبب في جمع رجال أعمال، كلهم تقريباً نتاج منظومة المدرسة الانجليزية. لم يُشر أحد من المدعوين إلى مائدة عشاء هاوس هولد كافالري (Household Cavalry) (نادي سلاح الفرسان) وصالات استقبال برودي إلى ماجرى في بسلان. في الحقيقة مرّ أسبوع بدون أن تسأل أي جريدة الجنرال حول استخدام سلاحه في ذلك الحدث، والذي كان ظاهراً من خلال المشاهد التي كان يبثها التلفاز من مكان الحصار. مع ذلك فإن جميع القنوات منحت مساحة قيّمة لفودكا كَلاشنِكوف. علّق فلوري قائلاً: " لقد كانت الزيارة ناجحة للغاية. كنّا قلقين من أن بعض الصحف ستبدي موقفاً سلبياً لكن على العموم كانت جميع الصحف رائعة".

نعم كان معظمها كذلك؛ في أسوأ الأحوال كان هناك انتقاد صامت للصلة بين الكحول والبندقية الهجومية، حتى أن مجموعة حملة برادي للناشطين الأميركين المناهضة للعنف المسلح كانت ملطفة وجاءت بالشكل التالي:

"نتمنى من الجنرال أن يوافق على أن سلاحه لم يقصد به الاستخدام المدني، تماماً كما وافق على أن الفودكا التي سميت باسمه يفترض أن تستهلك بمسؤولية، بكل وضوح نتمنى عليه أن يوافق على أن الناس الذين يتستمتعون بتلك الفودكا عليهم أن لا يتعاطوا أبداً مع سلاحه".

ربما لم يكن الأمر علنيا إلاّ أنّه كان في صالة باردي للاستقبال الكثير من فودكا الجنرال الممتعة مع سلاحه الذي ينتقل بتلذذ من يد لأخرى بين الفتيات المقهقهات وأنصاف الصحفيين.

ظهر الجنرال مرة أخرى ببدلة العهد السوفييتي، بكامل أوسمته. نهض أحد أبناء عائلة برودي الذي كان واضحاً أنه من الذين لا يمتلكون أي خبرة أو معرفة بالماركسية اللينينة، ورفع كأسه عالياً ليشرب نخب التقاليد المشتركة لعائلتيّ "برودي وكَلاشنِكوف" حافظ الجنرال على ابتسامته؛ وإن لم يكن الجنرال مرتاحاً إلى التقليل من قيم الأخوَّة السوفييتية وتحويلها إلى مجرَّد خدعة تسويقية هي ماركة تجارية مسجلة عن نوعية فودكا، فمن المؤكَّد أنه كان حريصاً على عدم إظهار مشاعره هذه. "على كل حال"، وكواحد من مدراء الشركة الجديدة قال لي: "مَن لا يودّ أن يشرب مثل هذه الفودكا كبطل للطبقة العاملة؟". كان من السهل على المتواجد وسط الهمهمات الوديعة لصالة الاستقبال نسيان ماجرى في بسلان، لم يفكر أحد ببنادق AK47 تلك الآلات الفعالة التي قتلت الأطفال. مع أن موظفات العلاقات العامة الذين تغمرهم الإثارة كانوا جميعاً يفكرون حقاً بالميّزات الثورية للعلامة التجارية، فقد كانت بين أيديهم "المساواة للأرواح ناصعة البياض التي يحملها تشي غيفارا".

لكن بعد شهر واحد خارت الأرض تحت أقدام الجنرال الذي كان يحاول زيادة راتبه التقاعدي. فقد تسلّمت مجموعة بورتمان، التي أسّستها صناعة الكحول البريطانية لحماية نفسها من التشريعات الحكومية غير المناسبة،

شكوى من جمعية ألكوهول فوكس سكوتلاند مفادها: إن الماركة التي تحمل إسم كَلاشنِكوف لاتناسب أبداً المشروبات الكحولية، وذلك لأن هذا الأسم ارتبط بأذهان الناس باسم سلاح مشهور عالمياً وهو بندقية الـ AK47 التي أصبحت رمزاً للإرهاب والعنف. ردّ فلوري على هذه المزاعم داحضاً الدعوى التي تقول إن فودكا كَلاشنِكوف تمجّد الأسلحة، لكن الشكوى صمدت ونجحت في جعل المنتج غير قابل للتسويق داخل الممكة المملكة المتحدة.

يحقُّ للمرء أن يتساءل كيف استطاعت بندقية عمرها خمس وستون سنة أن تبقى موضع انقسام بهذا العمق. يقول الجنرال، وهو على حقٍّ فيما يقول إنه اخترع بندقية لا أكثر. فمن المسؤول فعلياً عن تحوُّل الكَلاشنِكوف إلى رمز للإرهاب أو رمزٍ للتحرُّر كسائِر الأسلحة الصغيرة المنسيّة في العالم؟ أهي براعة هذا السلاح الأكيدة في القتل، أم أنه النموذج الألمعي للتقنية والسهولة في التصنيع؟ أم هو التزويد المتواصل للعالم الثالث ببنادق الكَلاشنِكوف الذي قامت به الدول الشيوعية السابقة وأخيراً الولايات المتحدة الأميركية وإسرائيل لما يزيد على الأربعة عقود؟ أم هي هذه الصورة الثورية لهذه البندقية التي خلقها المفكرون الغربيون كما خلقها ثوريو العالم الثالث، والنشر المستمر لتلك الصورة عن طريق وسائل الإعلام الجماهيرية؟ لكل من هؤلاء دوره الذي يؤديه لكن في النهاية النجاح الفذّ لبنادق AK، فيما لو كانت ناجحة، يكمن في تلك العوامل مجتمعةً.

مع نهاية الستينيات كانت قد تطورت إلى جانب الخصائص الفيزيائية، ثقافة السرعة التي ثبت أنها طاغية وكارثية في آن معاً بالنسبة لآلاف الناس، مدنيين وعسكريين، أطفالاً وراشدين، رجالاً ونساءً. لكن للوصول إلى ذلك الهدف كان على بندقية الكَلاشنِكوف أن تقطع رحلة طويلة. وبدأت الرحلة منذ سنوات عديدة في ظل حرب أكثر رعباً بما لا يقاس من الصراع في الشيشان.

٢ - مدينة البنادق

أخيراً انتصرت الشيوعية السوفييتية على الفاشية الألمانية في 30 من نيسان 1945، عندما قام رقيبان من الجيش الأحمر برفع العلم الروسي الذي يحمل رمز المطرقة والمنجل على المبنى المحترق للبرلمان في قلب برلين. إنها اللحظة السامية للانتصار السوفييتي. لا تزال إلى الآن تمثل لحظةً فاصلةً للسلاح الروسي.

تطوع الرقباء المجندون للصورة التي يلتقطها لهم المصور يفغيني خالدي وهم يشربون الفودكا بينما يتسلقون السقف. لم يكن الرقباء يحملون بنادق AK47. كانوا يشقون طريقهم في القتال نحو مركز الإمبراطورية ببنادق (من نوع تومي) PPSH4، التي كانت السلاح المميّز لرجل المشاة السوفييتي. كان الألمان المهزومون للتو من يحمل سلاحاً نارياً بمخزن ذخيرة مقوّس الشكل.

كان من البديهي للروس أنّ اختراع بنادق AK47 كان حصيلة النضال ضد الفاشية، وأي ادعاء بأن الاتحاد السوفييتي استنسخ أسلحة نارية ألمانية نازية ما زال يشكل سبباً للغضب والانزعاج. إنّ الكبرياء الوطنية والمرارة الجماعية العارمة من جرّاء الخسائر التي تكبّدها الشعب السوفييتي والتضحيات التي قدمها خلال الحرب العالمية الثانية لم تتراجع كثيراً رغم مرور ما يزيد على ستين سنةً يستدعي التشكيك في الأسطورة التي نمّت خلال الحرب أن تضع نفسك في موضع المعادي للمشاعر الوطنية الروسية. لكن يبقى السؤال بصدد مدى تأثير تقنية الأسلحة الألمانية على ما أصبح يمثل قمّة الإبداع

التقني الروسي. ماذا لو كان أعظم إنجاز للاتحاد السوفييتي في مجال الأسلحة الصغيرة من ابتكار عدوه الوحشي المهزوم؟ وماذا لو لم يكن الرجل الذي اخترع السلاح بطلاً سوفيتياً على الإطلاق بل مجرم هارب من دولة شيوعية؟

في أيلول من العام 1946 رحّب المسؤولون في اللجنة الخاصة لمفوضية الشعب السوفييتي في القوات المسلحة بمصمم الأسلحة ف. أ. ديغتاريف في مصنع كوروف للأسلحة الذي يقع على بعد 250 كلم جنوب شرق موسكو. كان ديغتاريف أسطورة في تصميم الأسلحة: حمل المشاة أسلحة من تصميمه، وزوّد الدبابات بالرشاشات الثقيلة والمدافع. هو الآن في أواخر الستينيات من العمر، وأشعث الشعر ذو جلدٍ رماديٍّ لرجل كان يعمل بجد لأشهر متواصلة. كان يرتدي بدلة جنرالٍ كامل الرتبة في الجيش الأحمر، وتزيّنُ صدرَه نجمةٌ ذهبية تشير إلى أنه واحد من أبطال الاتحاد السوفييتي. يمسك بيده التي ترتدي القفاز مقبض حقيبة جلدية بنية اللون تحوي بندقية نصف آلية. دخوله إلى المنافسة جاء بتوصية من مفوضية الشعب لتزويد الجيش بسلاح هجومي. كانت منافسة يتوقع الفوز فيها إلى حد بعيد.

رحّبت لجنة الاستقبال بديغتاريف بما يستحق من الاحترام، لكن عندما ترجّل من سيّارته الرسمية لم تكن مشيته مشيةَ رجلٍ بمستوى إنجازاته. كان يتمايل شارد الذهن كما كان يُشاهَد في أماكن التدريب على الرمي واختبار المهارات في إطلاق النار، هو فقط ذاهل ونصف مستمع، كما أكد المسؤولون له في آخر اختبار للقذائف ذاتية الدفع وفي تقارير حقل الرماية، كان يمشي حاسر الرأس رافعاً بصره بين ورشات تصنيع الأسلحة السوفييتية الصغيرة. كان التقنيون ينظرون إلى بعضهم من وراء ظهر الجنرال. لماذا كان مذهولاً لهذه الدرجة؟ ما الذي يدور في عقل الرجل المسّن؟

ربما فوجئ المسؤولون عندما علموا أن عقل ديغتايرف كان يعاني من مشكلة يبدو أنها مستعصية وهي أن سلاحه لا يعمل. أثناء الفحص كان

السلاح إما يخطئ في الإطلاق أو لا يُطلق نهائياً، مع أن ديغتاريف كان يحاول جاهداً وبعدة طرق أن يعدل من ميكانيكية إطلاق النار ويحوّر في اتجاه سبطانة البندقية دون أن يتمكن من اكتشاف العلة في الفشل المتكرر. بحث في عقله ولمدة أسابيع عن الطريقة التي تمنع الخرطوشة 7،62× 39 ملم التي كان يستعملها المتنافسون كلهم من أن تعلَق في حجيرة الإطلاق، لكن ولأول مرة في تاريخ مهنته هذه لم يستطع إيجاد الحل.

بوصول الحفلة إلى نهايتها كان ديغتايرف قد توقف أمام طاولة العمل حيث يقف رجلٌ في أواخر العشرينات مع اثنين من زملائه. تعرف الجنرال على ميخائيل كَلاشنِكوف قائد الدبابة السابق الذي كان قد صمم بندقية رفضتها المفوضية قبل سنتين. قال ديغتايرف: "ماذا تطورون أيها الشباب؟" تنحى كَلاشنِكوف جانباً للرتبة الأعلى لرئيسه الذي كان ينظر إلى قطع السلاح المفكك الموضوعة على الدكة.

تساءل "ماهذا؟"

"إنه نموذج الرقيب كَلاشنِكوف " كان الجواب بنبرة رسمية.

قال الجنرال "إذن ركِّبه أيها الرقيب لنراه".

كان كَلاشنِكوف قد تمرن جيداً على سلاحه وقام بتركيب السلاح في دقيقتين. أخذ ديغتاريف السلاح منه وقلّبه بين يديه. لم يكن يشبه ما صمّمه ديغتاريف، الذي كان في الأساس مُختصاً ببنادق الكربينة "وهي بنادق روسية قصيرة" التي كانت في الخدمة مسبقاً لدى الجيش الروسي. كانت سبطانة بندقية كَلاشنِكوف أقصر من البنادق ذات القياس القصير المعتمدة لكنها أطول من سبطانة المسدس. كانت ذات ساعد خشبي ومقبض من مقابض المسدسات، مع عتلة معدنية متحركة للأمان وتتحرك حركة بسيطة للاختيار بين طريقة الإطلاق رشّاً أو منفرداً، آلياً أو نصف آلي. تحت العتلة

كان هناك زناد مقداح مخصّص للإطلاق، الأمر الذي يُعدّ لمسة ذكية، تسمح للبندقية بالإطلاق من دون أن يحتاج المُطلِق إلى خلع قفازه. كان أمام زناد المقداح مقبض خشبي من المنطقة التي تبرز منها سبطانة البندقية. فوق السبطانة هناك ما يشبه سبطانة ثانية لكنها في الحقيقة عبارة عن أنبوب يسمح برجوع الغاز الساخن الناشئ من الإطلاق ويستخدم القوة الراجعة لقذف الخرطوشة الفارغة ويسهم في إطلاق الخرطوشة التالية. أما مخزن الذخيرة فقد كان في المقدمة أمام الزناد وتحت السبطانة مُقّوساً إلى الأمام وبعيداً عن الزناد.

نظر ديغتايرف إلى السبطانة. حرك يده إلى الأمام، ونقر على العتلة التي تحوّل الإطلاق من المفرد إلى الرش، فنخر كالخنزير مبتسماً كدليل على استحسانه. "كان حلّك لمشكلة عتلة الاختيار بين الآلي ونصف الآلي حلاً مُبتكَراً بالتأكيد".

أجاب كَلاشنِكوف مرتبكاً "شكراً جنرال" ولم يكن متأكداً فيما إذا كان الأمر تأنيباً أم إطراءً من قبل رجل عظيم. حرك ديغتاريف يده مرة أخرى على المعدن البارد وعلى خشب الساعد. كان مفتوناً بما بين يديه، رفع ذلك السلاح الذي يلتمع بيد واحدة بعد أن ركّب مخزن الذخيرة وتوقف هنيهة ولم ينبس ببنت شفة. بعد ذلك تبسّم للمرة الأولى في ذلك اليوم والتفَت ثانية إلى الموظفين الذين كانوا وراءه.

"ليس هناك أي داعٍ لكي أرسل النماذج التي صنعتها إلى الاختبار. النموذج الذي صممه الرقيب أفضل كما أن النموذج واعد للغاية. يمكن أن تروه بالعين المجردة". ضحك الموظفون بارتباك لما قال الجنرال ذلك. "إذن سيتوجب علينا إرسال النموذج الذي صنعته إلى المتحف. طاب يومك أيها الرفيق كَلاشنِكوف".

ابتعد الجنرال ضاحكاً. وانطلق الموظفون وراءه، تاركين كَلاشنِكوف فاغر الفم، فيما التقنيون الذين من حوله ينظرون إليه وبالكاد يخفون تعجبهم.

عندما استعاد كَلاشنِكوف رباطة جأشه التفت إلى سلاحه. فجأة بدا أنه صغير جداً مقارنة بالأهداف المتوخاة منه. إذا فاز كَلاشنِكوف في المسابقة، فإن الملايين من جنود القوات المسلحة السوفييتية سيزوَّدون به للعقد القادم؛ سيكون السلاح الذي سيستخدمه بلده من أجل السيطرة على مناطق واسعة سيحصل عليها من نصره في الحرب العالمية الثانية وكذلك من أجل الدفاع عن تلك المناطق بوجه الولايات المتحدة إذا اندلعت الحرب معها. كانت هذه الحرب الهاجس الرئيسي في عقل كَلاشنِكوف. لقد عرف بأن أي صراع عادي مع الاميركيين سيكون قتالاً بجيوش متحركة. سيتم إرسال جنود المشاة الروس إلى المعركة داخل ناقلات جنود ضيقة، لذلك سيحتاجون إلى أقصر سلاح. ستخوض الجيوش معارك في أراضٍ بور تذروها الرياح وفي مدن ألمانية مدمّرة، فيكون من المطلوب من السلاح الناجح أن يكون مقاوماً لما يتعرض له من غبار ورطوبة وبرد قارس وحرارة، وأن يبقى مع ذلك كله دقيقاً في إصابة الأهداف القريبة والبعيدة. ويجب أن يكون سهلَ الفك والتركيب والتنظيف. وبما أن الجيوش التي ستحمله في المعركة قادمة من أنحاء الاتحاد السوفييتي وجمهورياته النائية كلها، وتتكلم بلغات متنوعة وغالباً ما يكون مواطنوها غير متعلمين، فيجب أن يكون السلاح بسيطاً.

هل كان لدى كَلاشنِكوف ذلك السلاح؟ كان معدل سرعة الإطلاق 650 طلقةً في الدقيقة، ومع ذلك فإن السلاح يرتّد قليلاً إلى اليسار عندما يستعمل في الإطلاق الآلي الكامل، فكان من السهل مواجهة متطلبات الدقة في القتال. من المؤكد أنه كان بسيطاً بما يكفي؛ كانت هناك ثمانية قطع متحركة فقط. هل كان ديغتايرف على حق؟ هل كان سلاحه جيداً بما يكفي ليفوز في المسابقة؟ كان كَلاشنِكوف ضد نخبة مصممي الأسلحة السوفييتية

الصغيرة _ ليس ضد ديغتايرف فحسب، بل ضد الأسماء الأخرى الشهيرة من أمثال توغاريف وسيمنوف وشابغين وبولكين وديمنتايف. اخترع فيدور توغاريف نموذجاً نصف آلي لسلاح جنبي "مسدس" للقوات السوفييتية من نوع مسدسات TT (الحرف الأول يرمز إلى توغاريف والحرف الثاني إلى المنطقة وهي "تولا" التي تم فيها تصميم السلاح وصُنعه). أما جورجي شابغين فقد استطاع أن ينال شرف صناعة بندقية رشاشة كان لها دور كبير في انتصار الاتحاد السوفييتي في الحرب.

لكن نتائج المسابقة لم تعلن رسمياً مدة ثلاث سنوات كاملة ورغم مكانة الرجال الذين دخلوا فيها، إلا أنها لم تُعلن عن اسم الفائز. وكان المتنافسون جميعهم، سواء المشهور منهم أو المغمور، مجبرين على استيفاء معايير الدقة والأداء التقني نفسها. بعدئذ عرف كَلاشنِكوف أنه يقف أمام فرصة جيدة جداً للنجاح. وُضعت بندقية KBP-580 بالماء، لمدة ساعة ثم تمّ تلويثها بالتراب والوحل، فكانت الأجزاء الميكانيكية منقوعة بالطين عملياً وسبطانة البندقية سدّت به أيضاً، إلا أن البندقية بقيت تطلق النار بدون أي عطل. فكَلاشنِكوف نفسه لم يكن يدرك ذلك حتى تلك اللحظة. كان الحكام مندهشين لكفاءة السلاح ومرونته، ولم يكن أحد من الداخلين في المسابقة قادراً على إنجاز شيء مماثل. كانت له منفعة حيوية: كان كَلاشنِكوف بطل حرب إلى جانب الخلفية التي صنعت منه شخصية جذابة بنظر المشتغلين بالدعاية، كانت هناك قصة أخرى، قصة عن خداع وسجن وفرار. كان كَلاشنِكوف بطل حرب بلا أدنى شك؛ لم يكن هناك أي تلفيق بصدد رباطة جأشه الجديرة بالملاحظة والتي أبداها تحت النار أو بالجروح والصدمات التي قاساها، لكنه كان عدواً للدولة ومنفيّاً من قبل العدالة السوفييتية. كان كَلاشنِكوف يرى تمزّق عائلته؛ بموت والده وتدهور صحة أخوته بسبب نزوة من ستالين. إن الرجل العبقري الذي اخترع بندقية الـ AK47 وفعل الكثير

لتقوية نفوذ الشيوعية عبر العالم، كان في الحقيقة في صف المعارضة للدولة السوفييتية. كان يمكن لكَلاشنِكوف أن يواجه الموت على يد الشيوعيين قبل أن يواجهه على يد النازيين بزمن بعيد.

وُلد ميخائيل تيوفج كَلاشنِكوف في 10 من تشرين الثاني/ نوفمبر في العام 1919 بقرية كوريا في السهوب الواسعة لمقاطعة ألتاي في الجنوب الغربي من سيبريا بالقرب من حدود كازخستان. كان لديه أختان وستة أشقاء. كان لميشا (تصغير لاسم ميخائيل بالروسية) أخت أكبر منه، وكانت العائلة من الكولاك، وهم الفلاحون الذين يمتلكون مزرعة بمبانيها ومكائنها الزراعية البسيطة وبما يكفي من الأرض لإنتاج فائض صغير لغرض التجارة. وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا من الفقراء؛ بيد أن الناس كانت تنظر إلى أهالي الكولاك في بعض المناطق بوصفهم من الأثرياء. كان وجودهم محفوفاً بالمخاطر باعتمادهم على الطبيعة وتقلباتها وعلى العمل المضني القاسي. وكان المال يدّخر بيقظة شديدة أو يعاد استثماره في الزراعة. وأي قطعة من المكائن تتعرض للكسر يعاد تصليحها في الموقع نفسه أو يعاد تدوير قطعها. وكأي شخص آخر، كان على ميشا الشاب أن يساعد في العمل. كان الصبي مفتوناً بالطريقة التي تعمل بها المكائن، وعندما بلغ سن العاشرة أصبحت لديه دراية شاملة بالميكانيك. بعد خمس وسبعين سنةً يتذكر كَلاشنِكوف فيقول" تعلمت أن أكون حرفياً ماهراً في أرض المزرعة. ذلك ما جعل لديّ بعض التفهم لأولئك البشر الذين يعملون في ورش صغيرة لصناعة بنادق AK47 منتحلة، في باكستان والشرق الأوسط. يتطلّب ذلك مهارة كبيرة، وتعلمت أن أعمل وأصمم بطريقة مشابهة وأنا على ثقة من كيفيتها يعني أن تقوم بإصلاح الأشياء التي لا تستطيع أن تتحمل ضياع أي شيء منها".

استطاع آل كَلاشنِكوف بهذا الأسلوب المُتقن النجاة والبقاء من عام إلى آخر، وخرجوا سالمين من أهوال الحرب الأهلية ومن المجاعة التي تلتها وعمّت

أرض الوطن في أعقاب ثورة 1917. لكن الكثيرين من جيرانهم كانوا أقل نجاحاً. وبترسيخ حكم البلاشفة على البلاد، استثارت العائلة حسد وضغينة القرويين الذين لا يملكون أي أرض. كان ميشا غافلاً عن هذا الامتعاض الزاحف نحوهم مثلما كان غافلاً عن المحاولات المؤذية التي قام بها لينين أولاً ثم ستالين من أجل إعادة تنظيم حياة الفلاحين حسب المبادئ الشيوعية. كل ما عرفه كان العمل الشاق وأحياناً كان يستمتع برحلات الصيد عندما كان يُسمح له بحمل بندقية أبيه مثل باقي رجال القرية لاقتفاء أثر حيوانات الأيّل والغزلان في الغابة. وفي حالة الصيد الوفير كانوا يعودون بما يكفي من الطعام لمدة شهر إذا راعوا الاقتصاد في اللحوم المطهوة واستخدموا العظام لصنع الحساء. بهذه التقاليد الراسخة عاشت العائلة. تزوجت شقيقتا كَلاشنِكوف الكبيرتان نيورا وغاشا وتم شراء بعض الماشية إضافةً إلى زرع الحقول وجمع المحاصيل.

لكن بينما كان ميشا يتعلم تصليح محور العربات والنوابض في المزرعة، كانت الأوامر في موسكو قد أعطيت لإنهاء نمط حياة الفلاحين في "ألتاي". في 1928 أطلق ستالين الخطة الخمسية الأولى التي تدعو إلى التصنيع الإلزامي الشامل والسريع في أنحاء الاتحاد السوفييتي كافة. كانت مراكز التصنيع تتكاثر بسرعة كبيرة؛ كانت المدن تحوي مئات الآلاف من العمال حيث يجب تقديم الطعام لهم. ولإنجاز هذه المهمة، أصدر ستالين مرسوماً يقضي بأن الصناعة الغذائية يجب أن توضع أيضاً ضمن الصناعة الراسخة والنظام الزراعي التعاوني للأمة. سيق الفلاحون في طول الاتحاد السوفييتي وعرضه إلى المجهول، قاوم الفلاحون من أمثال عائلة ميشا، التي كانت تمتلك قطعة أرض صغيرة، المحاولات الحثيثة لدفعهم إلى المزارع التعاونية (أو الكومونات). وفضلاً عن فرض الدولة تعديلاً في أسعار المحاصيل التي ينتجونها، قامت بقتل أبقارهم وخنازيرهم وأضرمت النار في حقول القمح التي يملكونها.

انتشر الجنود في منطقة ألتاي لقمع المقاومة، فعندما يكون الإنتاج الزراعي في حالة كارثية في أنحاء الاتحاد السوفييتي كلها، عندها كان ستالين يلقي باللوم على الفلاحين وعنادهم بدلاً من أن يحمّل المسؤولية للخطة التي ضربت واحداً من الجوانب القليلة للاقتصاد السوفييتي التي كانت تعمل بنجاح.

في بدايات العام 1932 وجَّه مسؤول الحزب الشيوعي في القرية تهمة إلى عائلة كَلاشنِكوف. ففي البداية كان هذا الأمر لا يعني الشيء الكبير والجدي أكثر من التسمية التي أُطلقت على ميشا: فعندما استمرّ ميشا في السير عبر شارع القرية ذاهباً إلى المدرسة كعادته، كان ثمة أمر قد استجدّ. وهو أن الأولاد من العوائل الفقيرة بدأوا يصرخون به كلما مرّ وينعتونه بـ"كولاك". كان الغلام الصغير الذي لم يكن لديه أية فكرة عن الفرق بين كولاك وكومرد (أي رفيق)، سعيداً بمطاردتهم. وتحوَّل الشرطي الذي كان لطيفاً إلى عدواني غليظ. أما التوبيخ الذي كان يتعرض له وهو في طريقه من وإلى المدرسة، فتحول من الشتائم إلى القذف بالحجارة، فبدأ ميشا بالشجار مع الأولاد على نحو مُتكرّر. ففي إحدى الليالي وبعد معركة سببت تجمعاً كبيراً طلب الأب من ميشا وإخوته أن يتجاهلوا ما يتعرضون له من شتائم وألا يقوموا بأي رد فعل يبرر للسلطات اعتقالهم. كان ميشا يتعرض إلى الدفع والسخرية وأصبح يبكي وهو محبط لكن لم يعد يقاتل أحداً. دفن والده نفسه بالعمل متأملا أن تصمد العائلة حتى تتنازل السلطات وتنزل عند رغبتهم بالاستمرار في الزراعة كما كانوا يفعلون دوماً.

لم يحدث ذلك بل دعا ستالين إلى "تصفية الكولاك كطبقة" وأطلق العنان لهجوم مسعور ضد الفلاحين الذين كانوا ينتجون معظم كمية الغذاء في البلاد. وبقدر ما كان الهجوم واسعاً كان غير منطقي: في تقييم للأرشيف السوفييتي عمّا وقع حينها، يرد أن خمسةَ ملايين شخص عوقبوا بالنفي إلى

سيبريا ومناطق أخرى نائية ومئات الآلاف قتلوا أو ماتوا في معسكرات السجون عندما انحدر الاتحاد السوفييتي نحو هاوية الجنون المطبق. وصل الرعب إلى عائلة كَلاشنِكوف في صباح خريفي من العام 1932. اختبأ فيكتور أخو ميشا الأكبر لكن باقي الأسرة كانت في المنزل عندما دخل بعض الرعاع من بوابات المزرعة فجأة وساقوا ما تملكه العائلة من المواشي إلى الحقل المغطى بالثلج. كان الجو مشحوناً بخوار البقر وثغاء الغنم المرتعب. رأى ميشا من النافذة رجالاً يستلّون سكاكينهم الطويلة من أحزمتهم ويذبحون كل مايصادفونه من الحيوانات. بعد ساعة من الزمن كان الذي تبقى كومة من الأحشاء ثم تحرك جمع الرعاع نحو المباني التابعة للمزرعة وجردوها من المكائن الزراعية.

كان ميشا يقف مذعوراً خلف النافذة مقتنعاً بأن الرجال سيهاجمون العائلة بعد الانتهاء من الماشية. بينما هو في هذه الحال سمع الحوافر وإذا بكوكبة من الشرطة الخيّالة قد وصلت إلى باب المزرعة. لكنها لم تأت لتفريق حشود الرعاع بل جاءت لتفريق عائلة كَلاشنِكوف. أمر رجال الشرطة العائلة بأن تأخذ ما تستطيع حمله من أمتعة وأصعدوهم في عربة يجرها حصانان. بعد رحلة دامت ساعتين من الإرباك والبرد حد التجمّد لأقرب ساحة لمحطة قطار، ثم دُفعوا، في عربة لنقل الماشية، مع عائلتين من الكولاك، كان في العربة دلوٌ واحد للتبوّل لثمانية عشر شخصاً.

بعد ثلاثة أيام توقف القطار في محطة نيزهنيايا موخوفايا وهي مكان العقوبة للمُرحّلَين في منطقة ياكتشار في سيبريا، على بعد 800 كلم شرق ألتاي. فتح الحراس الأبواب المنزلقة وقرعوا بشدة على جنبات العربات بأعقاب بنادقهم. ما أن فُتحت الأبواب حتى انسكب ضوء الشتاء القاسي الذي يبهر النظر في هذا المكان النتن. احتاج ميشا إلى دقيقة أو نحو ذلك حتى استطاع التركيز على ما كان يحدث في الخارج. على جنبات القطار كان الناس يتدافعون ويقفزون إلى الأرض. وقد أجبر الحراس جميع المرحَّلين على السير في

صفوف طويلة ثم راحوا يركضون في موازاة صفوفٍ من العائلات المذهولة وهم يصيحون بالأوامر. كانت بنادقهم الكرابين تتأرجح على أكتافهم. لم ير ميشا أبداً هذا العدد الكبير من الجنود ولا هذا الكم الهائل من البنادق في حياته. اندمج مع الحشد الذي سيقَ بقوة السلاح إلى أن وقف أمام المفوض "القوميسار"، مئات من الرجال والنساء والأطفال على مرمى هدف البنادق، بصق المفوّض ازدراءه عليهم قائلاً: " أنتم الآن لستم برفاق. انكم سكان معسكر العقوبات للمرحّلين. هذا يعني أنكم هنا لتنالوا العقاب، اعملوا بجد أيها المرحّلون وقد تحظون في يوم ما على لقب رفيق مرة أخرى".

كانت العائلة محظوظة لأنها لم تكن مثل الآلاف الذين قُتلوا رمياً بالرصاص. لكن الترحيل كان أكثر كارثية من القتل. تم إلقاء القبض على فيكتور وحوكم محاكمةً قصيرة في قرية كوريا وحُكم عليه بالسجن مدة تسع سنوات بالأشغال الشاقة، وعندما أطلق سراحه بعد سبع سنوات تساءل "لماذا سجنت ولماذا أطلق سراحي" أعيد إلى السجن ليكمل السنتين المتبقيتين، فقط لأن لديه أسئلة. ولذلك وبعد أن أكمل المدة وأُطلق سراحه لم ينبس ببنت شفة. بعد نهاية الشتاء الأول في نيزهنيايا موخوفايا توفي والد ميشا بسبب الإنهاك الشديد. فتزوجت أمه للمرة الثانية بعد ذلك بسنة، لذلك كان ميشا محشوراً في الكوخ ليس مع عائلته فحسب بل مع أب جديد مع أولاده. ولأن ميشا كان يمضي الوقت الكثير في الصيد في الغابات بواسطة بندقية قديمة حتى العام 1935، فإنه ببساطة شديدة ابتعد عن معسكر العقوبات ورجع إلى البيت القديم.

كان يختبئ في البيوت الريفية المهجورة وفي الغابات لكيلا يقع في أيدي المليشيات التي لديها الأوامر بإطلاق النار على الهاربين، استغرق ستة أيام لكي يصل إلى محطة قطار تايغا. وتمكن هناك من الركوب في القطار المتوجّه إلى بوسبليكا التي لا تبعد سوى 65 كلم عن قرية كوريا؛ وهي المسافة التي

قطعها مشياً على الأقدام في يوم واحد. لقد انهار من شدة الإعياء عند بوابة بيت أخته نيورا، فاستراح أسبوعين قبل أن يجد عملاً في تقطيع الأخشاب في مزرعة تعاونية. وسرعان ما شعر أن هذا العمل الجسدي كان متعباً لعضلاته الضامرة، لذا فضّل ألّا يكون عبئاً على نيورا فسكن مع أخته الكبرى غاشا. كان زوجها مسؤولاً حزبياً وكان يعامل ميشا باعتباره كولاك خسيس. ووقع الأسوأ من ذلك عندما زار ميشا ما تبقى من بيتهم السابق. فقد وجد البيت محترقاً بالكامل ومدكوكاً بالأرض. أخذ ميشا المفزوع والمهزوم صرة خبز من نيورا وعاد من حيث أتى. بعد أن استجدى توصيلة من الشاحنات المارّة ومشى لأيام متواصلة رافقته فيها المعاناة والحمى رجع في النهاية إلى نيزهنيايا موخوفايا بعد ثلاثة أشهر من رحلته.

كانت الرحلة محاولةً للإمساك بالماضي لكن النتيجة كانت معاكسة، إذ اكتشف كَلاشنِكوف مستقبله. بدأ رحلته كصبي يدعى ميشا وهو الصبي الذي أراد إعادة اكتشاف سعادة الطفولة وثوابتها لكنه رجع كميخائيل، الرجل الذي عرف أن الطريق الوحيد الذي يحقق النجاح والبقاء هو الطريق الذي تسلكه بجهودك الخاصة. لقد أبدى من الشجاعة ورجاحة العقل ما يؤهله للتفكير بأي شيء ويحقق النجاح فيه. وهكذا التفت كَلاشنِكوف إلى الأسلحة وصبّ اهتمامه فيها، يفكك بنادق الرجال المحليين فقط من أجل الاستمتاع بمعرفة كيف تُركّب. كان الناس في نيزهنيايا موخوفايا يقولون إن كَلاشنِكوف "مجنون" مهووس بالأسلحة. ولم تبدر منه أي إساءة، بل كان نافعاً ومستعداً على الدوام لتصليح أي ماكينة لديهم يصيبها العطل. بعد ذلك وفي 1936 حصل كَلاشنِكوف على هدية لا تصدّق من أقرب أصدقائه وهو غافريل بوندارنكو ذو التسعة عشر عاماً الذي كان يعمل محاسباً في مزرعة تعاونية قريبة وهو من المرحّلين أيضاً من قرية كوريا. كانت الهدية مسدس برونينغ أميركي.

من أين حصل بوندارنكو على مثل هذا الكنز النادر والخطر، فهذا أمر غير واضح. حتى بعد سبعين عاماً لم يعد كَلاشنِكوف يتذكر، أو أنه لا يود القول، لكن على أية حال لقد قُدِّم إليه المسدس مجاناً. كان ينظفه ويعيد تفكيكه وتركيبه في سكون الغابة بكل وقار. لكن الأسلحة التي يقوم بتفكيكها كانت من البنادق التي تحتاج إلى إعادة تعبئة عند كل إطلاقة. لكن مسدس برونينغ كان نصف آلي: عندما ألقى كَلاشنِكوف نظرة في داخل ميكانيكية المسدس اكتشف عالما كاملاً جديداً "شيء عجيب".

يمكن للعلاقات الطيبة مع السلطات في نيزهنيايا موخوفايا أن تكون هي الفارق بين النجاة والكارثة. إذا أوقفت الشرطة أحداً من أبناء عائلة عاملة أو اعتقلت معيلها الرئيسي فإن الجوع سيلحق وبسرعة بقية أفراد العائلة. كان رجال السلطات يغضّون الطرف عن البضائع المهربة طالما كانوا مسرورين ولم يلفت انتباههم شيء. أما موضوع السلاح فهو أمر مختلف. فعندما وصلتهم كلمة عن حيازة أحد المرخّلين لسلاح غير مرخّص وغير شرعي جاءوا إلى كَلاشنِكوف. بعد أن طرقوا على باب الكوخ بأعقاب البنادق أدخلتهم أم كَلاشنِكوف فراحوا يقلبون البيت عاليه سافله من دون جدوى. لقد أخفى كَلاشنِكوف المسدس في كومة الخشب. أخذوه مُكبَلاً بالأصفاد إلى سجن القرية. لو اعترف أين خبأ المسدس لكان مصيره أحد الأمرين إما القتل أو أن يطرح في متاهة الظلمات. لكن الفتى المراهق حافظ على رباطة جأشه وظل صامتاً.

بغضب شديد أطلقت المليشيات سراحه آملين أن يقودهم إلى مكان إخفاء المسدس. قرر كَلاشنِكوف أن يهرب مرةً ثانية من المعسكر، لكن هذه المرة سيكون مجرماً هارباً أكثر من كونه صبياً بسيطاً يحاول استعادة طفولته المفقودة. بعد أربعة أيام من إطلاق سراحه ذهب إلى مخبئه وأخرج المسدس وذهب إلى المزرعة التعاونية، كان ينتظره بوندارنكو مع وثائق مزورة. مشى

الاثنان لمدة ثلاثة أسابيع. وفي صباح أحد أيام شهر أيار من عام 1937 وصلا إلى محطة قطار كازخستان – سيبريا في المآتا حيث يعمل عم بوندارنكو.

عمل كَلاشنِكوف كمبتدئ في قسم الهندسة الذي يستخدم آلاف العمال ليس لبناء محطات القطارات فحسب، وإنما أيضاً لتجميع الشاحنات وقاطرات السكك الحديدية وحافلاتها. كانت أكاديميةً للتفوق حيث يضيف الشاب لمعلوماته السابقة في المكائن الزراعية معرفة صناعية وتقنية. كانت الساحة أيضاً قسماً حيوياً للتصنيع السوفييتي المتقدم وتخضع لإجراءات أمنية صارمة. وعلى الرغم من كونها مكاناً جيداً للاختباء فقد كانت أيضاً مكاناً سيئاً لمن يُعرف عنه أنه هارب من معسكر المرحّلين. بعد أن أكمل سنتين في الدراسة والتدريب على هندسة السكك الحديدية تمّت ترقيته إلى كاتب تقني. لم يكن أحد من رفاق العمل يعرف شيئاً عن هروبه واختبائه، كما احتفظ بسره عندما التحق بفرع الحزب الشيوعي في المعمل – المؤسسة التي كانت، وحتى الوقت الحاضر، تحاول أن تسجنه أو تقتله. "بالتأكيد كان لهم علم عن علاقاتي مع السلطات" كما اعترف كَلاشنِكوف مؤخراً. "لقد وجدوا الكثير من الأشياء في الرؤى التي لديّ، تمثل عائقاً أمام وجهات النظر الآيديولوجية التي لديهم والتي تتصف بالاستعلائية، وهذا ما أصبحت عليه الآن. من سمح لي بالعمل في هذا الحقل السري للأسلحة؟".

كان المجتمع السوفييتي نفسه حقلاً سرياً، مخالفاً للمنطق ومحكوماً بالرعب، لكن بعض الأجزاء السوفييتية كانت مهمة بما يكفي لتترك بدون مضايقة نسبياً – بضعة من المصممين كانوا محتجزين بدون أن يسمح لأحد منهم بأن يطلق النار. عندما كان كَلاشنِكوف يخدم في المآتا كمتدرب، كان رجال من أمثال ديغتاريف وتوغاريف ورفاقهما يتركون وحيدين للعمل في ما كان قد بُدِءَ به قبل خمسة وعشرين عاماً أثناء حكم آخر القياصرة نيكولاس الثاني: وهو البحث عن نتائج صناعة الأسلحة النارية.

حمل المشاة في الحرب العالمية الأولى بنادق الكربينة القصيرة ومشوا قدماً نحو البنادق الثقيلة التي حصدت منهم مئات الآلاف. كان المشاة الروس في الجبهة الشرقية يحملون موسين نغانت وهي بندقية قصيرة تتطلب إعادة عملية سحب الخرطوشة بعد كل طلقة. لم يكن هناك وقت كافٍ لإصلاح الأسلحة الآلية التي تتطلب حيزاً كبيراً تتحرك فيه وكان طولها عائقاً عندما تلتقي الجيوش في المناطق الضيقة. كان السلاح دقيقاً في الإصابة لكنه فاشل تماماً في القتال القريب. لذلك قام فلاديمير غريغوري فيدروف وهو مصمم أسلحة كبير بإماطة اللثام عن سلاح نصف آلي وهو بندقية فيدروف.

في ذلك الوقت كانت المعضلة الرئيسية لمصممي الأسلحة الآلية ونصف الآلية هو عيار الذخيرة. كان سلاح الروس من عيار 7،62×54 ملم يحوي رصاصةً ثقيلة جداً على الإطلاق النصف الآلي لكن الرصاصات الصغيرة التي كانت تستخدم للمسدسات وبنادق الكربينة تفتقر إلى القوة التي تضمن للجندي القتل إذا أصاب الهدف. قام فيدروف بعدة محاولات لتصميم بندقية بعيار قريب من 7،62×54 ملم لكنه كان يحبط باستمرار بسبب أضرار قطر القذيفة على ميكانيكية الإطلاق، التي تسبب الإرهاق ثم الفشل في إصابة الهدف. وجد فيدروف الجواب عن طريق التضحية بقوة السلاح وتكييف سلاحه ليتمكن من إطلاق ذخائر أصغر وهي الذخيرة اليابانية من عيار 6،5 ×30.

كانت بندقية فيدروف نصف الآلية تطلق طلقات منفردة. وعلى رغم أن فاعليتها كانت محدودة لصغر كمية الذخيرة التي يحويها المخزن والتي لا تتجاوز 25 طلقة، إلا أنها مقبولة لكونها أول سلاح هجومي في العالم، السلاح الذي استطاع أن يجعل جندي المشاة جديراً بالثقة بنظر رفاقه، وليصبح السلاح ماكينة قتل فردية. لو تمّ تصنيع سلاح فيدروف الثوري بأعداد كبيرة لكان من الممكن أن يتغير مصير الحرب الإمبريالية الروسية ضد ألمانيا والحلف

النمساوي-الهنغاري. لكن الابتكار جاء متأخراً جداً لكي يوقف الانسحاب الإجباري الروسي من الحرب لحماية القيصر نيكولاس الثاني. كان البلاشفة الذين سيطروا على السلطة في عام 1917 لا يثقون بمصمم الأسلحة الذي كان مقرباً جداً ومتعاوناً مع السلطة البائدة لذلك أودع فيدروف في السجن ثم أطلق سراحه بعد شهرين. لكن حتى في عام 1920، إبان ذروة الحرب الأهلية بين البلاشفة و"الرجعيين البيض" ومناصريهم الغربيين، فشلت عملية إنتاج الأقتومات (السلاح الآلي) من أن تتجاوز معدل الخمسين بندقية في الأسبوع. في العام 1924 توقف تصنيع أقتومات فيدروف توقفاً كاملاً. عاد فيدروف الذي لا يستسلم إلى البحث عن قذيفة متوسطة إلى جانب المصممين السوفييت الآخرين أمثال فيدور توغاريف وفاسيلي ديغتايرف.

تعلَّم كذلك الألمان الدروس من الحرب العالمية الأولى. وبحلول العام 1935 كانوا قد طوروا عيار 7.75 ملم متوسط نصف آلي هو السلاح MKb35. وبعد ثلاث سنوات أنتج توغاريف سلاحين آليين هما SV38، وSTV45. لم يكن أي من هذه الأسلحة سلاحاً هجومياً فعالاً: كان سلاح MKb35 هشاً سهل الكسر وغير دقيق أيضاً، وكانت أسلحة توغاريف بالأساس بنادق صغيرة تعمل بطريقة نصف آلية. كانت أسلحة آلية سريعة الإطلاق وتستخدم طلقات المسدس لكن تفتقر إلى مدى الأسلحة الهجومية وقوتها، وعلى رغم أنها كانت متاحة للجيش السوفييتي إلا أن ستالين نفسه كان قد تدخل ليضمن استمرار تدفقها من المعامل: فقد كانت أسلحة رخيصة وإنتاجها سريع. حتى عندما دخلت روسيا الحرب مرة أخرى ضد ألمانيا في العام 1941 لم يكن هناك ما يكفي من البنادق وكانت الجيوش السوفييتية غالباً ما تُجبر على تقاسم وتبادل الأسلحة فيما بينها. وبقدر ما كانت روسيا تهتم بالأسلحة الصغيرة فإنها دخلت في الصراع مع ألمانيا النازية وهي أقل تجهيزاً وتعوزها التقنية.

وهكذا، عندما وقف الرقيب في الجيش الأحمر ميخائيل كَلاشنِكوف وهو بعمر الثانية والعشرين في برج دبابته T-34 في أوائل أيلول تلك السنة وهو يسمع الصوت المعروف لدبّابات بانزر مارك 4 وهي تتقدّم عبر الغابات، كان الكثير من الجنود الذين حوله مسلحين بشكلٍ سيء يجعلهم غير قادرين على مواجهة المشاة الألمان. أما هو فقد استنتج مسبقاً ما سيحدث: "رأيت بعضاً من جنودنا يتشاركون ببندقية واحدة لكل ثلاثة منهم. أي فرصة نمتلك عندما يكون رجالنا شجعاناً لكنهم يفتقرون إلى التجهيزات؟ من الأيام الأولى للحرب عرفت أن الجواب كان بتصميم أسلحةٍ فعالة وبسيطة بما يكفي لكي يتم تصنيعها بأعداد كبيرة، كنا نحتاج إلى الملايين منها".

استدعي كَلاشنِكوف في عام 1938 وسرعان ما تم الاعتراف بقدراته التقنية. قام بتصميم عدّاد قذائف الدبّابة الذي يسمح لطاقم الدبّابة بإحصاء عدد الطلقات التي أطلقت في المعركة. وهذه معلومة حيوية للغاية في معارك الدبابات إذ من المهم أن يعرف أيٌّ من الدبابات المعادية ما زال لديها قذيفة في مدفعها، كما صممَ جهازاً يمكّن قادة الدبابات من إطلاق النار من مسدّساتهم الـ TT من برج الدبابة T34 وفوّهته مغلقة. في حزيران 1941 فاز كَلاشنِكوف بمسابقةٍ عسكرية لتصميم اختراع يقيس فيه أداء الدبابة وهو ماهنأه عليه شخصياً المارشال زوكوف وهو الرجل الذي كان على رأس القيادة العسكرية التي جلبت الهزيمة لطموحات هتلر في الشرق. "كنت رقيباً فحسب، وهنا كنت قد التقيت بزوكوف" يتذكر كَلاشنِكوف ويكمل قائلاً: "وكأنه لقاء بإله. لا تتخيل كم كان يعني بالنسبة لي". إن "كَلاشنِكوف المعروف" ذا القدرات الفذة، أرسله زوكوف وهو قائدُ دبابةٍ إلى لينينغراد لعمل المزيد من التطوير التقني.

لم تكن مدة الإيفاد طويلة، فقد أطلق هتلر عملية بارباروس، وهي حربٌ خاطفة شاملة عبر حدود الاتحاد السوفييتي تهدف إلى مسح الدولة

الشيوعية من الوجود. اقترب هتلر من تحقيق النجاح. في الأسبوع الأول من عملية بربروس تكبد الروس 150000 قتيلٍ وجريح وحجم الخسائر قورن بمذبحة الحرب العالمية الأولى. تمَّ عزل مئات الآلاف من القطعات العسكرية الروسية ثم تدميرها بحركات فكي الكماشة السريعة على أيدي الفرق الألمانية المُدرَّعة.

كافح الجيش الأحمر المصعوق من ضربة باربروس القاسية للخروج من الطوق. كانت التكتيكات الروسية تهدف إلى امتصاص صدمة الهجوم الألماني وإنقاذ العديد من القطعات المحاصرة قدر المستطاع. كان كَلاشنِكوف قد رُقّي إلى رتبة قائد فصيل في أوائل أيلول. وبعد ما يزيد على سبعين عاماً لا يزال كَلاشنِكوف غارقاً في حالة تلك الفوضى التي قُذف فيها: "لم نكن نعرف أين كنا، في مؤخرة العدو أم في الخط الأمامي. كانت حياتنا مركّبة من حدود لا نهائية، ضربات قصيرة وقاسية على خاصرة العدو؛ كانت تبدو كأنها محاولات دائمة منّا لفك الحصار عن وحدات المشاة التي حُوصرت بسبب التقدم الألماني السريع". في هذا التغيير السريع والموقف المرتبك اندفعت الدبابات الألمانية بشكل غير متوقع خارج المناطق التي كان من المفترض أن تكون بيد الجيش الأحمر. عندما حاول كَلاشنِكوف الانسحاب وجد نفسه بشكل عرضي وهو يتقدم نحو العدو لأن الألمان كانوا يحاصرون المواقع السوفييتية. لكن أخيراً في هذا الصباح المبكر من الخريف كان كَلاشنِكوف يهاجم العدو الذي "يمكن سماع زحفه نحونا".

تمسّك بإحكام ببرج الدبابة بيد واحدة ليتفحص أهم جزء من نظام الاتصال وتأكد من وجوده في مكانه الصحيح مع الجزء المكمّل له، وتهيأ لإعطاء الأوامر بالتقدم. كان البرد قارساً وفي غير موسمه في ذلك الصباح، لكن يدي كَلاشنِكوف كانتا مبللتين بالعرق مسبقاً. كان المشاة السوفييت حول دبابته يسرعون إلى النقاط الحصينة أو يربضون خلف أشجار البتولا

بأجسام نحيلة مثيرة للضحك في مواجهة الهجوم الضاري. أبقى كَلاشنِكوف عيونه ثابتة إلى الأمام وأسند ظهره إلى المسند الحديدي لمواجهة التمايل المترنح لهيكل الدبابة.

كانت دبابة كَلاشنِكوف واحدة من خمس دبابات سوفييتية وقعت في كمين خلف أحد جوانب خندق دفاعي في الجهة الجنوبية الغربية. خلفه بستين كيلومتر تقع مدينة بريانسك وخلفها بمسافة تزيد على 300 كلم تقع العاصمة الروسية موسكو. كان أمام كَلاشنِكوف مباشرة الجيش الألماني. يمكن سماع أصوات دبابات بانزر عبر الضباب الرقيق للخريف وكانت رأس الحربة لمليون رجل و1700 دبابة 19500 مدفع و950 طائرة مقاتلة أمرها هتلر شخصياً بالاستيلاء على موسكو قبل حلول الشتاء وتراجع الهجمة في 1941. كان القائد الروسي الأعلى "ستافاكا" قد أمر بأن تتم عرقلة الألمان وكبح جماحهم على طول الخطوط خارج مدينة بريانسك بينما يقوم زاكوف بتحضير الدفاعات التي تلفُّ العاصمة. لم يتوقع الروس النصر، إذ لم تنجح بعد أيٌّ من عمليّات مقاومة الهجوم الألماني الخاطف في أي منطقة. كان الهدف الموضوعي هو صد الألمان أطول فترة ممكنة حتى حلول الشتاء ونجاح زوكوف في جعل موسكو غير قابلة للاختراق.

وفّر الدرع الحديدي الحماية اللازمة ضد مصادر النيران، ومكّن الطاقم من أن ينجو من ضربات مباشرة من القنابل الألمانية. لكن المشاة كانوا مكشوفين في العراء بحالة يرثى لها وقد رأى كَلاشنِكوف مجاميع من الجنود تتعرض للقتل أو تصاب بجروح خلال هجمات الدروع الألمانية المصفحة التي كانت تخترق الخطوط الروسية. رأى المقاومة الشجاعة مرات عديدة بل والمتهورة لمشاة الجيش الأحمر وهي تسقط لأن الجنود السوفييت لا يستطيعون إطلاق ما يكفي من النيران في ساحات المعارك. عندما تحركت ثماني دبابات ألمانية وخاضت في الوحل متقدمة نحو مواقع المشاة الروس،

كان كَلاشنِكوف يتساءل فيما لو كان يستطيع أن يرى مشهداً مماثلاً يحدث مرة أخرى"كنا بالضبط عند حافة الغابة وكنا نستطيع أن ننتظر فقط اقتراب الدبابات. كنت مستقتلاً كي لا نضيّع موقعنا".

قبل ذلك بأسبوعين لم يملك كَلاشنِكوف غير الانتظار في مكمنه. اتكأَ خطأً على الرشاش الثقيل المثبّت على برج الدبابة. استمر الرشاش بإطلاق النار نحو أشجار البتولا والأحراج المحيطة بالرصاص الذي يمزق الجذوع إلى شظايا ويهزّ الأوراق عاصفاً بها حتى انقشعت كاشفة بذلك موقعهم لمسافة كيلومتر أو نحو ذلك. حرك سائق كَلاشنِكوف غيار السرعة بقوة إلى الوراء خارج الأجمة قبل ثوانٍ من سقوط القذائف الألمانية الكثيفة على الموقع والتي أدت إلى تدميره. هذه المرة كان كَلاشنِكوف بعيداً عن الرشاش.

"كان الألمان يقتربون من مواقعنا طيلة الوقت وكنت متأكداً من أنهم قد رأونا من بين الأشجار. عرفت أننا يجب أن نسيطر على أعصابنا لأنه لم يكن هناك في الحقيقة أي طريقة أخرى. إذا أردت تدمير دبابات البانزر، فعليك إذن أن تفاجئها بالكامل، وفي تلك اللحظة، وهم تحت تأثير الصدمة من وجودك هناك، يتوجب عليك أن تكون ألمعياً وأذكى من خصمك وتأتيه من الخلف. كل الدبابات، حتى الدبابات الأفضل في العالم، قابلة للعطب إذا ما هوجمت من الخلف لأن الدرع الأثقل يتموضع في الجهة الأمامية. لذلك عرفت ما يجب عمله، لكن بعض أفراد الطاقم لم يطيقوا تحمل التوتر الناجم عن ذلك، فأرادوا الهجوم. شاهدتُ رتلاً من دبابات البانزر يتقدم حتى وصل إلى مقربة من أعلى التلة وعند المواقع التي كان جنودنا يتحصنون بها أمام الأشجار. إذا وصلوا إلى نقطة أعلى من المشاة ستكون هناك مذبحة. فقد سائقي صبره وصرخ، "لماذا لا نتحرك أيها القائد؟ سيسحقون مشاتنا!".

"أخيراً جاءت إشارة بدء الهجوم. عندما خرجت دبابتنا من الغابة كان أول شيء رأيته هو الأرض التي أمامنا؛ لقد كانت محروثة بجنازير الكاتربلر،

لقد أغضبني هذا الأمر لأنها كانت الآثار التي تركناها عندما قمنا بالانسحاب قبل أسبوع. كان ذلك علامةً على الهزيمة والهلع. اندفعنا بعنف في إطلاق النار، وعندما تقدمنا بدأت الدبابات الألمانية تحترق. حاول المشاة الألمان الإحاطة بها لكننا أحبطنا المحاولة. لقد وقعوا في الفخ وقامت بنادقنا بإسقاطهم صرعى".

قذف الألمان بالمزيد من الدبابات إلى المعركة، في هجومهم على مؤخرة الجيش الروسي. لقد خسر الروس الفائدة من الموقف الأمثل وقد حاولت الدبابات الروسية أن تهرب من المذبحة وتبعتها دبابة كَلاشنِكوف. "بدأت قذائف العدو تتساقط من حولنا، لكننا استطعنا البقاء خلف دبابة القائد واختفينا في أخدود خلف التلة فقط. لم نبتعد عنهم بل اقتربنا من خاصرة العدو، لذلك ستُجبر الآن الدبابات الألمانية على ملاحقتنا. كان الأمر أشبه بدوامة! ودمّرنا الدبابات الألمانية الواحدة بعد الأخرى فكان نجاحاً نادراً. وعندما انتهى القتال برز على الأرض الثمن المدفوع من قبل المشاة الروس. عشرات القتلى والجرحى مبعثرين على الطريق".

مرّ أيلول ثقيلا وداماً على الألمان إلاّ أنّهم استطاعوا شيئاً فشيئاً السيطرة على المقاومة الروسية خارج براينسك. وأخيراً أُصيبت دبابة كَلاشنِكوف في هجوم معاكس آخر. "كنا نحاول أن نقترب من خاصرة العدو، لكن في هذه المرة كانوا مستعدين للمناورة، واندفعنا مباشرةً نحو مدى بطارية مدفعية معادية". انطلقت عاصفة مدوّية من قذائف المدفعية على الدبابات الروسية وقبل أن ينجح كَلاشنِكوف بتلقيم سلاحه ليحمل على العدو ويستهدفه، انفجرت قذيفة دبابة بانزر على جانب دبابته T-34. كان كَلاشنِكوف الذي يقف في برج الدبابة ويخرج رأسه من الفتحة العليا قد رأى دبابة القائد تغمرها ألسنة اللهب أمامه وبعدئذ هو نفسه ينغمر بضوء أبيض يعمي الأبصار وبضجيج لا يُحتمل.

بشيء يشبه المعجزة لم تتمكن القذيفة من اختراق الدرع المسلّح والوصول إلى الأجساد البشرية في داخل الدبابة، لكن الموقف انجلى لكَلاشنِكوف عندما نظر إلى الأسفل ولم يرَ سوى الدخان والدم، وخشي في الحال من حدوث الأسوء لطاقمه، فصرخ نحوهم من بين الدخان والضجيج، فرد عليه أفراد الطاقم واحداً تلو الآخر، "حاضر أيها الرقيب...أنا بخير". وهنا أدرك كَلاشنِكوف أن الدماء التي غطت ملابسه دماءه وأصيب بالاغماء. "كان الألم مبرحاً، قطعة من الدرع كانت قد تشظّت من الدبابة من أثر القذيفة التي تلقتها ودخلت إلى كتفي. لم أعرف كم من الوقت مرّ عليّ وأنا فاقد للوعي، لكن عندما أفقت كنا قد تحررنا من العدو. كان أحد ما ينزع عني ثيابي. لم أكن أشعر بكتفي ولا بذراعيَّ".

وُضع كَلاشنِكوف في سيارة إسعاف مع طبيب وممرضة وأحد عشر جريحاً آخر ونقلوا إلى مستشفىً ميداني. أصيب بالهلوسة، ولكن حتى في اللحظات التي كان فيها صافي الذهن وهو ينظر من خلال رفرفات الشادر الذي يغطي مؤخرة الناقلة بدا له أنّ جيشه قد اختفى. لم تكن تلك تهيّؤات كَلاشنِكوف: لقد استعاد وعيه التدريجي عبر الألم المتزايد كما أدرك بأن الروس قد تخلوا عن هذا القطاع. لكن هل تقدّم الألمان وحاصروا وحدتهم في الخطوط الأمامية؟

من بين الجرحى الاثني عشر كان كَلاشنِكوف وملازم أول بيدين محروقتين هما فقط من تمكن من المشي بدون مساعدة، وفي نهاية اليوم الأول انطلقوا مع السائق ليستطلعوا قرية على أمل أن يجدوا فيها ملجأً آمناً. لم يكن معهم من الأسلحة سوى بندقية موسين- تغانت بيد السائق ومسدس TT مع كَلاشنِكوف. لن يكون هذا كافياً للدخول في مواجهة قتالية مع ألمان يحملون أسلحة آلية، اقتربوا من الشارع الرئيسي بحذر شديد. فجأة دوّت طلقات رشاشة آلية على الشارع محطمة الصخور وناثرة التراب والغبار إلى الأعلى.

انسحب الرجال الثلاثة زاحفين نحو الغابة عند حافة القرية وهم يكافحون ليلتقطوا أنفاسهم. لقد سمعوا المزيد من إطلاق النار الآلي مباشرةً أمام ناقلتهم فركضوا بين الأشجار ووصلوا إلى المركبة في وقت كانت هناك دراجة نارية ألمانية تختفي في الزاوية ومحرك سيارة الإسعاف تشتعل فيه النيران والطبيب والممرضة ملقىً بهما على قارعة الطريق جثثاً هامدة. في داخل سيارة الإسعاف ثمة دماء بارتفاع عدة سنتمترات تحت أجساد الضحايا الذين مزقهم الرصاص. تقيّأ الملازم أول ثم تبعه كَلاشنِكوف على الطريق بينما أجهش السائق بالبكاء.

قال الملازم أول: "لو كان لدينا سلاحٌ آليٌّ، لكنا أوقفنا ذلك".

هز كَلاشنِكوف رأسه وأضاف "لكن ليس لدينا".

انتظر الرجال الثلاثة في الغابة حتى هبط الليل ثم تحركوا شرقاً للبحث عن الخطوط السوفييتية. لكن الجبهة كانت في وضع أسوأ مما كان في وسع الرجال أن يدركوه، وبعد التخبط في السير في الغابة التقوا فلاحاً مرتعباً أخبرهم بأنهم في عمق منطقة محتلَّة. لم يكن السائق طالب طب وكان كل من كَلاشنِكوف والملازم أول في حالةٍ سيئة وبحاجة إلى علاج، أخذهم الفلاح مباشرةً إلى بيت نيكولي إيفانوفج، وهو مشرف صحي. كان كَلاشنِكوف في حالة هذيان ويعاني من الجفاف ومن ألم لا يحتمل بسبب الجرح في كتفه، يترنح مع رفيقيه في حالة من عودة الوعي وفقدانه. تتراقص أمام عينيه عندما تفتحهما تلك الصورة عن المذبحة التي حصلت على جانب الطريق. كان يرى نفسه وكأنه يمشي في كابوس. لا يبعد البيت سوى ستة عشر كيلومتراً لكنه تطلب ليلتين للوصل إليه. كان الألمان قد هددوا المشرف الصحي بالشنق إذا وجدوهم عنده لكنه خبأهم في حظيرة الماشية الصغيرة وعالج جراحهم على قدر ما يستطيع وأطعمهم مما لديه من خبز وبطاطا وتفاح. الجرح الغائر وصدمة القذيفة التي تلقاها كَلاشنِكوف أغرقت روحه في حالة يتساءل فيها: "أتعجب كيف خرجنا

من هناك، هل نجوت فعلاً من مذبحة رهيبة وسأرى أهلي مرةً أخرى؟ كان ثمة ألم عظيم أكابده لم يكن يشبه ما حلمنا أن نلتقيه. لكن بعد ذلك وخلال الحرب كان لدينا جميعاً روحٌ مختلفة. لقد التحمنا مع بعضنا وكنا نستطيع أن نعمل أشياء لا تصدّق".

مع الغذاء الذي كان يجلبه لهم المشرف الصحي كانت تأتيهم آخر التقارير عن القتال. لم تكن أخباراً طيبة: كان الألمان يتقدمون على طول الجبهة. كان الرجال عازمون على العودة إلى أماكنهم السابقة، أينما تكون الآن. في الليلة الثالثة التي قضوها في الحظيرة استعاد كَلاشنِكوف ما يكفي من القوة للخروج ثانيةً؛ وبعد أن نظف إيفانوفج جروح الرجال للمرّة الأخيرة قادهم في العتمة من خلال حقول الخضروات إلى حدود القرية. كانوا لا يمتلكون سوى مسدس وبندقية كربينة، وأكملوا رحلتهم كما بدأت. يختبأون في النهار ويسيرون في الليل.

بعد ثلاثة أيام نفد زادهم من الطعام. ولحسن الحظ كان هناك بعض التوت على الأشجار من بقايا الخريف وبعض الفطر تحت الأشجار. لكن بعد خمسة أيام لم يجدوا شيئاً من الطعام فأجبروا على أكل العشب. لكن عندما أجبرتهم الرحلة الطويلة على الشرب من مياه المستنقعات تعرضوا إلى المعاناة من آلام فظيعة في المعدة وإلى القيء الشديد. كان كَلاشنِكوف في حالة الغيبوبة. بعد سبعة أيام من مغادرة الرجال لحظيرة إيفانوفج، وصلوا إلى المواقع الأمامية الروسية. عندما وُضع كَلاشنِكوف في سيارة إسعاف كان قد اتخذ قراره: "لم أستطع أن أبعد صوت الأسلحة الآلية الألمانية عن رأسي. ثم قررت بعدها أن أخترع سلاحاً. كان رفاقي يحتاجون إلى سلاح يسمح لهم بالقتال مجدداً".

طوال الشهرين التاليين له وهو ممدد في المستشفى البعيد في عمق الجبهة الشرقية، كان كَلاشنِكوف يقرأ عن الأمور الأساسية في الأسلحة الآلية، في

كتاب فيدروف المعنون (تطور الأسلحة الصغيرة)، قرأه حتى آخر كلمة، متأملاً متفكراً بالتشديد على ضرورة الذخيرة متوسّطة العيار. ذات مرة عندما استطاع التجول في أجنحة المستشفى فاقترب من أسرّة الجرحى وجالسهم وسألهم أن يصفوا له سلاح المشاة المثالي. كيف يمكن أن يكون؟ كيف يعمل؟ ما الذي يريدونه بالضبط من السلاح؟ هل القوة القاتلة؟ خفة الوزن؟ المتانة؟ سهولة الاستخدام؟

بينما كان كَلاشنِكوف يتقدم في عمله لتصنيع سلاح هجومي كان الجيش السوفييتي يتسلح بشكل متزايد بأسلحة آلية بسيطة وفعّالة. سمح ستالين في أواخر عام 1941، وقد أفزعته النجاحات الألمانية الشاملة، بالانطلاق بالإنتاج الشامل لبنادق جورجي شابغين PPSH41، وبحلول ربيع 1942 وصلت إلى الجنود الروس في الجبهة الأمامية مئات الآلاف من هذه الأسلحة الجديدة. لم تكن PPSH41 سلاحاً هجومياً، لكن مصممها ابتدع رشاشاً متوسطاً يستخدم خراطيش مسدس من عيار 7.62× 25 ملم ويطلق 900 طلقة في الدقيقة. كانت الأجزاء المعدنية للسلاح ملتحمة، لذلك لا يحتوي بدن البندقية على أي براغي أو مسامير مصوملة، وكانت المقابض مصنوعة بالكامل من الخشب الصلب. كان قوياً للغاية برغم ذلك كان لا يمتلك قوة الأسلحة الهجومية ولا مداها. لقد تم تصنيعه بأعداد كبيرة تمكّن المشاة السوفييت من مواجهة الكمية الهائلة من النيران التي تطلقها الأسلحة الآلية في القتال القريب. لقد تم إنتاج ما يفوق 6 مليون قطعة من PPSH41. كانت مؤشراً على الحجم فوق العادي والسريع للإنتاج الصناعي السوفييتي. بعد سنة من صدمة باربا روس التي قاربت حجم الكارثة تمكنت الصناعة السوفييتية للأسلحة التي تمّ نقلها إلى الشرق بعيداً عن غارات العدو، من إنتاج أسلحة وذخائر ومواد أكثر مما أنتجه الألمان.

في هذا الانتقال الكبير نحو الشرق كان ثمة أمر لم يحظ بالاهتمام. عندما

أُخرج كَلاشنِكوف من المستشفى كان لا يزال تحت تأثير الصدمة التي تلقاها من القذيفة لذلك مُنح فترة نقاهة لمدة ستة أشهر ليسترد عافيته. استقل القطار إلى كازخستان ورجع إلى ساحة معمل (المآتا للمهندسين) حيث كان يخدم كمتدرب. وبحكم إداركه أن الحاجة الماسة آنذاك هي للأسلحة الرشاشة، سأل مسؤوليه الكبار عن غرفة العمل وجلس إلى عامل مخضرم يدعى زهينيا كرافاتشنكوف وهو ميكانيكي ماهر ذو خبرة بالمعادن لكي يصنع سلاحاً يحلُّ مكان الرشاش PPSH41.

عمل كَلاشنِكوف طوال الشتاء بين عامي 1942 و1943 على النموذج وبعد ستة أشهر كان لديه السلاح الذي يتذكره الآن بالقول: "الرشاش الأسود الصقيل رقم واحد". إنّه لنصرٌ فعلاً أن يتم إنتاج سلاح آلي في ظروف كهذه، لكن الحركة التالية لكَلاشنِكوف أظهرت تقريباً مدى الطيش الذي أصابه بهذه الثقة الزائدة بالنفس. ذهب ومعه الرشاش إلى قيادة منطقة كازاخستان العسكرية في ألمآتا وطلب من حارس المدخل أن يخبر القائد بأن الرقيب كَلاشنِكوف قد وصل. وجد الحارس نفسه في مواجهة سلاح غير مرخص وطلب غريب من رقيب ليتكلم مع المفوض العسكري، توقع الضابط في الحال الأسوأ وألقى بكَلاشنِكوف في غرفة التوقيف. لم يكن أحد من المسؤولين يعرف من يكون، والطريقة التي قدم نفسه بها عند البوابة كان من السهل فهمها على أنها صادرة عن قاتل أو مُخرِّب. وبعد مرور ثلاثة أيام ومن دون أن يصدق أحد قصته، تزايد جداً احتمال إعدامه.

لكنّه لم يعد كَلاشنِكوف الهارب، بل كَلاشنِكوف عضو الحزب والرجل الذي أشاد به المارشال زوكوف شخصياً وهبَّ أصدقاؤه القدامى لنجدته. وثمة رفيق كان يعمل في فرع الحزب في ساحة محطة القطار أصبح يعمل الآن كمساعد للجنة المركزية في الحزب الشيوعي الكازخستاني، فقام كَلاشنِكوف بإقناع أحد السجناء الذين أطلق سراحهم بأن يحمل رسالة منه إلى هذا

الرفيق. وكانت النتيجة الأمر بإطلاق سراحه فوراً. "كنت محظوظاً لأن لدي أصدقاء" استدعي كَلاشنِكوف لاحقاً بشيء من التحفظ. "كان هناك جوٌّ من التكتّم، وعليك أن تدفع غالياً ثمن أخطائك". جلبت العلاقات نفسها لكَلاشنِكوف الإذن بالدخول على فاسيلي كايشيغلوف، سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الكازخستاني والمسؤول عن صناعة الدفاع الكازخية. كان كَلاشنِكوف متأثراً بما يكفي بـ"البندقية الرشاشة رقم واحد" لكي يجد له مكاناً في واحد من مراكز التطوير الرئيسية للأسلحة في الاتحاد السوفييتي، وهي معهد موسكو للملاحة، الذي انتقل إلى كازخستان بسبب استمرار الحرب.

أصبح الآن تقدم كَلاشنِكوف يجري بنحو أسرع. من معهد الملاحة أُرسل كَلاشنِكوف إلى أكاديمية دزرزنسكي للمدفعية، حيث كان أ.أ. بلاغونراف رئيس فرع تطوير الأسلحة. كان بلاغونراف هذا أشهر عالم أسلحة في الاتحاد السوفييتي والشخص صاحب النفوذ الهائل في صناعة الأسلحة السوفييتية، وهو من رفض رشاش كَلاشنِكوف رقم واحد باعتباره لم يقدم تطويرا حقيقياً على بندقية PPSH41 لكنه اعترف بأن الوافد الجديد حاد الإدراك في مقاربته للمشاكل التقنية المعقدة مما يضعه في مصاف المُصمِّمين الفعّالين الكبار. صادق بلاغونراف شخصياً على "القدرة الاستثنائية" لكَلاشنِكوف وقدّم توصية بإلحاقه بمجلس إدارة مدفعية الجيش الأحمر الرئيسية. وهذا ما وضع كَلاشنِكوف في قلب برنامج الأسلحة الروسية في العام 1943. في العام نفسه انتصر زوكوف في معركة كورسك، حيث تحطمت 2700 دبابة بانزر بوجه 3600 دبابة سوفياتية في أكبر صدام بين الدروع لم يشهد العالم له مثيلاً.

بعد معركة كورسك كان الروس يدفعون قوات المحور باستمرار نحو برلين، لكن هذا التقدُّم كان يتمُّ صدّه بانتظام على أيدي جنود العدو الذين يحملون سلاحاً جديداً. كانت بندقية MKb الألمانية من عيار 35 ملم تعاني مشاكل مماثلة ككل الأسلحة الهجومية السابقة: التلف من جرّاء الاستعمال

الذي تتعرض له الأجزاء الميكانيكية كان السبب في الإخفاق وعدم الإطلاق. استجاب المهندسون النازيون لرشاش كورتز 7.9 ملم المتوسط وطوروه ليصبح الموديل الجديد من الأسلحة وهو رشاش MP43. على أية حال كان هتلر أبطأ من ستالين في تقدير الفوائد العظيمة التي سيقدمها السلاح النصف الآلي لجنوده، فألغى المزيد من التطوير والإنتاج للأسلحة في مواجهة المشاكل اللوجستية والإمداد المتزايد للرايخ الذي أعقب الهزيمة في كورسك. لكن الجنرالات الألمان في الجبهة الشرقية ألحّوا في طلب المزيد من الإمدادات من الأسلحة التي يمكن لها أن توقف حشود المشاة الروس المسلحة ببنادق شابغين، وكما فعل ستالين قبله، غيّر هتلر رأيه. تمّ تطوير MP43 وأعيد تسميتها فأصبحت الرشاش StG44، أو ستورمغوبر 1944؛ وترجمتها العاصفة، أو السلاح الهجومي.

كان السلاح الألماني الجديد يحتوي على مخزن ذخيرة مائل، وبحجيرة غاز ويمتاز بسرعة نارية تصل إلى 500 طلقة في الدقيقة. ومثل سلاح فيدروف كانت بندقية StG44 الآلية قد جاءت متأخرة للغاية لكي تحمي النظام الذي ابتدعها، لكن النازيين بذلوا جهوداً حثيثة لإنتاج السلاح بأعداد ضخمة. قبيل نهاية الحرب كان هناك 425977 من بنادق MP43 ومشتقاتها تمّ صنعها، ووضع معظمها في الخدمة في الجبهة الشرقية. لكن كَلاشنِكوف لا زال يصرّ "لم أرَ أسلحة ألمانية تم الاستيلاء عليها. كانت في منتهى السرية. كنت مجرد رقيب. كيف لي أن أصل إليها؟". ربما لم ير كَلاشنِكوف بندقية MP43 برغم ذلك يبدو أنه من الاحتمالات البعيدة ألّا تجلب أكبر مراكز البحث والتطوير الروسية التي كان يعمل فيها، أسلحة ألمانية لمصممها التقنيين لكي يفحصوها. فالاستيلاء على StG44 أثبته اجتماع لجنة الجيش السوفييتي في العام 1943، وفي غضون ستة أشهر أنتج مهندسان هما نيكولاي إيلزاروف وبافل راينوف خرطوشة من عيار 7،62× 39 ملم. كانت الخرطوشة المتوسطة

هذه هي من جعل أحلام فيدروف بصنع سلاح روسي هجومي حقيقة ملموسة؛ كانت تتطلب أحداً ما يصّمم هذا الحلم. في خريف عام 1943 أعلنت مفوضية الشعب في القوات المسلحة عن المسابقة من أجل العثور على هذا الشخص.

لم يكن كَلاشنِكوف ضمن هؤلاء المرشحين للفوز. فقد سبق أن تم رفض رشاشه "رقم واحد" وكانت هناك أسماء أخرى أكبر هي من كان يتعقّب الجائزة. لكن عمله مكّنه من أن يكون بارعاً في ميكانزم إطلاق النار الآلي، وقد وفّر له تراكم خبرته والساعات الطويلة التي قضاها في الحديث متنقلاً بين أسرّة الجرحى من الرجال في المستشفى، المعرفة العميقة بكل ما يريده الجنود السوفييت من سلاحهم. فكان الشروع بالعمل الهادئ مع المهندسين زاتيسف وفلاديمير ديكين من أجل اتمام المهمة.

كان التقني المسؤول في كوسروف هو فاسيلي ليوتي، وهو أحد الرجال الذين رفضوا رشاش كَلاشنِكوف؛ لكنه أولى المصمم الشاب العناية والرعاية الكافية لكي يواصل تقدمه، مقدماً اقتراحاته عن كل مرحلة من مراحل تطور السلاح. لم يكن كَلاشنِكوف في الأصل أفضل مصمم من بين الرجال الآخرين الذين سبقوه في العمل على المشروع، لكنه امتلك مقوّمات شخصية كانت تجعله يبزّ أقرانه كما أن لديه مَلَكة لا تخطئ لرؤية الحل البسيط للمشاكل المعقدة. كانت ورشة كَلاشنِكوف مُضاءة ليلاً والعمل مستمر فيها لفترة طويلة بعد أن تغلق ورش كوفوروف أبوابها، وفي الصباح التالي عندما تعود الورش لفتح أبوابها لم يكن هناك من العاملين من يسبق كَلاشنِكوف في الحضور: لسنتين كاملتين كان كَلاشنِكوف يعاقب نفسه بشدة لا تلين.

يبدو التشابه واضحاً إلى حدٍ كبير بين السلاح الهجومي الألماني وبندقية الـ AK47، ورغم هذا فإنّ الأجزاء الداخلية مختلفة للغاية. ربما لو عدنا بالذاكرة إلى الوراء إلى الزمن الذي كان فيه كَلاشنِكوف في الغابة مع مسدس برونينغ

الذي كاد أن يودي بحياته، نجد أنه مدين للتقنية الأميركية في تصميم جاهزية الإطلاق أكثر منه للتقنية الألمانية؛ كان الشبه أقرب للسلاح الأميركي M1 منه إلى بندقية StG44. كانت البساطة والثبات هما ما يستند اليهما كَلاشنِكوف، ولم تكن أي من القطع قد صُمّمت هندسياً بدرجة نهائية؛ بدلاً عن ذلك كانت تمتلك ميزةً بنيوية في سعة الاستخدام سمح للسلاح بأن يكون صامداً صلباً في أحلك الظروف، وقادراً على إطلاق النار، ودقيقاً في الإصابة. وكما كان إصلاح المكائن في مزرعة العائلة لدوافع اقتصادية من أجل الاستخدام وتقليص النفقات، كذلك فإن السلاح لا بد له من أن يدوم أطول فترة ممكنة، إلا أنه يحتاج إلى تنظيف أقل. كان مكبس الغاز أكبر من المعتاد، والجزء الداخلي لسبطانة البندقية وحجيرة النار ومكبس الغاز وأسطوانته مطلية بالكروم. وهذا ما جعل عمره يمتد لسنوات وهو الذي أسس للبنية التي ستتبعُه فيها معظم الأسلحة في المستقبل.

بالصبر والعمل الدؤوب بدأ كَلاشنِكوف بإحراز نتائج واعدة للغاية. وبعمله هذا بدأ المنافسون له يتساقطون من حوله. في شهر آب من العام 1946 توفي سودايف فجأة بعمر الثالثة والثلاثين. أعقب ذلك اعتراف شابغين بفشله بتحقيق قفزة في مجال صنع خرطوشة جديدة وتنحّى جانباً. من بعد ذلك وفي السنة نفسها، أبلغ ديغتايرف الكئيب المهزوم مفوضية الشعب بأنه اكتشف بعد الفحص المكثّف بأن سلاحه يعاني "الكثير من التوقّفات". كان في كلماته المتشائمة محقّاً، فقد أخذ النموذج الذي صنّعه طريقه إلى المتحف الحربي. وبحلول شهر كانون الثاني 1947 لم يبقَ في المسابقة سوى بولكين، وديمنتايف، وكَلاشنِكوف. كان بولكين المشهور عنه بأنه صاحب مزاج حاد يعامل الموظفين بازدراء، لذلك لم يستطع أبداً أن يساعد نفسه فتنحّى هو الآخر. أصبحت المباراة نداً لند، بين كَلاشنِكوف وديمنتايف، وكان الأسبوع الأخير في المسابقة هو الأكثر تطرّفاً. أُسقط سلاح كل من كَلاشنِكوف وديمنتايف من

مكان مرتفع، وأُلقيا في خزان مياه، ثم تمت تغطيتهما بالطين لكن كلا السلاحين بقيا يعملان. في اليوم الأخير وضعا في مغطس من الرمال. تمَّ رمس كليهما في الماء ثم دسّا في الرمل لكي يملأ جريش الرمل كل الفتحات والشقوق. بعد ذلك أُخذ السلاحان إلى حقل الرماية للمرة الأخيرة. تمّ فُحص سلاح ديمنتايف أولاً بإطلاق النار المنفرد. بعد ثلاثة طلقات أخطأ الهدف وتوقف الإطلاق في المرة الرابعة. ثم جاء دور سلاح KBP-580. حبس كَلاشنِكوف أنفاسه عندما حرك المشرف على الاختبار عتلة الاختيار بين الإطلاق رشاً وبالمنفرد نحو الأخير وأطلق النار. تساقطت الرمال من سبطانة البندقية وانطلقت الرصاصة لتصيب الهدف. أطلق المشرف النار ثلاث مرات أخرى وكان النجاح حليفها جميعاً، عندها حوّل العتلة نحو الإطلاق الآلي وأفرغ مخزن الذخيرة دون أي إخفاق في الإطلاق. بعد مرور أسبوع كانت كلمات مفوضية الشعب في القوات المسلحة نثرية ومبتذلة ولكن مضمونها كان هائلاً. "إن سلاح 7.62 المُصَمّم من قبل الرقيب المتخرج ميخائيل كَلاشنِكوف يستحق التزكية ليكون في مسرح القتال".

سيكون اختراع كَلاشنِكوف بصلابته الخارقة، وبساطته البارعة، وتدميره الفعال هو من سيُحدث التغيير الكامل في الطريقة التي تستخدم فيها الأسلحة في ساحات القتال، وسيغيّر خلال خمسين سنة العالم بأسره. سيُدافع عن سلطة روسيا الشيوعية، ويهزم أمريكا الرأسمالية. سيصبح شرارة الثورة العالمية، وذات يوم سيكون أول عمل عالمي يقوم به، هو إشعال ثورة الشعب في هنغاريا في العام 1956. وفي الحال أسس السوفييت أسطورة مبتكرة عن بندقية الـ AK47 بوصفها السلاح الذي صمّمه قائد دبابة بطل لكنه عملي وهو الذي سيُعتمد عليه في ابتكار سلاح شيوعي يقهر به وحشية الفاشية بعدئذ يحل مشكلة السلاح الهجومي. لم يأخذ السوفييت سلاحهم من النازيين، بل ما أخذوه فعلاً كان الذخيرة. لكن سواء

كان الأصل الحقيقي لبندقية الـ AK47 يُنسب أساساً إلى فلاح عبقري، أو كان صناعة شيوعية، أو ابتكاراً نازياً، فإنّ هذه البندقية تسبح خارج مدار أسطورة تصميمها.

٣ - فيتنام

بعد الحرب العالمية الثانية توقّع كل من اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية والولايات المتحدة الأميركية بأن صراعهما المقبل سيكون مع بعضهما البعض، فقامتا بتصميم أسلحتهما وفقاً لذلك. مع أن تقنياتهما العسكرية سبق أن تصادمت إبان الحرب الكورية 1950-1953، غير أن بنادقهما الهجومية لم تدخل في مواجهة على نطاق واسع إلاّ في حرب فيتنام ما أدّى إلى إطالة أمد الحرب. تبنّى العسكريّون الأميركيّون بندقية أوجين ستونر الهجومية المعروفة بـ M16 لمواجهة بندقية الـ AK47 عبر السهول الألمانية الوسطى. بعد ذلك قرّر الرئيس جون كندي إشراك الجيش الأميركي بالكامل في فيتنام، حيث كانت حرب العصابات بين الشمال الشيوعي والجنوب الموالي للغرب يستعر أوارها منذ أن قسّم الاستعمار السابق البلاد في عام 1954، وساد الخوف من تقويض الاستقرار في المنطقة. في هذا الموقع تبيّن للجيش الأميركي بأن بندقية M16 لم تكن في مكانها المناسب حيث الغابات المطرية لجنوب شرق آسيا. اختبرت إدارة الدفاع السلاح في الأدغال، ووجدت مشاكل في الصلابة ودقة التصويب لكن كان الآوان قد فات وقوات GI الأميركية قد أرهقت ببندقية تخفق إمّا بإصابة الهدف أو بالإطلاق.

في البداية زوّدت الصين الشيوعية فيتنام الشمالية ببنادق كَلاشنِكوف في العام 1963، وبعد مرور عام توطّد حضور الجيش الأميركي في فيتنام الجنوبية. خلال سنتين بدأ جنود الجيش الأميركي يتحدّثون عن نجاح السلاح الذي يستخدمه عدوهم وعن فشل السلاح الذي بحوزتهم، مفترضين أنه مُتقدّم

على سلاح M16. بحلول 1965 كان الضباط الأميركيون يشتكون من خسارة الرجال بسبب القصور في أداء السلاح، وفي 1967 نشرت الواشنطن بوست رسائل عن عمل بندقية M16، لفتت الأنظار إلى نمو الحركة المناهضة للحرب في الولايات المتحدة. وبينما انحطّت سمعة الـ M16 كانت خصمها بندقية الـ MK47 تزداد ألقاً؛ حتى أن قوات GI الأميركية كانت تتخلّى عن الـ M16 وتنتزع الكَلاشنِكوف من جنود الفيت كونغ القتلى. وفي عدة مناسبات قُتل بعض الأميركيين بنيرانٍ صديقة عندما كانت تُفتح النيران على مواقع كان يظن بأنها معادية بسبب صوت بنادق الكَلاشنِكوف القادم من بين أوراق الأشجار. خلال الستينيات زوّدت الصين الشيوعية الفييتناميين الشماليين بمئات الآلاف من بنادق كَلاشنِكوف نورينكو موديل 56. كانت الأسلحة تُورَّد من الشمال على ظهور الحمّالين أو على الدرجات الهوائية وتُرسل عبر طريق (هو شي منه Ho Chi Minh) لدعم المتمردين في الجنوب الذي يُسيطر عليه الأميركيون.

كانت القوّة الأعظم للفييت كونغ الفيتنامية تكمن في السرعة والتمويه في حرب الأدغال. كذلك باستخدامها للحد الأدنى من التجهيزات. فبينما كانت قوات GI تطلق النار من بنادق M16 الآلية على المواقع المشتبه بتواجد العدو فيها، كانت قوات الفيت كونغ تطلق النار من بنادق كَلاشنِكوف بشكل نصف آلي طلقة طلقة. ومن المعروف أن كل رجل يشارك في حرب العصابات يحمل فقط مئتي رصاصة ولا يفتح النار إلا إذا شاهد جندياً أميركياً في مرماه. كانت النتائج مدمرة: كان تساقط رصاص بنادق الـ AK بكثافة يسبب أذى هائلاً، وفي وحل الغابات المطرية الفيتنامية والحرارة العالية تتعرض الجروح للتلوّث بسرعة كبيرة. لقد تدنّت معنويّات الجنود الأميركيين في الخطوط الأمامية إلى حدٍّ مقلق. شُكِّلت في العام 1967 لجنة في مجلس الشيوخ من أجل إعداد تقرير عن أداء بندقية M16 في فيتنام. وجد المحققون

أن الجنود الأميركين الذين قالوا إنهم "كرهوا الـ M16" كانوا ينتزعون بنادق الكَلاشنِكوف من العدو في أي فرصة تتاح لهم، (لذلك فالكثير من أفراد القوات الأميركية كانوا يلقون بسلاحهم في تلك الفترة، وهذا ماكشفته جلسة استماع نيابية في 1971 حول محاولة الجيش الأميركي لإيقاف نشر تقارير وسائل الإعلام التي تحدثت عن هذه العادة). بحلول 1967 كانت القوات الأميركية محاصرة ببنادق الكَلاشنِكوف، فكان الردّ الاميركي على هذا التهديد هو مهاجمة الإمدادات: من العام 1967 بدأت القوّات الأميركية بقصف طريق (هوشي منه Ho Chi Minh) قصفاً مكثّفاً ومتواصلاً، كما قامت بتعرية الغابات المحيطة من الأوراق وذلك برشها من الجو بالمبيد النباتي المعروف بإيجنت أورنج. فقد قُتل الآلاف من الرجال والنساء الفيتناميين في محاولاتهم الإبقاء على شريان الحياة للجنوب، أما وأولئك الذين نجوا فقد حملوا معهم ذكريات فظيعة عن الحرب الشاملة التي شُنّت من السماء على شباب يافعين ينتعلون الصندل ويحملون بنادق الـ AK.

بقيت أمريكا في فيتنام حتى 1973، واستمرت الصين بتزويد الفيتناميين الشماليين ومقاتلي الفيت كونغ في الجنوب ببنادق الـ AK حتى 1975، لكن لحظة انتصار بنادق الكَلاشنِكوف في الصراع جاءت مبكّرة نسبياً. في العام 1968 أطلقت فيتنام الشمالية هجوم تَت (Tet) الانتحاري ضد القوات الأميركية في كل مكان من فيتنام الجنوبية، كما أطلقت موجات من الجنود المسلحين ببنادق الكَلاشنِكوف لمهاجمة مواقع الجيش الأميركي. كانت نتيجة نشر صور الأشلاء والبؤس الذي يحيط بها كافية لتنمية المشاعر المضادة للحرب خارج حرم الجامعات وفي داخل البيوت في وسط أمريكا. لكن كان هناك منتصر آخر أيضاً. فعندما عرضت نشرات الأخبار أعضاء في الفيت كونغ في شوارع سايغون، وهم يحاولون القيام بهجمات انتحارية على مراكز

القيادات الأميركية في المدينة، كانت بنادق الـ AK قد حظيت بنقاش جماهيري غير مسبوق في التلفزيون الأميركي. بعد هجوم تَت، أصبح الطلاّب الرادكاليون والمفكّرون الغربيون ينظرون إلى بندقية الـ AK على أنها "السلاح المضاد للإمبريالية"، أصبحت رمزاً ثوريّاً أكثر قوة حتى من شعار المطرقة والمنجل في أواخر الستينيات، قبل أن تتشوّه صورتها.

بعد أربعة عقود من قصف طريق هو شي منه عندما التقيت بالسيد فيونغ الموظف في إحدى السفارات الفيتنامية في أوربا الغربية، حيث كان في متوسط العمر ببطن مستديرة والشيب يغزو مفرقيه، وكان ذات يوم مراهقاً وطنياً يحمل الكَلاشنِكوف، جلسنا لتناول الشاي في مكتبه، وأرجعني بالحديث إلى الزمن الذي صَمّمَت به أقوى أمة في العالم على سحق دولته الصغيرة. قصته عن فيتنام كانت هي نقطة التحول الرئيسية في تاريخ بندقية الكَلاشنِكوف، واللحظة التي أصبح فيها هذا السلاح أسطورة.

كان فيونغ في السابعة عشرة من عمره عندما حمل بندقية كَلاشنِكوف صينية موديل 56 وانخرط في الثكنات الثورية في هانوي في 3 من أيلول، العام 1972. كان هناك المئات من المجندين الآخرين يتدربون في المعسكر. البعض منهم، من أمثال فيونغ، كانوا مجندين لصالح فوج النقل العسكري، لكن الغالبية ربما تلتحق بوحدات الخط الأمامي وتتجه جنوباً للقتال. كان هناك مجندون من كل مكان من الشمال، من كوانغ نونه، و"هاه تنه" و"سون لا" . وكان من الطبيعي أن يفضِّل الناس القادمون من القرى والبلدات نفسها أن يبقوا معاً. كان هناك مجموعة من الفتيات من مقاطعة كوانغ نونه كنّ قد قطعن المسافة إلى هانوي مشياً على الأقدام لكي يحصلنَ على الموافقة على بقائهن معاً، وحصلن في الحال على لقب أفضل لجنة للطلاب الجدد في المعسكر. لكن لم يكن يُسمح للأصدقاء، عموماً، بالبقاء معاً. كان فيونغ من مقاطعة كاو بانغ على الحدود مع الصين وقد وُضِع ضمن فصيل مع صبي

يدعى نغوين من هانوي. كانا يتدرّبان على قيادة الناقلات. لم يسبق لفيونغ أن قاد مركبة، لكن نغوين كان يجيد القيادة فساعد فيونغ بذلك -وهكذا وبسرعة أصبح ابن الريف وابن المدينة أصدقاء. عندما كان الرفيق "فو" وهو المُشرف على التدريب يغضب من فيونغ، بسبب طريقته في التعامل مع مُبدّل السرعة التي أدّت إلى عَطَلات في علبة السرعة والمحرِّك، كان نغوين يُريه كيف يَتعامل مع ناقل الحركة ويُجوّله بكل نعومة ويركّب الدوبرياج الكبير الذي وضعه الصينيون في ناقلاتهم.

بالإضافة إلى دروس تعليم قيادة المركبات، كان المجندون يخضعون لدورة أساسية في الرماية. وعندما جاء دور نغوين فشل في إصابة الأهداف -إذ لم تكن البنادق الصينية دقيقة تماماً. أما فيونغ، الذي سَبق له أن تعلَّم الرماية عندما كان عضواً في مركز شباب الحزب الشيوعي، فقد فهِم كيف كانت تعمل. كانت تلك البنادق ثقيلة، وأعقابها من الخشب، والحربة المركّبة عليها متاطبقة مع ماسورتها، ويمكن خلعها أو طيّها. كانت الحربة ثلاثية الجوانب؛ أي مثلث طويل من الفولاذ، لكي تسبب جرحاً لا يشفى، طبقاً لما يقوله المدرَّب الرفيق "وَه". كان المدرَّب يريهم كيف يستعمل الحربة في طعن جندي من الأعداء، وكيف يسحبها مرة أخرى مُحدِثاً صوت امتصاص مقلَّداً الصوت الذي تُحدِثه. تأوّهت بعض الفتيات بشدة عند سماعهن ذلك، لكن المدرِّب قال إنهن سيصبحن من ضمن الجنود المميّزين الذين سيستمتعون قريباً بفرصة لقتل الأعداء. وكان طول البندقية بعد تركيب الحربة أطول من بعض المجندين.

كانت الطلقات الخمس الأولى التي استعملها المجندون في حقل الرماية برصاص وهمي. كان المجندون يتدربون على التصويب والضغط على الزناد فقط، ومن أجل الحفاظ على الذخيرة، كانوا يتدربون على بنادق بلا مخازن. أخبرهم الرفيق المدرب "وَه" بأن الرصاصات التي أخطأت الهدف في مضمار

التدريب، قد تمكّننا من التغلُّب على الجيش الأميركي. لذلك كان المجندون ينبطحون على مسافة 150 متراً من الهدف ويطلقون عليه كما لو أنهم يستعملون الذخيرة الحيّة فعلاً. وبعد سماعهم الأمر: اضرب، يضغطون على الزناد ويصيحون "بنغ -بنغ -بنغ".

قال الرفيق "وَه": "أي مسافة أبعد تستخدم سلاحك فيها، ستكون قد ضيّعت عليك الرصاص مرةً أخرى. يمكن أن تصيب العدو ويمكن ألا تصيبه، وكل رصاصة لا تضرب العدو فهي جرح في خاصرة جيش الشعب وحرب التحرير من الإمبريالية".

كان نغوين لا يحب التظاهر بإطلاق الرصاص وافتعال صوت الإطلاق، وقد تذمّر إلى فيونغ قائلاً: "أشعر بأني غبي، هل من المجدي في الحرب ضد الإمبريالية؟ أن تصرخ "بنغ، بنغ، بنغ"، هل بهذه الطريقة يقاتل الشيوعيون؟ أين كرامتنا؟".

صرخ الرفيق المدرب "وَه"، "كرامة" الذي كان يسترق السمع لهذه الملاحظات. "أيها المجنّد نغوين، لم يسمح لك بأي كرامة حتى الآن. حتى أنه لا يمكنك أن تطلق النار من بندقيتك. انتبه، كل الفتيات من مقاطعة كوانغ نونه استطعن التصويب أفضل منك!"

كنَّ فعلاً جيدات في التصويب، وعندما أشار إليهن "وَه" بيده دلالةً على استحسانه أجبنه بوقت واحد، "نعم أيها الرفيق الموجّه وَه!".

"لكنك لا تستطيع التصويب المباشر أيها المجند نغوين. لو كانت "البنغ -بنغ" التي أهدرتها رصاصاً حقيقياً، لكنّا كدّسناه ولأصبح بهذا الارتفاع". وضع الموجّه يده على قمة رأس نغوين، "وهو ما يكفي لغزو الولايات المتحدة الأميركية!"، فضحك بقية المجندين المنبطحين على الأرض مع بنادق الكَلاشنِكوف.

كانت الفتيات من كوانغ نونه، مثل فيونغ ونغوين، قد جئن إلى الفرقة المتنقلة ليصبحن قائدات مركبات ما أن ينهين تدريبهن. لكن الرفيق الموجّه "وَه" كان يُعلّم جميع من يقصد مدرسته بالطريقة ذاتها ولم يكن يسمح بأي مهمات مختلفة بصرف النظر عمّا جنِّد من أجله الطالب.

"أدرّبكم لكي تطلقوا النار على الإمبرياليين"، تذكّر فيونغ ما قاله "وَه"، "لو أُتيح لي أن أعلّم الجميع في البلاد كيف يطلقون النار على الإمبرياليين لفعلت. أطلق النار جيداً، أطلق بطريقة صحيحة! أنت تتحدث عن الكرامة، رفيق نغوين؟ تعلّم كيف تطلق النار إطلاقاً صائباً، ومن بعدها ستكون لديك أعظم كرامة؛ فرصة الموت من أجل شعبك. حتى ذلك الوقت، عليك أن تصرخ: بنغ -بنغ -بنغ".

ضحكت الفتيات القادمات من كوانغ نونه، لكن وجه نغوين اكتسى بحمرة الخجل وأطرق برأس محني إلى الأسفل. لمس فيونغ ظهر نغوين قائلاً: "إنه الشيء نفسه بالنسبة لنا جميعاً، يجب علينا أن نتعلّم أن نكون جيدين في كل شيء".

بقي نغوين هادئاً مدّة يومين بعد شعوره بالارتباك بسبب تقريع المدرب "وِه" له أمام المجندين وركّز كل اهتمامه على الاعتناء ببندقيته. صحيح أنه لم يكن الأفضل في التصويب في المدرسة، لكنه يمتلك أنظف سلاح. كان نغوين ينظفه، ويلمّعه، ويمسح كل قطعة منه بالزيت ثلاثة مرات في اليوم. حتى أنه يزيّت المقبض الخشبي، الذي من النادر جداً أن يتعرض للجفاف والتشقق والصدع، لكن إن أصابه أيُّ تشوُّه قد يسبب التواء الحديد المثبّت بالمقبض، ويجعل من الصعب على السلاح أن يصيب الهدف.

راقبه فيونغ، لكنه لم يقل شيئاً حتى صباح الأحد التالي."تعال. لقد طلبت الإذن من المشرف "وَه" من أجل القيام بتمرين إضافي على إطلاق النار. تعال معي. سأعطيك درساً".

كان نغوين لا يزال ملتصقاً بكآبته، يهزّ رأسه قائلاً: "كلا. سيكون لدي بندقية نظيفة وناقلة جيدة، لكن لا يمكن أبداً أن أكون رامياً جيداً".

"هل تعتقد أن الفتيات القادمات من مقاطعة كوانغ نونه يسرن على طول الطريق مع رجل لا يستطيع التصويب؟".

اختفت الكآبة عن وجه نغوين قليلاً. "الفتيات القادمات من مقاطعة كوانغ نونه لا يهتممن بالسير على طول الطريق مع الشباب. أنهن مهتمّات فقط بهزيمة الإمبريالية".

"ربما" لكن عندما نطرد الإمبرياليين خارج فيتنام سيكون علينا أن نملأ الفراغ الذي تركوه وراءهم بمزيد من الشعب الفيتنامي، أليس كذلك؟ وعليه فإن مطاردة فتيات قادمات من مقاطعة كوانغ نونه هو عمل ثوري يشبه تماماً مقاتلة الإمبرياليين وأذنابهم من العملاء".

ابتسم نغوين مقدراً هذه الملاحظة الديالكتيكية. "حسناً، لكنه درس واحد فقط، وإذا لم تستطع أن تعلمني الرماية الدقيقة اليوم فالأمر سينتهي".

"وماذا يحدث لو جاء الأمريكان ولم تستطع أن تطلق النار؟"

"سأطاردهم بشاحنتي!".

في حقل الرماية تحوّل صوت فيونغ من الصوت الوديع لابن الريف إلى صوت الآمر المتطلّب. "حسناً، دعنا نبدأ من البداية، أيها الرفيق المجنّد نغوين".

قال نغوين "هوّن عليك، أنت لستَ الرفيق وَه."

"عليّ أن أكون جديّا مثله تماماً إذا كنت سأمضي في تعليمك على كيفية إطلاق النار. لنكن جدّيين الآن".

وقف كلا الشابين بحالة الاستعداد ومدّا يديهما اليمنى على الكيس القطني

ذي اللون البنيّ الذي يأخذ شكل الموزة المعلّق على صدريهما حيث تُحمل مخازن الذخيرة.

قال نغوين" أنت تعرف التدريب العسكري، أخرج المخزن وركّبه". ولكي يتأكدا بأن الطلقات أخذت مكانها الصحيح على النابض وأنها جاهزة للتلقيم في حجيرة النار في البندقية، نقرا مخزنيهما على كتل الكونكريت الموضوعة على الأرضية الترابية لحقل الرماية، التي تستعمل علامات لمواقع إطلاق النار. بعد ذلك ركّبا المخزنين في سلاحيهما، وسحبا ممسك التلقيم الذي أطلق صريراً معدنياً وقد سحب الرصاصة الأولى من المخزن ودفعها نحو حجيرة النار. كانت كلتا بندقيتي الـ AK ملقمتين.

قال فيونغ "العدو يتقدم، في الغابة التي أمامنا!، انخفِض". اتبع نغوين الأوامر. ساد الصمت الرجلين كليهما وركع كل واحد منهما على ركبته اليمنى، طاوياً قدمه اليمين بحذائها الطري المصنوع من القماش الخفيف تحته، ومستنداً عليها ومقدماً رجله اليسرى إلى الأمام مباشرة بمواجهة العدو. كان كلّ واحد منهما قطعة من سلاحه.

همس فيونغ لصاحبه: "اجعلها في وضعية الإطلاق نصف الآلي". مدّ كل من الرجلين يديه، وأنزل عتلة الأمان نحو الأسفل، ووضع البندقية بالوضعية المطلوبة. وجّه فيونغ الأمر قائلاً: "حدِّد هدفك". كان أمامهم مباشرة وعلى بعد مئة وخمسين متراً إفريزاً تمّ بناؤه من ظروف القنابل الفارغة ووُضِع عليه عددٌ من الرسومات الورقية التي تمثّل الجنود الإمبرياليين. كانت الرسومات كبيرةً، أكبر من الفيتناميين، ومستندةً إلى بنادق M16.

عندما حدّقا بالهدف همس فيونغ مرة أخرى. "بندقية الـ AK تنحرف قليلاً إلى يسار الهدف. فإذا عوّضت ذلك بالتصويب قليلاً نحو يمين الهدف تكون قد نجحت في إصابته وبذلك ستحقق ما يكفي من النجاح لتجتاز الدورة".

ضغط فيونغ البندقية على خده ووجهها نحو الهدف المقترح مستهدفاً حنجرة الإمبريالي الورقي. كانت هذه النقطة هي المُفضَّلة، فهي فوق سترة الجندي وتحت خوذته. وفعل نغوين الأمر ذاته. كان الرجلان هادئين وركّزا على ما كانا يفعلانه، تعرّقا قليلاً في شمس ذلك الصباح.

"الآن اضغط. لكن بلطف، وسيرجع الزناد إلى الوراء أكثر مما تتوقّع قبل أن تطلق البندقية النار". ضغط كل واحد منهما، واندفعت الطلقات ملعلعةً في مضمار الرمي، ومزقةً حنجرة الجندي المرسوم على الورقة التي استهدفها نغوين.

بعد ثلاثين سنةً جلس الدبلوماسي وهو في متوسط العمر في مكتبه يسترجع ذكرياته ضاحكاً. "لم يكن يجيد التصويب على الإطلاق! لكن كان علينا جميعاً واجب هو أن نتعلم كيف نقتل الغزاة".

منذ زمن بعيد، وفي اللحظة التي تحقق فيها النجاح في حقل الرماية، صاح فيونغ: "لقد نجحت، فيلماذا يا نغوين لا تستطيع ذلك أمام وَه؟".

قال نغوين "لا أعرف"، وكان لا يزال يحدّق بتعجّب برسم الإمبريالي المُدَمّر. "لقد فعلتها!"

"نعم، لكن في الحياة الحقيقية لن تجد الإمبرياليين يقفون أمامنا لكي نستهدفهم، لذلك علينا القيام بالمزيد من المحاولات".

اجتاز نغوين دورة الرمي.

كان المدرّب المشرف على قيادة الناقلات هو الرفيق "فو"، وكان على المجندين أن يتدربوا على القيادة في الصباح، ثم يتوقفون لتناول الأرز، تأتي بعدها ساعة من التمارين البدنية، ويليها بعد الظهر تجمّع يجلس المجندون فيه على الأرض من أجل الاستماع إلى محاضرة يلقيها الرفيق "فو". "حربنا ضد أمريكا وصنيعتها من الدمى في الجنوب يمكن أن تستمر فقط عندما نستطيع

أن نزوّد الجنود بالإمدادات". تناول الرفيق "فو" عَصاً ورسم على الرمل خارطة فيتنام التي تشبه حرف S. "هنا في جهة الغرب، حيث الحدود مع (لاوس)، هناك جبال وغابات، وبين هذه الجبال والغابات هناك طريق".

كان جلُّ ما يعرفه المجنّدون المتمرِّنون عن ممر "هو شي منه" هو أنّه طريقٌ أُطلق عليه اسم قائد بلادهم خارج ما كان يسمى بالهند الصينية في أوائل الخمسينيات. كان طريق الإمداد يتجنب الأراضي المنخفضة التي يتمكّن الغربيون فيها من القتال، ويمّر بين الغابات الكثيفة في منحدرات الجبال.

استمر الرفيق "فو" بالحديث قائلاً: "أحياناً كانت تحدث انهيارات للصخور في المنحدرات تجعلنا نخسر الطريق. وأحياناً يختفي الطريق في الأدغال. لم يكن هناك طريق واحد فقط، بل هناك العديد من الطرق، مثلما يتكون النهر من مجموعة من الجداول المختلفة. لن يكون الطريق الذي ستسلكونه مثل الطريق الذي نقود عليه المركبات هنا في هانوي. أحياناً لن تجدوه هناك وأحياناً ستعثرون عليه، لكنكم سوف لا ترونه في البداية. لكن دائماً سيكون ثمّة طريق، لأن الطريق هو من يحافظ على كفاحنا حيّاً متّقداً. إذا لم تتمكنوا من إيجاد الطريق، اصنعوا واحداً جديداً! ولهذا السبب وجدت المجرفة والمعوّل في ناقلاتكم. لماذا يقصف الأميركيون الجبال؟ لأن الطريق هو كل شيء. إذا كانوا يستطيعون تدمير الطريق عندئذ سيستطيعون تدمير جيشنا في الجنوب بقطع الغذاء والذخيرة عنه. لذلك ستتعرضون للقصف. لكنّني تعرضتُ للقصف ومازلت هنا. الشعب الفيتنامي يستطيع أن يهزم أي هجوم يشنّه الإمبرياليون".

سألَت إحدى فتيات مقاطعة كوانغ نونه الرفيق "فو": "بماذا تُشبّه القصف الأميركي؟".

أجاب الرفيق "فو": "إنه كالرياح، الرياح القادمة من الجحيم، أو مثل

الشمس، إذا هبطت الشمس على الأرض، يكون أمراً مرعباً، لكنه سيمرّ". ثم أكمل الرفيق "فو" قائلاً: "إننا نقاتل ضد بلد يعتقد أنه أقوى بلد في تاريخ العالم، لكنهم في الحقيقة ضعفاء. طريقنا أقوى من قنابلهم. عنما تخافون على حياتكم أو تقلقون بشأنها قولوا لأنفسكم أنكم لستم مُهمِّين. في هذه الناقلة من البطانيات ما يكفي لمئتي رجل، ومن الأسلحة ما يكفي لخمسمئة رجل، ومن الغذاء ما يكفي لألف رجل. لا تبالوا بحياتكم، أيها الرفاق؟ ناقلاتكم هي كل شيء. ناقلاتكم هي الحياة للقضية، والحياة للكفاح. إذا واجهتم القصف، فابتعدوا قليلاً عن الطريق، ولكن إياكم أن تبتعدوا كثيراً . فالناقلة الضالّة تشبه تماماً ناقلة مدمَّرة. أبعِد ناقلتك عن الطريق، واخرج، واختبئ. لكن قبل أن تغطّي نفسك تأكد من أن ناقلتك تحت شجرة؛ أي شيء يمكنك من النجاة. فلا تختبئ تحت ناقلتك أبداً ما لم تكن مضطرّاً لذلك".

سأل نغوين: "لماذا لا، يارفيق "فو؟"

"القنبلة التي تسقط على الناقلة تدمّر الناقلة. القنبلة التي تَقعُ على ناقلة ويَختبئ سائقها تحتها تُدمّر الناقلة والسائق. ودائماً ضع بندقيتك الكَلاشنِكوف خارج الناقلة! ماذا لو نجوت وتدمرت ناقلتك؟ كيف لك أن تقاتل بلا سلاح؟ ضع هذا في رأسك وتعلّمه. في كل مرة تنزل فيها من ناقلتك في الأدغال أو في الجبال، أول شيء تقوم به هو أن تأخذ الـ AK معك. قبل أن تفتح الباب! مفهوم؟".

بعد ثلاثة أشهر في الثكنات الثورية، مُنِح كلٌّ من فيونغ ونغوين إجازةً لمدة يومين. لم تكن كافية لفيونغ ليذهب إلى بيت والديه في كاو بانغ؛ فالطريق إلى هناك يتطلّب منه يوماً كاملاً للذهاب ويوماً للإياب إذا حالفه الحظ. لذلك دعاه نغوين إلى بيته في هانوي. أوصلا ناقلتيهما إلى مركزٍ لتدريب المجنّدين حيث كان بانتظارهما سائقان جديدان لكي يأخذاها مع مزيد من الإمدادات. استغرب فيونغ من أن يقوم شخص آخر بقيادة ناقلته، لكن

نغوين أخبره بأن الناقلة لم تكن بالأساس ناقلته بل هي ناقلة الشعب، وهي تماماً مثل السلاح، إذا تركه عليه أن يتوقع أن شخصاً آخر سيلتقطه. بعدها سار الجنديان الصغيران إلى بيت والدَي نغوين في الجانب الغربي من المدينة، قرب مركز قيادة الحزب حيث يعمل والد نغوين كاتباً.

كان والد نغوين رفيق شرف، يعني أنه واحد من خمسة آلاف من الذين انضمّوا للحزب قبل ثورة عام 1945، وفي الرف في البيت تقف صورة فوتوغرافية له مع توكيل من أعضاء الحزب للاجتماع بالعم "هو". بعد مرور عقود من الزمان على ذلك كان فيونغ لا يزال متأثراً. "والد نغوين كان قد التقى هو شي منه! كان ذلك شيئاً لا يصدّق بالنسبة لي، أن التقي أحداً ما كان قد تبادل الحديث مع هو شي منه. سألته كيف كان يبدو؟"

ردّ والد نغوين "لقد كان مُلهِماً". "أخبرنا بأنه لا يشك أبداً بالنصر في كفاحنا لأن قوة الإمبرياليين وقدرة آلاتهم لا تمثّل شيئاً أمام إرادة الشعب. ذلك ما كُنّا عليه أيام القتال الذي خُضناه ضدّ فرنسا، والأمر الصحيح كذلك هو أننا الآن نقاتل الأميركيين". قال فيونغ: "لكننا الآن نمتلك الآلات، لقد أرسل لنا الروس الطائرات النفّاثة والمدفعية، وأرسل لنا الصينيون الناقلات والبنادق. ناقلتي صينية، وبندقية الـ AK التي بحوزتي صينية. قدّمها لنا رفاقنا الودودون".

"ربما، لكن من الجيد للصينين أن يروا كيف تعمل بندقيتهم ضد الأمريكان. على كلّ حال، إذا أخذوا منك ناقلتك الصينية وبندقيتك الـ AK47 فسوف تستمر بالقتال".

ردّ فيونغ قائلاً: "بالتأكيد".

"هل تعتقد أن الأميركيين سيقاتلون من دون طائرات B52 ومن دون الهليكوبترات؟"

في الليلة الثانية ذهب الرفيقان إلى محاضرة تُلقى في سينما في هانوي. الكابتن الذي كان قد لُقّب بالبطل في قوات الشعب المسلحة للقتال في الجنوب كان قادماً ليتحدث إليهم عن الكيفية التي يجب على الجندي أن يتصرف بها خلال المعركة وما هو المطلوب منه. كانت المحاضرة مُخصّصة لأفواج الجنود الذين يقاتلون في الخطوط الأمامية فقط، وليس لكتائب النقل، لكن والد نغوين كان قد تمكّن من جلب التذاكر لهم من مكاتب الحزب. ما يزيد على أربعمائة جندي أجبروا أنفسهم على أن يَنحشروا في كوخ معدّ لأن يستقبل نصف هذا العدد، وكان هناك بعض التأخير حتى تمكّن الحشد من تنظيم نفسه. في آخر الأمر عندما بدأ الجندي حديثه كان كما لو أن ساحة المعركة قد نُقِلت إلى الغرفة، كان هادئاً عندما تحدّث عن مطاردة العدو في الأدغال، أو عن الثبات المطلوب في مهمات الاستطلاع، لكن عندما تحدّث عن القفز من فوق الأسلاك الشائكة وكيف كانوا يقومون بالهجوم، ارتفع صوته صارخاً وفتح ذراعيه على اتساعهما ليُبيّن الضخامة والإثارة التي كان يندفع بها جيش الشعب قُدُماً لمواجهة الإمبرياليين.

"عندما تدخل المعركة عليك أن تحافظ على رباطة جأشك وتستخدم أحاسيسك. في بعض الأحيان ستتمكن من شمّ الأميركيين". أخرج الكابتن زجاجة كولونيا "أولد سبايس"، صبَّ قليلاً منها في يده وبعد ذلك قذفه في الغرفة. ضحك الجنود . كانت الرائحة قوية وعذبة. "كذلك تستطيع أن تشمّ رائحة سجائره وعلكته. ابقَ هادئاً وسوف تسمعه. الأميركيون العاديون يُحدثون الكثير من الجلبة، أمّا القوات الخاصة والحراس والكوماندوس الذين يتم إنزالهم خلف الخطوط لمهاجمة خطوط نقلنا وإسنادنا، ليسوا كذلك".

وَكزَ نغوين بمرفقه رفيقه فيونغ قائلاً: "أرأيت، إنهم يرسلون أفضل رجالهم لمواجهتنا!" التفتت إحدى الفتيات الجالسات في المقدّمة، وكانت ترتدي بزّةً رسمية، وأدارت رأسها نحوهما، وطلبت منهما السكوت. كانت إحدى

فتيات مقاطعة كوانغ نونه. عبّر فيونغ عن اعتذاره مبتسماً لها لكنها لم تبادله الابتسامة.

أكمل الكابتن كلامه قائلاً: "إنهم هادئون ويستخدمون سلاحنا". عندما قال ذلك التقط بندقية الـAK وأكمل حديثه "لكن تذكّر، إنه يستطيع أن يَسمعك أيضاً إن لم تكن حَذراً".

تذمَّر جمهور المستمعين فيما بينهم. ألم يكن الجنود الفيتناميون دائماً أهدأ من الأميركيين؟ يمكنك أن تسمع الجنود الأميركيين قادمين من مسافة بعيدة. يصيحون على بعضهم ويتصادمون في الأدغال.

أسكتهم الكابتن. "هدوءاً الآن، استمعوا. إذا كنتم في كمين، ما هي الميّزة الكبرى التي تتمتعون بها؟ إنها المباغتة، والمباغتة تعتمد على شيئين اثنين: ألا يراكم أحد، وألا يسمعكم أحد. لذلك ابقوا جميعكم هادئين تماماً". أشار إليهم الضابط بذراعيه لكي يتوقفوا عن الكلام حتى يخمد الهرج والمرج. فكّر فيونغ بأن الفتاة ستقوم بإسكات نغوين مرة أخرى. لكنها كانت تنظر مباشرة نحو الضابط. لقد كانت رفيقة جدية للغاية.

مرّة أخرى التقط الضابط بندقية الكَلاشنِكوف من الطاولة التي أمامه. ثم حدّقَ بعيون الحشد وصاح، "أضواء!" كانت مصابيح النيون فوق رؤوسهم تشتعل بصورة متقطّعة ثم انطفأت. فكان كل شيء يعمّه الظلام والهدوء.

أكمل الضابط حديثه بالقول: "الكمين يكون ناجحاً فقط إذا كان العدو لا يستطيع سماعكم أو رؤيتكم. أنا مستعد لإطلاق النار. لا أحد يستطيع أن يرى أين أنا. لذلك سأختار الآن الإطلاق نصف الآلي". عندما غيّر العتلة من الأمان إلى الإطلاق نصف الآلي في العتمة كان هناك صوت طقطقة يتردّد صداها في الغرفة. يبدو بأنّها إشارة متّفق عليها مع الجندي الموجود في آخر الغرفة ليقوم في الحال بإشعال المصابيح مرة أخرى ليظهر المدرب وهو

منحنٍ ينظر إلى سلاحه. كان يميل إلى إطلاق الصراخ أكثر مما يميل إلى إطلاق النار، وبدا على وجهه خوف حقيقي. كان أمراً مفزعاً. "لذلك، وبسبب تلك الضجة التي صنعتها. فقد وهبت نفسي لهم. أنا الآن الطريدة. لقد وقعت في الكمين".

ثمَّ استوى قائماً وتبسّم قائلاً: "البقاء حيّاً هو أن تقوم بأشياء بسيطة، أشياء بديهية، أن تتوقفوا وتفكّروا. أيها الرفاق دائماً توقفوا لتفكروا، عندما تذهبون إلى المعركة ومعكم بنادق الـ AK تأكّدوا أولاً من عتلة اختيار نمط الإطلاق". أرجع بندقيته إلى الطاولة وقال: "وإلّا ستكونون أنتم الهدف بالنسبة للإمبرياليين".

تواصلت المحاضرة عشرين دقيقة أخرى، لكن المعلّم فشل في تجاوز الأثر الدراميّ الذي صنعه بالصورة الإيضاحية عن المخاطر التي تتسبّب بها عتلة الاختيار. على أي حال، لم يكن فيونغ يصغي بانتباه إلى آخر المحاضرة؛ كان يفكر في المعركة. فقد قرر أن يُثبّت عتلته في ذلك المساء، لذلك فإنه لن ينسى هذا الأمر. بعدئذٍ وهو في طريق العودة مع نغوين إلى بيت والديّ نغوين، رأى فتيات كوانغ نونه. ترك فيونغ صاحبه نغوين وسار باتجاه الفتاة الجديّة.

"أنا أعرفك من الثكنات. ما اسمك؟"

"آنه" انتظر فيونغ لتسأله هي الأخرى عن اسمه لكنها لم تفعل.

"كيف وصلت إلى هنا؟".

"لقد أعطانا الرفيق "فو" تذاكراً".

"أين تمكثون؟".

"سنعود أدراجنا الليلة، لقد جلبنا ناقلاتنا".

"هل استمتعتِ بالمحاضرة؟".

"نعم لقد كان رجلاً خبيراً للغاية. كانت نصيحته عملية".

"لم تكن عملية بالنسبة لنا، فنحن لن نجلس في كمائن -نحن سنقود الناقلات".

"يا رفيق فيونغ، لا يمكنك أن تقول ماذا علينا أن نفعل. الحرب ضد الإمبرياليين تُجبرنا على فعل ما يُطلب منّا، لذلك علينا أن نتعلّم أن نفعل كل ما هو ممكن. ذلك هو السبيل إلى خدمة شعبنا بطريقة أفضل".

فكر فيونغ "لذلك، هي تعرف اسمي".

بعد أن غادرت الفتيات بناقلاتهن، قال نغوين لفيونغ ممازحاً: "إنها غير مهتمة بك، يا فيونغ، هي مهتمّة فقط "بالقضية الوطنية الأكبر" و"تحطيم كلاب الإمبريالية".

"أنت تقول ذلك فقط لأنك معجبٌ بها، رفيق نغوين".

بينما كانا يضحكان، انطلقت صفّارات الإنذار. كان ثمّة غارة على وشك الحدوث.

قال نغوين: "أسرع! إلى الملاجئ".

رجع الجميع من إجازاتهم باكراً إلى الثكنات. كانوا قد تعلّموا القيادة في ساحة الاستعراض العسكري ومن بعدها عندما استطاعوا أن يديروا الناقلات الكبيرة وأن يوقفوها ويحركوها، ويتحكموا بسرعتها، ذهبوا إلى الحقول خارج المدينة ليتدرّبوا ضمن ظروف مشابهة للتي سيواجهونها في الممّر. ومع أن الرفيق "فو" أخبرهم بأن هذا المكان لا يمكن أن يقارن مع الجبال والأدغال، إلا أن التدريب الوحيد على القيادة الذي سيتلقّونه في حقل أرض وعِرة. قبل أسبوع من إتمامهم للدورة، كان كلّ من فيونغ ونغوين وخمسة من زملائهم

يقودون ناقلاتهم عائدين إلى هانوي عندما ظهر في سماء المدينة سرب من طائرات B52 القاذفة.

عندما جاءت الطائرات، وصلتهم الأوامر بالتوجه إلى أقرب ملجأ. وإن لم يكن هناك ملاجئ على مقربة منهم، فإن هناك أنابيب إسمنتية منثورة على الأرض يمكن لرجلين أن ينحشرا في أنبوب واحد إذا كانا على درجة كافية من الخوف. لكن في هذه المرة جعلهم الرفيق "فو" يقفون إلى جانب ناقلاتهم مع أسلحتهم، وخاطبهم وسط الضجيج والإرباك الذي سببته الغارة. كانت القنابل تتساقط على بعد كيلومترين فقط.

"الآن، هل تذكّر كل واحد منكم أن يُخرج سلاحه عندما غادر مركبته؟"

صرخ الطلاب "نعم، رفيق "فو"، لكن أنظارهم متّجهة إلى القنابل التي تنفجر على مقربة منهم، أما آذانهم فقد صُمّت من مدفع مضاد للطائرات في الجانب الآخر من الطريق وهو يطلق القذائف إلى عنان السماء. تبعَ "فو" نظرات الجنود الشباب المحدّقة بالسماء ثم التفت إليهم قائلاً: "أنتم بأمان. اقرأوا اتجاه القنابل والطائرات. إنها ذاهبة بعيداً عنّا. ليس هناك حاجة لتفرّوا من ناقلاتكم أو ترتعبوا أو تنهاروا. استخدموا أعينكم فتنجون. لقد تدرّبتم لتقودوا المركبات في الحرب. أنتم جنود في جيش الشعب وأنتم مهمون، لكنّكم لستم أهمّ من ناقلاتكم وأسلحتكم".

بعد ستة أشهر من بداية تدريبهم، وقف كلّ من نغوين وفيونغ في ساحة العرض التابعة للثكنة الثوريّة أمام رتلٍ من الناقلات الصينية الجديدة. كانت نوافذ المركبات مغطّاة بشبكة من الأسلاك لحماية السائقين من أضرار الانفجارات، وكان على مؤخّرة كل نافلة أطواق من الفولاذ يكسوها قماش مشمع بني اللون. كان الرفيقان "فو" و "وه" يقفان بين الرجال وناقلاتهم الجديدة. الآن وبعد أن استلم فيونغ ناقلته الخاصة، تساءَل فيما لو تمكّن أن

يكون شجاعاً، ورفيقاً جيداً، إذا ما قصفه الأمريكان. ثم خطب فيهم جنرال لم يكونوا قد رأوه من قبل أبداً في الثكنات قائلاً: "الرفاق المجنّدون أو بالأحرى الجنود الجدد لجيش الشعب!"، ابتهج الرجال والنساء الواقفين في ساحة الاستعراض على طرفة الجنرال. فأكمل حديثه بعد أن هدأ الضحك قائلاً: "مهمتكم هي الأكثر أهمية في الحرب، أيها الرفاق، يعود لكم أمر تنظيم قناة الإمدادات لكل شيء يحتاجه جيشنا".

بدأت انطلاقتهم في الطريق في صيف العام 1973. في الشهر الأول انطلقوا نحو مقاطعة "نغها" التي ينحدر منها العم "هو" لعبور نهر بن هاي الذي يجري على طول خط العرض سبعة عشر. الخط الذي يشير إلى الحدود الرسمية لفيتنام الشمالية. جنوب هذا الخط يتوجّب عليهم أن يتحرّكوا بمنتهى السريّة لأنّهم كانوا يخرِقون القانون الدولي بنقلهم السلاح عبره، وكذلك سيكونون أقرب لقوات العدو البريّة. إنّ الأفضل والأكثر خبرة بين السائقين هو فقط من يعمل في النصف الجنوبي من الممر. فكان على نغوين وفيونغ أن يتعلّموا الحرفة في النصف الشمالي، وبعد أن يكتسبوا الخبرة الكافية ويتعرّضوا للقصف بضع مرات، سيتم إرسالهم إلى العمل في الجانب الآخر من خط العرض. كان الرجال من الجنوب ودودين للغاية مع المجندين؛ إنهم السائقون الذين يتسلّمون الناقلات ويكملون الطريق. لم يكن أحد منهم يعتقد بأنه أفضل من نغوين وفيونغ فقط لأنه شارك في القتال لمدة أطول حتى من ثبت أنه من الرجال الذين قاتلوا الكوماندوس الإمبرياليين في الأدغال. سأل الوافدان الجديدان الرجال عن مجرى الأمور في الجنوب. أجاب الرجال: "الأمور سيئة"، لكن كان ذلك إشارة جيدة لأنها تعني أن الأميركيين وأذنابهم من الدمى خائفين الآن وسيلقون كل ما بحوزتهم على الطريق، يائسين من وقف توريد الإمدادات. حتى أن العدو أنزل بعض الجنود في الأدغال لمهاجمتها. كان الفيتناميون مُربكين في أول الأمر، لأن الأميركيين كانوا يستخدمون بنادق الـ AK.

لم يرَ نغوين وفيونغ أي حالة قصف. كانا يأخذان حمولتهما من الأسلحة، والبطانيات، والرز، والرصاص للالتقاء مع ناقلات أخرى في نقطة تبادل للحمولة على التخوم بين الشمال والجنوب عند النهر، ويتبادلان حمولتهما ويعودان بالجرحى للمستشفيات، ويسلّمان التجهيزات المعطوبة لورش الصيانة في الشمال. حاول الاثنان أن يقودا ناقلتيهما متقاربتين قدر استطاعتهما. عندما تتوقف القافلة كانا يعدّان الطعام معاً ثم يتقاسمان السجائر. يتطلب الوصول إلى النهر رحلة لأربعة أيام في حالة عدم تعرّض القافلة للقصف. كانوا ينامون النهار في الظلال الخضراء الفسيحة التي تزخَر بأصوات لم يستطع فيونغ تمييزها. كان يُفضّل الليل على النهار لأنه لم يَعتَد على ضجة الأدغال. كان الهدوء يُخيّم أحياناً أثناء الليل، وأحياناً تتعالى أصوات الحيوانات على نحو جنونيٍ ما يجعله يفكّر في الأرواح والأشباح التي كانت جدّته تخبره عنها، وكيف أنّها تعيش وسط النباتات المتسلّقة والأشجار العالية.

عرف فيونغ أنه كان محظوظاً لكونه يعمل في إيصال الإمدادات. فهم لا يتعرّضون للجوع ولا للبرد. إذا أمطرت يستطيعون أن يحتموا من المطر، وناقلاتهم مليئة بالملابس والغذاء. إلى جانب كيس الرز لديهم قنينة من صلصة السمك وبعض الماء. في مركباتهم لكل واحد منهم معول، ومجرفة، وبندقية كَلاشنِكوف صينية موديل 56 معلقة فوق رأس السائق. أخبروهم أن البندقية تبقى صالحة لإطلاق النار حتى لو دُفِنَت في الطين. اعتبر فيونغ أن هذا الأمر بمثابة سخرية. فالعديد من سائقي الناقلات دُفنوا في الطين ولم يتم إخراجهم، ولو أُخرجوا فلن يكون بإمكانهم العمل على نحو جيِّد مرةً اخرى. كان السائق الأكبر سنّاً في وحدتهم المدعو "هو" بعمر الثلاثين تقريباً، وكان يقود مركبته ذهاباً وإياباً في الممر منذ أربعة أعوام. انضم إلى نغوين ويونغ في الصباح بعد تناول الافطار الذي كان في الحقيقة وجبة مسائية قبل النوم، وتحدّث عن الجنوب والحرب. ذات صباح وجد نغوين ينظّف بندقيته فقال:

"عليك أن تنظف هذه مرّات عديدة يا نغوين".

أجاب نغوين: "لكن بندقية الـ AK هذه تعمل دائماً، وفي كل الأحوال، ماذا يحصل إذا لم تعمل؟ لا أعتقد أني سأحظى بفرصة لاستخدامها ضد الإمبرياليين. لا يحدث شيء هنا على الإطلاق. أريد أن أذهب إلى جنوب النهر".

ضحك "هو" قائلاً: "سترى شيئاً قريباً جداً بما يكفي. على أي حال، ليس عليك أن تنتظر حتى تذهب إلى الجنوب. لماذا ننام وإلى جانبنا بنادقنا الكَلاشنِكوف؟ لأننا قد نواجه الخطر بأي منعطف".

قال نغوين مُنكراً ذلك: "ماذا هنا؟ عند النهر؟".

"نعم بالتأكيد. فالأمريكان وأدواتهم لديهم زمر من الكوماندوس يرسلونهم للبحث عن الطريق الذي نسلكه وينصبون لنا الكمائن".

"كيف لهم أن يقطعوا هذه المسافة البعيدة؟ فجنودنا يصدّونهم ويدفعونهم إلى التراجع طوال الوقت، والشمال بعيد جداً عن قواعدهم".

"هناك مجاميع خاصة، خليط من الجنود الأميركيين والفيتناميين الجنوبيين، لا تزيد المجموعة عن اثني عشر عنصراً. فالذين يتمكنون من الوصول إلى هنا ليسوا صبياناً صغاراً، وليسوا رقيقين وبدينين مثل الطيارين الذين يسقطون بالمظلات بعد أن تستهدف صواريخنا طائراتهم. إنّهم أشداء، ولا تستطيع أن تشمّهم أو تسمعهم. إنهم تقريباً يُشبهون الفيتناميين. ينزلونهم في الأدغال من الهليكوبترات ويبحثون عن الطريق. مهمّتهم مهاجمة الطريق، ثم تأتي هليكوبتر أخرى وتنتشلهم إذا نجحوا في مهمتهم".

لكن ولشهر آخر لم يكن هناك أي أثر للكوماندوس الأميركيين أو لقاذفات القنابل، فكانوا يجتازون الطريق خلال النهار كما في الليل، ويصلون إلى النهر بثلاثة أيام. سُمح لهم فيما إذا صادفوا غزالاً في الغابات أن يطلقوا النار عليه،

لكن فقط في المرحلة الأولى من الرحلة. الصيد لم يكن جيداً ببندقية الـ AK، التي تُمزّق الحيوان إلى نتف، لكن كان لدى "هو" بندقية قديمة من زمن الحرب ضد الفرنسيين، وفي الأسبوع الثاني قتل غزالاً بطلقة واحدة دخلت في أذنه. قاموا بشوي الحيوان عند الفجر من بين الضباب في الأدغال، وظلوا صائمين بقية النهار. جذبت رائحة اللحم المشوي السائقين الآخرين.

سألني فيونغ في مكتبه، "ممن ماذا حدث؟" كانت "آنه" واحدة منهم". بعد الوليمة، عندما ذهب فيونغ ليستلقي في الغابة، لم يذهب لوحده.

عندما وقع القصف كان الأخير يتجاوز حدود أي شيء يمكن لنغوين وفيونغ أن يتخيلاه. كان فيونغ يفكر برفيقته "آنه" عندما بدأت الغارة. كان ذلك بعد ثلاثة أسابيع من لقائه بها، وعلى الرغم من أنهما في فرقتين منفصلتين لكن فيونغ كان سعيداً لأنه عرف أنهما يعملان على الطريق نفسه. هل يمكن أن يشتركا في القافلة نفسها؟ تسارعت نبضات قلبه لهذا الأمل. كانوا على بُعد يومٍ واحد من النهر يسيرون عبر الغابات المطرية الكثيفة بقافلة كبيرة، رتل من مئة ناقلة تتلوى كالأفعى في الغابة. كان فيونغ يقود ناقلته خلف نغوين، ثم ركنا ناقلتيهما بعيداً عن الطريق ليرتاحا خلال النهار. أطفأ فيونغ المحرك ونزل إلى الأرض، لكنه اعتقد أنها ما زالت تتحرك لأن الأرض اهتزّت قليلاً. شيء غريب ما حدث. نظر نغوين إلى عيني فيونغ بتساؤلٍ ودون أن يقول شيئاً. قاذفات قنابل! قفز الرجلان عائدين إلى ناقلتيهما، وسارا بهما إلى الغابة وقاما بإطفاء المحرّكَين.

كاد فيونغ أن ينسى بندقيته. خاطب نفسه قائلاً: "ابق هادئاً". "تذكر، أنك جندي في جيش الشعب. أنت أقوى من الإمبرياليين". تذكرَ أن يبحث خلف مقعده وفك بندقيته الـ AK من الكلّاب. "جاء بقية السائقين معاً. أخبرنا الضابط بأن "لا نقلق -نحن بعيدون عن القصف بثلاثة أو أربعة كيلومترات. سوف ننجو منهم، وسيخفقون في إصابة الطريق". كان فيونغ مُرتاحاً لسماع

ذلك، لكن يصعب عليه التصديق بأن القصف بعيد جداً عنهم؛ فالأرض تهتزّ أكثر، وأصبح الضجيج لا يُحتمل.

أعاد الضابط توضيح الأمر. "علينا أن نتوغّل أبعد داخل الغابة. عودوا إلى ناقلاتكم". كانت القردة على الأشجار من فوقهم تتقافز من غصن إلى غصن وتصرخ مرعوبة. صرخ أحدهم: "اتبعوا القرود! اذهبوا حيث تذهب!" وفعل ما كان قد طلبه منهم. عندما أصبحت الأدغال كثيفة بحيث لم يعد بالإمكان دخول الشاحنة أبعد من ذلك، ركنها إلى جانب جذع كبير وقفز منها، ثمّ ركض داخل الغابة. كانت الأرض ترتجُّ وتزمجر تحت أقدامهم وبدا الأمر وكأنّ مارداً يتقدّم نحوهم وبين الخطوة والخطوة ثلاث أو أربع ثوانٍ. كانت الأرض تهبط وترتفع مع كل خطوة بشكل يثير الغثيان. كانت الأوراق والأغصان تنزل علينا كالمطر من أعلى الغابة. قفز فيونغ مرعوباً وراء شجرة، ودفن نفسه في الأرض، وراح يمزّق أوراق الشجر والطحالب، ويحفر الأرض حتى نزل بالكامل تحت التراب مُتمنّياً أن تبتلعه الأدغال وتحميه. أعاد الضابط إصدار أمره. "بسرعة. شغّلوا ناقلاتكم. دعونا نعود إلى الطريق".

تَعرَّض فيونغ ونغوين للقصف عدّة مرات خلال الشهر التالي حيث كانت طائرات العدو تبحث عن الطريق في الأدغال، وكانت الغارات لا تُصدّق، وبدا كأن الإمبرياليين أعلنوا الحرب على الأرض ذاتها. هل كانوا يرغبون بالنصر لدرجة أنهم يهاجمون الأشجار والجبال؟ بدأ فيونغ يكره الإمبرياليين بطريقة جديدة. من الواضح أنّه كان يعتقد أن الأميركيين أعداء للشعب الفيتنامي فقط، لكن الآن أدرك أنهم كانوا أعداء للأرض أيضاً.

في إحدى الرحلات إلى النهر كانت الأمطار غزيرة للغاية وذلك ما حوّل الطريق نفسها إلى نهر، جاعلاً من المستحيل على أي ناقلة أن تكمل رحلتها إلى الجانب الآخر، شمالاً كان أم جنوباً. ركن الجميع ناقلاتهم تحت الأشجار، بانتظار توقُّف الأمطار. من هناك رأى السائقون فِرَق النساء العاملات

مُسلّحات بالكَلاشِنكوف، ويَحملن المجارف، ويحفرن القنوات لصرف المياه بعيداً عن الطريق. لكن حتى هؤلاء النسوة المعروفات بأنهنَّ من أصلب العاملين في فيتنام، واللواتي يَستطعن أن يُسقطن شجرات النخيل كما يقشرن جذوع الأشجار، لم يستطعن فتح الطرقات. تساقطت الأمطار بغزارة مدة ثلاثة أيام، وجرفت الأتربة من المنحدرات فغطّت بها الطريق. كانت تتسرب من كل شق نحو ملابس الرجال ومن الثغرات في المشمع، فتبلّل الحمولة التي ينقلونها في المركبات. جلس فيونغ ونغوين كجرذين هاربين من النهر، رطبين يرتجفان من البرد إلى أن دعيا إلى ناقلة أفضل حالاً مغطاة بالبلاستك بدلاً من المشمع فقد كانت تقي من المطر. كان في داخلها سائق وجندي ومفوَّض. كانوا ينتظرون للذهاب إلى الشمال إلى مراكز القيادية الإقليمية، وكان لديهم سلاح أميركي عثروا عليه. وضّح المفوّض قائلاً: "إنها بندقية M16 لكنهم رموها -لا رغبة لهم بها".

سأل فيونغ: "لما يفعلون أمراً كهذا؟" والتفت إلى السلاح المؤلف من الكاربون والبلاستيك الذي بين يديهم. كان أخف بكثير من بدقيته الكَلاشِنكوف.

قال المفوّض: "الأميركيون ليسوا أغبياء لقد عرفوا أن AK تعمل بشكل دائم، وأنها الأفضل في القتال ضد الأفراد. لذا يرتدي الجندي الأميركي خوذة وسترة خاصّة واقية من الرصاص. لكن إذا أُصيبوا برصاصة AK هنا أو هنا"، ولمس المفوّض كتفه، ثم أعلى ساقه، "فإن الرصاصة تخترق جسده بحركة لولبية فتمزِّق أحشاءه. إنها تنفذ إلى خلف سترته وخوذته، وخلف درعه".

بعد عقود من الزمن يؤَكِّدُ لي فيونغ: "وجد الأميركيون رجالهم وهم يعانون من ثقوبٍ في سيقانهم التي اخترقها الرصاص"، لكن عندما خلعوا عن الرجال ملابسهم بدأوا بالصراخ لأن تحتها كانت أحشاؤُهم متدلية خارج قمصانهم. هناك رجال كانوا قد ماتوا بسبب جروح صغيرة، حتى أُولئك الجرحى الذين

ظنّ الأميركيون أنهم سينجون، أُصيبوا بالاتهابات والغرغرينة بغض النظر عن عدد المضادات الحيوية التي أُعطيت لهم. عندما كان الأميركيون يعثرون على جثث رفاقنا الذين كانوا قد توفوا منذ أيام أو حتى أسابيع، اكتشفوا أن بنادقهم الكَلاشنِكوف لا تزال تعمل رغم وجودها تحت الوحل والأمطار لأيام. وهكذا تخلّى الأميركيون شيئاً فشيئاً عن بنادقهم. لم يفعلوا ذلك رسمياً. تخيّل أن يعترفوا للعالم بأن السلاح الاشتراكي الذي عمره عشرون سنةً كان أفضل من سلاحهم الرأسمالي الحديث، لكن جنودهم شرعوا باستخدامه وسمح لهم ضباطهم بذلك، حتى لو قال الجنرالات الإمبرياليون في صحفهم إن ذلك لم يحدث.

في البداية، كان الأميركيون كلما أخذوا أسرى أو استولوا على مستودع للذخيرة أو على قاعدة متقدّمة لنا، يقومون بإعطاء الأسلحة لرجال القبائل الذين يُسلِّحونهم ضدنا في أدغال لاوس. لكن في النهاية بدأوا يحتفظون ببنادق الـ AK لأنفسهم. لقد اكتشفوا أن بندقية الـ AK هي الأفضل للقتال في الأدغال. أنت تعرف كيف تبدو، إذ تستطيع أن تلقيها في النهر وتبقى تعمل إذا كنت سريعاً بما يكفي لالتقاطها. لكنّ بندقية M16 تتوقف عن العمل بمجرد أن تبصق عليها!

"ذاتَ يومٍ جاء عناصر من فرقة الرينجرز الأميركيين وكانوا مسلّحين ببنادقهم الـ AK، وعندما فتحوا النار لم يرد عليهم أحد في البداية. لأنّ الذين تعرّضوا لإطلاق النار لم يتعرضوا لمواجهات في الجنوب لأمد طويل، ولم يعرفوا كيف تتبدّل الأمور. عندما سمعوا صوت بنادق الـ AK اعتقدوا أن إطلاق النار كان من قبل جنود آخرين في جيش الشعب أو من جبهة التحرير الوطنية. قُتل الكثير من الرجال، وفُقدت ناقِلات، قبل أن يُدركوا أن مُطلقي النار ليسوا منهم".

في أحد الأيام تم استدعاء السائقين لاجتماع في الهواء الطلق في قاعدة

فوج الإمدادات في هانوي، وذلك لكي يستمعوا لخطاب يُلقيه عليهم جنرال كبير مسؤول عن الدفاع الجوي لوسط المنطقة وشمالها. تم إعداد الساحة، وتنظيفها، ووضع في وسطها مقعد خشبي. وصل المفوّض من مركز قيادة الحزب مع مجموعة من الموظفين. رأى كلٌّ من فيونغ ونغوين أن من بين المجموعة التي حضرت كان والد نغوين، لكن نغوين قال إنه سيكون من المعيب أن يلوّح لأبيه. اصطف السائقون في الساحة وبنادق الكَلاشنِكوف أمامهم وبجوزة كل واحد منهم جعبة مليئة بمخازن الذخيرة وعلى صدر كل سائق أربعة مخازن.

همس نغوين بأذن فيونغ قائلاً: "إنهم لا يتوقعون أن بإمكاننا أن نطلق كل الذخيرة من ناقلاتنا. إنها لرفع معنوياتنا، لتجعلنا نشعر بالشجاعة، لتقنعنا بأننا جنود".

قال فيونغ: "ربما، لكن لو واجهنا الرينجرز فسأكون أكثر شجاعة إذا كان لدي أربعة مخازن للذخيرة بدلاً من واحد".

وصل الجنرال. كان بديناً وقد بدأ الشيب يغطّي مفرقيه. وكان منفرج الأسارير تبتسم عيناه وهو يستعرض صفوف السائقين ويومئ برأسه تحيةً لكل واحد منهم، ويتوقف بين الفينة والأخرى ليتحدث. عندما وصل إلى فتيات مقاطعة كوانغ نونه سألهن إذا كنّ يمتلكن من القوة ما يكفي لحمل مثل هذه الكمية من الذخيرة بالإضافة إلى البندقية. أجابت الفتيات الخمس بصوت واحد وكأنهن شخص واحد، "نعم أيها الرفيق المفوّض!"

هناك صندوق كان قد أُحضر سابقاً وقف عليه الجنرال.

"أيها الرفاق، هذه المهمة هي أكثر أهميةً من أي شيء يمكن لكم أن تقدموه لبلدكم. جيش الشعب على وشك إطلاق أكبر هجوم في الجنوب، الهجوم الذي سيسحق الإمبرياليين وعملاءهم. الإمدادات التي ستنقلونها عبر

الممر هي ما يجعل الهجوم ممكناً. من دون نجاحكم وشجاعتكم لا يمكن أن يحصل ذلك".

توقف لكي يؤكد ويشدد على خطورة اللحظة وثِقلها.

"عندما تقدمون الإمداد للوحدات الأمامية لقواتنا فأنتم مثل الدم ونظام الأعصاب في جسم الإنسان. يتوجب عليكم أن تبذلوا قصارى جهودكم لإتمام المهمة. أيها الرفاق، هذا العمل هو جزء أساسي ومهم للغاية، نعتمد عليه للنجاح الكامل في قضيتنا، لكن يمكن أن نتعرض للإخفاق إذا اكتشف العدو ماذا نفعل. عليكم أن تبقوا الأمر برمته سراً وبهذا وحده نستطيع أن نهزم العدو. يتطلب الكفاح الانضباط الثوري تطلّبا مُلِحاً. لا تخبروا عائلاتكم ماذا تفعلون، لا تخبروهم متى تتحركون ولا إلى أين تذهبون ولا كم يطول غيابكم. لا تخبروا حبيباتكم لماذا يتوجب عليكم البعد عنهن".

نظر فيونغ عبر الدائرة المحيطة بالمفوض عندما قال "حبيباتكم" وحدّق بوجه "آنه". فهي إما لم تسمع الكلمة أو أنها كانت تطبّق الانضباط الثوري على أحاسيسها. لم تنظر إلى الوراء، لكنها رفعت ذقنها قليلاً إلى الأعلى في الهواء وصفّقت للجنرال.

علم الأميركيون بالشحنة الكبيرة. كان فيونغ ونغوين في النصف الأول من رتل من تسعين ناقلة، لكن عندما أجبروا على الابتعاد عن الطريق كانت الانفجارات قد عرّت الأشجار من أوراقها وأحرقت كل ما تحت أقدامهم. أوقفا ناقلتيهما، ثم ركضا لمسافة مائة متر قبل أن ينزلا في واحد من الصدوع في جذع شجرة الكابوا الضخمة ويختبئا هناك. كان الطريق أمامهم ينعطف نحو الغرب والنصف الأمامي من الرتل – خمس وثلاثين أو أربعين ناقلة - كانت قد تقدمت مباشرة نحو منطقة المجزرة. كان من ضمن هذه الوحدة ناقلات تقودها "آنه" وفتيات كوانغ نونه الأخريات.

عندما مرّت العاصفة خرج فيونغ ونغوين من مخبئهما. كانت الأرض

السوداء أمامهما بمسافة مائتي متر برسم حدود منطقة الموت. كان الرتل قد تعرض للتدمير من نقطة تقع خلف ناقلات الفتيات تماماً.

بقيت ناقلتهنّ الأخيرة فقط، يتصاعد منها الدخان على حافة الوادي الأسود الذي يمتد لمسافة خمسة أو ستة كيلومترات أمامهم. تساءل فيونغ فيما لو كانت أولى الناقلات التي نجت أو الأخيرة التي تدمرت. كان هناك ناج، لكنه كان متأكداً من أنه لم يكن "آنه". لقد اختفت وتلاشت مع ناقلتها. لم يستطع أحد أن يقول من هو الناجي. كل الشعر الذي على رأسها حتى جفونها وحواجبها قد احترقت والتهمت النار معظم ملابسها. فمها ولسانها كانا محترقين بشكل كبير لذلك لا تستطيع الكلام. لا تستطيع سوى إحداث صوت غير مفهوم كان أشبه بصوت خافت لمخلوق غريب قال جندي بجانب فيونغ، "لقد جُنت أيها الرفيق، إنها الآن تعيش مع الأرواح".

لقد دمّر القصف كل شيء. كان الدخان يتصاعد من الأرض التي كانت تهسهس حيث كان ناب القنبلة يفعل فِعله داخل الشقوق. كانت الحفر التي أحدثتها القنابل تمتدُّ مئات الأمتار، أصبح لون التراب بداخلها أبيضَ لشدّة الحرارة. لم يبق هناك حياة نباتية داخل منطقة الموت، فقط بعض جذوعٍ للأشجار الضخمة على حافة منطقة القصف حيث تبددت قوة الانفجارات. أمّا في داخل المنطقة فقد نُسف سطح التربة واحترق.

عاد رتل الرجال والناقلات إلى الغابات وبدأوا من جديد في شق طريق بين الأشجار.

استمرت محاثات السلام في باريس. بين الحين والآخر كان الرفاق يرجعون إلى القاعدة أو إلى هانوي، ليستمعوا إلى حديث من المفوض السياسي الذين يخبرهم أن الأميركيين كانوا على وشك الاستسلام، وقد دخلوا المحادثات فقط للبحث في طريقة للانسحاب تحفظ لهم ماء الوجه، لقد عرفوا أنهم

مهزومون، ويائسون وعليهم أن يغادروا فيتنام.

تعرض رتل فيونغ للقصف مجدداً. كانت الأرض تتزلزل تحت قدميه. قذفت به شدّةُ الانفجار خارج السيارة ولكنه كان مصمماً على العودة إليها مرة أخرة. كان الهواء مثقلا بالغبار المتطاير من الأشجار المنسحقة والوحل المتبخر. كان فيونغ على حافة التلة تماماً. عندما كان يحاول بصعوبة فتح الباب، كان إحساسه باللون يخذله وكل شيء رآه أصبح باللونين الأبيض والأسود. من بين الناقلات في الجانب الآخر من الطريق رأى نغوين وهو يلوّح له ويصرخ عليه لكي يعود أدراجه، لكن يونغ استمر. كان يسحب الباب ليفتحه وإذا بالشاحنة راحت تتأرجح بعنف وكأنها تحاول قذفه بعيداً قبل أن يتمكن من الدخول. وبقي يصارع حتى صار على مقعد السائق. يبدو أن قنبلة النابالم لا تبعد عنه سوى مسافة ميل واحد لأن العالم تحوّل في البداية إلى اللون البرتقالي ثم الأصفر وفي النهاية أجبرته حرارة القنبلة على تغطية وجهه بيديه والاختباء في أرض كبينة السائق تحت لوحة العدّاد حيث كان يشاهد من خلال أصابعه الغطاء البلاستيكي للمقعد يذوب من شدّة الحرارة ويحس بشعر حاجبيه يتجعّد ويلتف، وكان يتنفّس بصوبة بعد أن امتصت الحرارة الهواء خارج المركبة.

لم يعد فيونغ يفكر كجندي في جيش الشعب؛ كانت هناك قوة أخرى تتحكم في أفعاله، وجعلته أقوى. عادةً كان عليه أن يهرب من الحرارة، لكنه في هذه المرة وصل إلى بندقيته الـ AK وانتزعها من مشجبها. ومدّ يده وراء المقعد نحو جعبة الذخيرة حيث أزال أحد المخازن الذي كان ملتصقاً ببعض القطن عندما سحبه، ولاحظ أن المحفظة المعدنية كانت ساخنة مسبقاً.

كان يريد سحب المخزن خارج المحفظة ففتحها وقلبها ليسهل نزول المخزن الملتصق فانسل خارجاً. فركّبه في مكانه في البندقية. وحرك عتلة اختيار النار نحو الأسفل للإطلاق نصف الآلي ثم قفز من الناقلة. كان الجوُّ

ممتلئا بأوراق الشجر المحترقة والشرر المتصاعد. تمكّن أن يرى من بين الدخان الذيول الضبابية لقاذفات القنابل B52 والقنابل المتساقطة من بطون الطائرات. إن مدى ارتفاع الجبال أثّر في جلب قاذفات القنابل لتكون أقرب إلى الأرض. فعادة ما تكون القاذفات على ارتفاع عشرة آلاف متر، لكن القاصفات فوق فيونغ كانت دون ذلك الارتفاع. رغم ذلك لم تسنح له فرصة لضرب الطائرات العملاقة، رفع سلاحه وأسنده على خده ووقف وحيداً وسط الرياح والنار، وبدأ بإطلاق النار نحو القوات الجوية للولايات المتحدة. كان يطلق النيران على الرجال الذين أعلنوا الحرب على الأرض، الرجال الذين أحرقوا الأشجار، وقتلوا أربع فتيات من كوانغ نونه وأرسلوا أخرى إلى عالم الجنون.

كان الرشّاش يطلق النار في الهواء. أفرغ فيونغ مخزناً من الذخيرة، وركّب آخر ثم أطلق النار حتى أفرغه أيضاً. بعدها بدأ يشعر بالدوران؛ ولم يستطع أن يدخل إلى رئته الهواء، وأضرت الحرارة بعينيه. أعتقد أنه رأى من فوقه القاذفات تُخرج دخاناً أسوداً. أخيراً انتهت الغارة الجوية.

عندما خرج الرجال من بين الغابات لكي يروا ما الذي تبقى من القافلة، رأوا فيونغ واقفاً محني الرأس. كان يتنفس بصعوبة والدخان يخرج من سبطانة بندقيته. كان الجميع يعاني من الصمم، وفي البداية لم ينبس أحدٌ منهم ببنت شفة. نظر فيونغ إلى الأعلى، لكن بعد ذلك أغمضت عينيه وشعر بأنه يسقط. ركض نغوين قدماً نحو صديقه. "فيونغ! هل أنت بخير؟ ماذا جرى لك؟

تجمّع بقية الرجال وتناول نغوين بندقية صديقه، وأخذ يطلق اللعنات بعد أن أحرق أصابعه بسبطانة البندقية الساخنة. خلف الحشد كان أحد السائقين يشخص بنظره نحو السماء. وضع يده ليظلل على عينيه وركّز، ثم بدأ بالقفز جيئة وذهاباً وهو يصرخ. كانوا لا يزالون يعانون من الصمم بسبب القصف، لا يستطيع أحد أن يسمعه، لكنه بالتدريج جذب انتباه الآخرين. ملوّحاً بذراعيه ومشيراً للأعلى البعيد إلى جهة الشرق. "انظروا! انظروا! إلى

إحدى طائرات الإمبرياليين تعرضت للضرب. إنها تسقط!"

حررت قاذفة القنابل نفسها من التشكيل الذي كان يدمّر الجبال للتو، وأول شيء سمعه فيونغ عندما استعاد قدرته على السماع هو صراخ الرجال، "انظر، انظر، لقد أصَبتَ إحداها! لقد أسقطتَ قاذفة قنابل B52!"

مالت الطائرة على جناحها وشكلت بمسارها قوساً مبتعدة عن بقية السرب. ثم صححت من وضعها بمناورة، بعد ذلك انقضّت إلى الأرض. كان ثمة مظلات قد فُتحت وقد ظهرت للعيان تحتها. نظر فيونغ نحو البندقية الـ AK التي بيده وبدأ بالضحك.

في مركز القيادة العام للدفاع الجوي كان هناك رجال ونساء في الفوج الثالث والثلاثين للنقل التابع لجيش الشعب، يقفون بحالة الاستعداد أمام الجنرال نفسه الذي أرسلهم محملين بالنصائح التي ترن في آذانهم. كان لدى الجنرال صباح مليء بالأعمال. لأن الغارة الجوية أخرّته لمدة ساعة حتى وصل إلى مركز القيادة، وقبل ذلك كان يخوض في محادثة طويلة مملّة مع كولونيل في فوج تين لاو للدفاع الجوي حول السبب الذي جعل إحدى وحداته لا تحظى بالتنويه لإسقاطها قاذفة قنابل B52 في منطقتها.

"لكن أيها الرفيق الجنرال، رجال من وحدة تشكيل الصواريخ التابعة لنا هي من أطلق صاروخ سام فأسقط الطائرة".

"للأسف، نحن لا نستطيع أن نتأكد بأن هناك جنوداً أفلحوا في إطلاق الصاروخ" "هل تستطيع ذلك؟".

"كلا، رفيقي الكولونيل".

"لكن، في الحقيقة، رفيقي الجنرال، أنت لا تصدّق أن بندقية الـ AK47 تستطيع أن تسقط قاذفة قنابل B52؟ لقد سمعنا بهذه القصة الجنونية هنا وضحكنا - ليست سوى إشاعة."

"حسناً، رفيقي الكولونيل، لا أحد يضحك هنا ولا يتهم الآخر بالمجنون". كان في صوت الجنرال مايشي بملاحظة صارمة. قال: "عندما تقاتلون وحشاً مثل أمريكا وأذنابها من حكومة الدمى في الجنوب، فإن الإشاعات يمكن أن تكون مفيدة للغاية. هانوي بأكملها تغمرها الحماسة بشجاعة فيونغ وثباته. إنها إشاعة إيجابية، ألا تعتقد ذلك؟ سائق ناقلة فيتنامي واحد مقابل القوة الجوية الأميركية؟"

"لكن لا يمكن أن يحدث ذلك، رفيقي الجنرال. لا أحد يستطيع أن يسقط قاذفة القنابل B52 ببندقية كَلاشنِكوف AK47".

"وأنا لم أقل إن ذلك ما حدث، رفيقي الكولونيل - فقط نحن لا يمكن أن نكون متأكدين بأن رجالك الشجعان كانوا موفقين باستخدام صاروخ سام. أنا لم أعطِ الرفيق فيونغ ميدالية لإسقاطه قاذفة القنابل B52، بل من أجل العمل البطولي في مواجهة الهجوم الضاري والساحق الذي قام به العدو. ثمّ إنّي أعتقد، رفيقي الكولونيل، أن ذلك هو تاريخ كفاحنا. إنها قصتنا، أليست كذلك؟"

أعجب الجنرال بالقصة. لقد سمعها من جنرال في فصيل الإمداد الثالث جاء إلى هانوي للمشاركة في مؤتمر. والكاتب نفسه المنهمك في القيل والقال، وهو من طاقم الجنرال، من أخبر فيونغ عن المحادثة مع كولونيل الدفاع الجوي، وكان حاضراً عندما كان الجنرال يقول "أنت لا تصدّق ما يقولونه عن واحد من رجالي! قام بإسقاط قاذفة قنابل من نوع B52 ببندقية الـ AK47". لقد ضحك بقية الضباط كذلك. لكن ليس الجنرال. كان الأميركيون يحاولون الضغط على الفيتناميين للعودة إلى طاولة المفاوضات في باريس عن طريق القصف مجدداً. كان هناك المزيد من الغارات قبل أن تنتهي المفاوضات، وكان الجنرال مهتماً بأي شيء يساعد الشعب لكي يتحدى الموت والرعب الذي ينهمر من السماء كالمطر. كان قد أرسل وحدة الدعاية لإجراء مقابلة

مع الرجل فيونغ. وجدوه هادئاً رغم أنه منفعل داخلياً وواضح أنه فقد صديقته مؤخراً. لسوء الحظ الجميع عانوا من فقدان أحد ما - فالجنرال لا يستطيع إحصاء عدد الذين فقدهم من أصدقائه ومن عائلته ولن يراهم مرة أخرى بعد ما يقارب الأربعين عاماً من النضال. أخذ الشباب العاملون في وحدة الدعاية من فيونغ حديثاً وصورة وهذا كل ما كانوا يحتاجونه. فالآن هناك إعلانات على شكل ملصقات في كل أنحاء هانوي يظهر فيها فيونغ ينظر إلى السماء، وبيده بندقية AK، كانت باللون الأسود القاتم وخلفها سماء بيضاء، مرفقة بشعار يقول: "كن مثل الرفيق فيونغ - قاوم الإمبرياليين بكل ما لديك من قوة".

كان فيونغ يتبسّم كلما تذكر نصيحة وتحذير الجنرال."أعتقد أنه أحبني. أنا لم أكن عصبياً. لقد أخبرني أشياء كانت جيدة بالنسبة لي. قد أكون عانيت لعدة سنوات - لكني ساعدت البلد على البقاء".

لاقى فيونغ في ذلك الحين ترحيباً كبيراً في المناطق التي تعرضت للقصف حول هانوي، فقرر الجنرال أن يرسله في جولة على المعامل في الشمال، وقد تصل جولته إلى الصين كذلك، باعتباره وجه فيتنام المقاوم. قال فيونغ: "ما الضرر من إطلاق بضعة شائعات؟ أنا وبندقيتي سنذهب إلى المدينة خلال الجولة الثانية من القصف. لقد كان المدنيون متطوعين مسبقاً لأداء واجباتهم والعمل في فصائل مقاومة الطائرات. فإذا كان وجودي بينهم يبقي المعنويات مرتفعة أثناء الغارات الجوية عندها دعهم يهدرون الرصاص. إنه جدير بأن يبقي المدينة حيّة. المدينة التي لا تُقهر ذات الألف بندقية من الكَلاشنِكوف AK! قال الجنرال سأكون بحالة جيدة بعد الحرب - وسيتأكد. سيفسح لي مجال في الكلية، لأن الواجب الملقى على جيلنا هو إعادة بناء البلد بعد الحرب". عندئذ، وبعد الحديث الهادئ مع فيونغ ذلك اليوم في مركز القيادة، علت عيون الجنرال المرهق سِنَة من نعاس وبدا أنه سيغطُّ في النوم.

ألحّ الحاجب وهو يهزّ الجنرال لكي يوقظه قائلاً: "رفيقي الجنرال، يارفيقي الجنرال".

"أوه، نعم" نظر الجنرال من حوله واعتدل في جلسته قبل أن يباشر بتوجيه خطبته المعدّة سلفاً. "من أجل شجاعته في مواجهة العدو، من أجل خدمة شعبه، نصادق على أن الرفيق فيونغ بطل من أبطال قوات جيش الشعب. إنه قدوتكم التي تقودنا جميعاً للنصر في حرب المقاومة الثانية هذه. نحن نحارب المعتدين الأميركيين، زعماء الإمبريالية الوحشية الماكرة، لكننا واثقون من النصر. يجب علينا أن نؤمن بالحزب إيماناً راسخاً. لا تكونوا جزعين، وتتجنبوا المشاق. لدينا من يدعمنا من المخلصين من البلدان الاشتراكية، ممن يمدّ لنا يد العون بصفةٍ أخويّة". عندما وصل في حديثه إلى هذه النقطة تقدم من فيونغ وأخذ بندقيته من يديه ورفعها عالياً في الهواء وأكمل قائلاً: "لدينا أيضاً من يتعاطف معنا ويدعمنا من الشعوب في جميع أنحاء العالم. لقد غزت الولايات المتحدة بلادنا، لكن شعب الولايات المتحدة الأميركية نفسه يدعم قضيتنا العادلة. بالنسبة لنا، نحن نملك التصميم على النصر. كافح دائماً لتكون الأفضل، لكي تفعل شيئاً قليلاً يدفع بمعركتنا إلى الأمام. إذا كان كل رجل وكل امرأة يقظين ويحاولان أن يصبحا قدوة بسلوكهما، عندها لن نكون مهزومين. ليكن الرفيق فيونغ وسلاحه قدوتكم جميعاً. إذا طبقنا عملياً على أنفسنا جميعاً عنادنا لهزيمة العدو فسننتصر. لكل واحد منّا دوره الذي يؤدّيه. كل واحد هو سلاح، يطلق الرصاص على العدو الإمبريالي".

في الوقت الذي وصل فيه الجنرال إلى خاتمة خطابه بدأ صوته يرتفع صارخاً وملوّحاً ببندقية فيونغ في الهواء. هتّف مفوض الكتيبة صارخاً "بصحة الجنرال، يارفاق!" لكن سلفاً كان الجميع يهتفون عالياً. أومأ الجنرال للجميع كي يهدأوا وأشار إلى جندي من حراسه الشخصيين. "لدى الرفيق "تان" قصيدة يود أن يهديها إلى الأبطال من الرجال والنساء في كتيبة النقل الثامنة عشر في جيش

الشعب". تقدم الجندي وألقى قصيدته:

جاء بنا العدو لهذه المعركة

أسلحتنا بأيدينا

كان حقل الأرز لا يزال مخضراً والأشجار لا تزال براعم

لقد جاء الربيع، الطيور والفراشات لا تزال تطير

***

بعد العرض اقترب الجنرال من فيونغ وقال:"لم يسقط أحد قاذفة القنابل B52 ببندقية الـ AK47، يارفيق فيونغ".

"كلا، رفيقي الجنرال".

" مع ذلك يبدو الأمر وكأنه قد حدث".

"نعم رفيقي الجنرال".

أمضى فيونغ أربعة أشهر في رحلته إلى الشمال وإلى الصين. في الصين أخذوه إلى مصنع إنتاج بنادق الـ AK ليرى النساء اللواتي يجمّعن الأسلحة في خطوط تبدو طويلة جدّاً. لم تتوقف النساء عن العمل إنما كن يبتهجن فحسب، عندما كان فيونغ والمسؤول الحزبي الذي يرافقه يمّران بهن. صفق فيونغ للنساء وهن مستمرات بالعمل. أينما ذهب كان يتناول بندقية الـ AK ويرفعها عالياً للعمال والفلاحين والجنود الذين يتزاحمون لرؤية الرجل الذي أطاح بقاذفة قنابل من طراز B52 ببندقية الـ AK.

لم يرَ الجنرال نهاية الحرب: لقد قتل في غارة جوية على هانوي في ذلك الخريف. بعد سنتين انتصر جيش الشعب في النهاية وسُلبت من فيونغ ناقلته.

فقد تلقى الأوامر للذهاب إلى ثكنات عسكرية في سايغون كانت تستخدم من قبل جيش نظام الدمى العميل. أمضى شهرين في سايغون ثم تمّ تسريحه. ولم يسمح له بالاحتفاظ ببندقيته الكَلاشنِكوف.

٤ - فلسطين

في شهر أيلول عام 1972، خلال الألعاب الأولمبية في ميونخ في ما كان يسمّى ألمانيا الغربية، قام ثمانية فلسطينين من فدائيي منظمة أيلول الأسود باجتياز الأسلاك الشائكة للسياج الأمني، وهم يرتدون الملابس الرياضية والأحذية الخفيفة ويحملون بنادق كَلاشنِكوف ويزحفون من خلال القرية الأولمبية ليأخذوا الفريق الإسرائيلي رهينة. في أول الهجوم قتل اثنان من الرياضيين بطلقات من بنادق الـ AK. قتل موشيه واينبرغ على الفور أما جوزيف رومانو فقد منع المهاجمون وصول المساعدات الطبية له فنزف حتى الموت. كان رجال أيلول الأسود المحكوم عليهم بالموت سلفاً، يطالبون بإطلاق 250 أسيراً فلسطينياً من السجون الإسرائيلية ليبادلوهم بالرهائن التسعة المتبقين لديهم.

رفضت الحكومة الإسرائيلية التفاوض ونقلت جواً بعض المتخصصين بمكافحة الإرهاب لتقديم المشورة إلى الشرطة لإيجاد أفضل طريق لفك الحصار عن الرهائن بنجاح عن طريق القوّة.

آثر الألمان الغربيون الخديعة وذلك بأن أخبروا الفلسطينين بأنهم سيُنقلون جواً إلى مصر. كان الرجال الذين جاءوا بطائرتي الهليكوبتر اللتين وصلتا إلى القرية الأولمبية لأخذ المهاجمين والرهائن إلى مهبط للطائرات على مقربة من فورشتنبروك، يعرفون أين نُصب الكمين في الطريق المعبّدة بالأسفلت. كان إطلاق النار الذي أعقب ذلك كارثياً فقد خلف تسعة إسرائيلين وخمسة فلسطينين وألماني قتلى.

في اليوم التالي نشرت جريدة صورة خالد جواد وهو أحد المُسلَّحين الفلسطينين مقتولاً برصاصة ألمانية تركت ثقباً في وجهه وبجانبه بندقية الـ AK47 بمِقبضها المُتحرِّك.

إذا كانت فيتنام قد عبّدت الطريق لبندقية الكَلاشنِكوف كي تكون أيقونة للتحرير، فإن ميونخ ستكون المَعلَم الأول على طريق تجسيدها كسلاح للإرهابيين وعلى وجه الخصوص الإرهابيين الفلسطينيين (يتحدث المؤلف هنا عن "إرهاب" الفلسطينين ولا يتحدث عن إرهاب الدولة الذي تمارسه إسرائيل لكنه يكشف لاحقاً عن أوجه من معاناة الشعب الفلسطيني في ظل الاحتلال-م). نشرت مجلة التايم رسالة رصدت المزاج السائد في الغرب جاء فيها: "لقد أثبت هذا الشيء الذي فعله غوغائيو أيلول الأسود أنهم حثالة الأرض". في الواقع، أصبح الفلسطينيون أمة من الإرهابيين، صورة نمطية، لم يعملوا على تبديلها خلال نضالهم من أجل أن تغيير الأوضاع اللا إنسانية التي وجدوا أنفسهم فيها بعد تأسيس إسرائيل عام 1948، أحياناً كانوا يفقدون إنسانيتهم. الآن أينما وحيثما ارتفعت عالياً بندقية الـ AK بيد فلسطيني لمقاومة إسرائيل، أو كما حدث ويحدث مراراً في حالات الخلاف مع إخوانهم العرب في لبنان، أو ما يحدث في المخيمات الفلسطينية المتناثرة في طول الشرق الأوسط وعرضه، ربما تكون قضية محقةً في الأصل غير أنها تبقى مشوبة بالإجرام.

قبل عملية ميونخ كانت المقاومة الفلسطينية ضدّ إسرائيل نموذجاً أصلياً لحالة تكون فيها الكَلاشنِكوف في خدمة قضية تحرير؛ لمساعدة الضعيف ضد القوي، والوقوف مع المظلوم بوجه الظالم. فهل فقد الفلسطينيون، وهم في حالة اليأس، تأثيرهم على من يدرك آلامهم، أو هل أخطأ السلاح هدفه في مساره المغاير لكل ما هو طبيعي في قلب الصراع؟

بعد تسعة وعشرين عاماً من الأحداث الكارثية في ميونخ، وبعد أسبوعين

من قيام إرهابيين عرب بتدمير البرجين التوأمين بواسطة طائرتي ركاب، التقيت بمصور في بار فندق "أمريكان كولوني هوتيل" في شارع نابلس في القدس الشرقية العربية. كان البار مكاناً مشهوراً يجتمع فيه المراسلون، والدوبلوماسيون والسياسيون الذين يأتون للزيارة، كان مكاناً مناسباً للأقاويل التي تزدهر في المدن التي تكون على حافة الحرب. تحت قنطرة مزينة بأحجار زهرية اللون لبار الدور السفلي للمبنى يمكنك سماع ما حدث في الكنيست في ذلك اليوم؛ وأي مجموعات مشاكسة كانت على وشك التمرد ضمن حركة التحرير الفلسطينية؛ التي تخلى عنها المفكرون العرب وغادروا المدينة؛ كذلك الذين عادوا إليها. يقدم بار فندق "أمريكان كولوني" أيضاً أفضل أنواع المارتيني المز في المدينة مع الزيتون الفلسطيني.

كان بيير بولان وجه البار المبتسم، يشبهني قليلاً فهو غير قادر على فهم ما يجري ويبحث عمّن يرشده ويشرح له الموقف ويدخله إلى العالم المشوش والمعقد تماماً للكفاح الفلسطيني. بعد أن شرب كأسه أخبرني حكايته. فهو مصور أزياء فرنسي عمره ثلاثة وثلاثون عاماً، أمضى بيير السنوات الخمسة الأخيرة في السفر حول العالم يصوّر عارضات أزياء مصابات بفقد الشهية، بملابس غالية الثمن. في كل بلد كان يرى الأشياء نفسها: فندق فاخر، موقع جميل، وأفضل مطعم في البلدة. الآن أصبح بيير يبحث عن الأشياء التي لا يمكن لتصوير الأزياء أن يمدّه بها: كالأصالة، والإثارة وربما الرومانسية التي لا يعترف بها. كان يحمل العديد من بطاقات التأمين الذهبية، ومعدات كاميرا بثمن لا يقل عن 4000 جنيه إسترليني، وجواز مرور صحفي من المكتب الإعلامي لقوات الدفاع الإسرائيلي في القدس يسمح له بالمرور عبر نقاط التفتيش الإسرائيلية والدخول إلى المناطق المحتلة. حتى في السنة التي تلت، كنت كل مرة آتي فيها إلى القدس أحاول فيها أن ألتقي به من أجل الحديث مطوّلاً، في بار فندق الأمريكان كولوني وبالتدريج بدأت قصته تنتظم. حسب

طلب بيير فقد غيّرت اسمه، لكن الوقت الذي أمضاه في فلسطين حقيقي بما يكفي، وخبرته في انعكاس صورة بندقية الـ AK47 وسر الافتتان الفلسطيني بالسلاح الذي كان يمثل كلا الأمرين، المنقذ واللعنة في آن واحد، حقيقية أيضاً.

بعد يوم من لقائنا دخل بيير الضفة الغربية واستقل سيارة أجرة إلى المقاطعة، وهي قلعة قديمة فوق رام الله وهي التي أرّخت لزمن الانتداب البريطاني بين الحربين العالميتين. الآن وعلى الرغم من حالة الخراب، إلا أنها تعتبر مقر اقامة ياسر عرفات رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية، الذي يعاني من نوبات الشلل الرعاشي. مرت سيارة الأجرة عبر نقطة تفتيش، تحدث الحراس مع سائقها للحظات، ثم اجتازت بوابتين داخليتين. هنا توقف السائق لينزل بيير، فقال له: "لا بأس بوجودك هنا لكن لا تذهب إلى جهة اليمين حيث مبنى الرئيس". عاد السائق أدراجه نحو نقطة التفتيش ليشرب الشاي مع الحراس وتُرك بيير يتمشّى بين الأنقاض. كان نحو عشرين من رجال الأمن الفلسطينيين بالزي الأخضر الزيتوني الرسمي يتجولون هناك، كانوا يحملون على أكتافهم بنادق الـ AKM. متأنقين بشكل رائع: جزماتهم ملمّعة، وهندامهم لائق، وبنادقهم تومض لشدة العناية بها وتلميعها بالزيت.

شرع بيير بالتقاط الصور بعد أن تقدم من نقطة التفتيش الثالثة. اقترب منه جندي بهدوء وهو يوجه بندقية الكَلاشنِكوف نحو قدمي بيير. استمرّ بيير بالتصوير ولم يتوقف حتى ظهر في المشهد رجل بدين يرتدي بذّةً رسمية وهو في أواخر الستينيات من عمره، مبتسماً وتقدم باتجاه بيير حتى ملأت صورته العدسة. كان الرجل ودوداً ومؤدباً.

"مرحباً. هل لي أن أسألك ماذا تفعل في رام الله؟".

"أنا مصور".

"حقاً، أي نوع من المصورين. مصور صحفي؟".

"يُفترض أني مصور أزياء".

"ماذا يفعل مصور أزياء في مكان مثل رام الله؟". وفتح الرجل البدين ذراعيه مشيراً إلى الدمار والجنود وقال: "هل سنكون موديلاتك؟".

ضحك الاثنان.

قال بيير "لا، ليس الأمر كذلك، أنا أبحث فقط عن صور جيدة. لست متأكداً ماذا سأفعل بها في الحقيقة".

الرجل البدين الأصلع ذو الشارب المضحك، قدّم سيجارة لبيير الذي رفضها وعاد إلى التقاط الصور. لم يتحرك الرجل البدين من أمامه، لذلك سأله بيير، "ماذا تعمل؟"

"أنا اعمل هنا". أشار الرجل مرةً أخرى بشكل عام إلى أكوام الحجارة وإلى الجنود الذين أحاطوا بهما. "أريد أن أتأكد من أن كل شيء على ما يرام... لقد التقطت الكثير من الصور. لماذا تحتاج المزيد منها؟"

"يمكن أن أبيعها-لا أعرف بالحقيقة ربما أستطيع نقل قضيتكم".

"وأي جزء من قضيتنا؟" تغيّرت نبرة صوت الرجل البدين. وبدا أن الأمر لا يسير بسهولةٍ كما كان في البداية، أصبح أقل وداً بشكل واضح. "ربما عليك أن تتوقف عن التصوير للحظة".

كان بيير يسمع صوت محرك الطائرة الإسرائيلية القاذفة – المقاتلة وهي تمرّ من فوقهم.

"هل لديك بطاقة هوية تشير إلى تخصصك، يمكن أن أراها؟"

كل ماكان لدى بيير هو بطاقة مصور صحفي من المكتب العسكري

الإسرائيلي في القدس، يسمح له بعبور خطوط الدفاعات الإسرائيلية والدخول إلى المناطق الفلسطينية. وقرر بدلاً من إبرازها أن يتحسس في جرابه حتى يجد جواز سفره. وأعطاه للرجل البدين الذي كفّ عن اللهو واكتسى بالجدية.

"فرنسي؟" بدأ المزيد من الجنود بالتوافد، وصادف أن الجميع يوجهون بنادق الكلاشنِكوف نحو أسفل ساقي بيير. "أين وُلدت؟"

"قرب نانتس".

"هل سبق أن زرت فلسطين سابقاً؟"

"كلا، فقط إسرائيل".

"أين؟"

"مرة واحدة في تل أبيب لالتقاط صور".

"صور للأزياء؟"

"نعم"

"هل كنت في إسرائيل هذه المرة؟"

"بالتأكيد - مررت بإسرائيل كي أصل إلى هنا. يجب عليك أن تصل إلى تل أبيب. ليس هناك طريق آخر للأجانب للدخول إلى الضفة الغربية الآن".

"نعم". أخذ الرجل جواز سفر بيير ودفعه نحوه. نقل بيير وزن جسمه من قدم لأخرى، غير متأكد من أن عليه أخذ الجواز أم لا. أصبح الآن داخل دائرة من ستة جنود بالإضافة إلى الرجل البدين، ثم تقدم نحوهم جنديان آخران. ماذا يمكن أن تكون قضيته؟ ما الذي يفعله مصور أزياء في الضفة الغربية؟ بدأ بيير يشعر بقليل من القلق. وبالرغم من أن الرجل البدين لم يصدر أمراً للجنود إلا أن حلقتهم ضاقت من حوله.

سأل الرجل البدين، "كيف وصلت إلى هنا؟"

"بسيارة أجرة". ونظر بيير من فوق كتف أحد الجنود الذين يقفون على مقربة منه ليرى السائق الذي يلوح من سقيفة نقطة التفتيش فشعر بالارتياح. "هو من أقلني إلى هنا. ذلك السائق الجالس هناك". اقترب السائق وتكلّم إلى الرجل البدين. ورغم أن بيير لا يجيد العربية إلا أنه أدرك أن السائق يعامل الرجل البدين بكل وقار. نظر الرجل البدين نحو بيير بينما كان يستمع إلى السائق، وهزّ برأسه وتحدّث إليه ثانية.

"إذن، أنت تقول الحقيقة. هذا حسن. آسف على إزعاجك. كل شيء على ما يرام".

قال بيير "نعم"، ولم يكن متأكداً بشكل تام كيف أن الأمور كانت جيدة في الواقع.

قال الرجل البدين: "استمتع بوقتك هنا في فلسطين، أتمنى أن تحصل على بعض الصور الجيدة هنا".

"شكرا"

"لكن عليك أن تكون حذراً، فلسطين بلد خطير". ما إن تكلم الرجل البدين بهذه الكلمات حتى أزاح الجنود بنادق الكَلاشنِكوف بعيداً عن ساقي بيير.

عندما عاد بيير إلى السيارة أدرك أنه كان يرتجف. نظر إلى قميصه ورأى أن العرق قد بلّله من سرته صعوداً حتى رقبته.

سأل بيير السائق قائلاً: "من كان ذلك الرجل؟"

"لقد كان من قوى الأمن الداخلي. يتأكد من أنك لست جاسوساً إسرائيلياً".

"كان محتملاً أن يكون الأمر سيئاً".

"نعم" قال السائق وهو يبتسم "سيئاً جداً. لكن أعتقد أنه كان يعبث معك قليلاً".

"لقد عبث معي جيداً".

قال السائق: "إنه رجل مهم".

"ألا تعتقد أن فلسطين بحاجة إلى رجال مهمين أقل وجنود أكثر في هذه الأيام؟".

ابتسم السائق ابتسامة باهتة قليلاً. "إنه جندي. لقد شارك في معركة الكرامة".

في الأسبوع الأخير من عام 1968 اتخذ محررو مجلة التايمز قراراً شجاعاً: لقد منحوا الغلاف الأمامي لصورة تضم رجلين من العرب. كان الأول قصيراً، يرتدي قميصاً أزرق من الصوف وبلوزة عسكرية يغطي عينيه بنظارة شمسية ويضع على رأسه كوفية فلسطينية. إلى جانب الرجل كتبوا عنواناً بخط غلاف بسيط "عرفات زعيم الفدائيين". أضاف الفنان الذي شكّل الصورة انبثاق رجل فلسطيني من رجال حرب العصابات من عاصفة رملية خلف عرفات، وهو يحمل بندقية كَلاشنِكوف على صدره. ظهر وكأنه يطارد عدواً غير مرئي. فوق صورة الرجل الثاني أضيف عنوان آخر: "الكوماندوس العرب قوّة التحدي الجديدة في الشرق الأوسط".

كان عرفات زعيماً لحركة فتح، وهي فصيل علماني اجتماعي ذو وزن كبير شكّل القسم الأكبر من قوات الفدائيين في منظمة التحرير الفلسطينية. كانت ابتسامة عرفات الساخرة في الصورة وبروز الكَلاشنِكوف الذي يستخدمه رجاله في حرب العصابات توحي بأن احتلال صورته غلاف المجلة جاء نتيجة نصر مؤزّر. لكن القضية كانت على النقيض: فقد خسرت فتح معركة للتو-كما

كان الفلسطينيون يخسرون المعارك منذ عشرين سنةً.

آخر هزيمة كانت في بلدة الكرامة الأردنية، التي وجدت نفسها في الخط الأمامي منذ أن احتلت إسرائيل الضفة الغربية في حرب الأيام الستة عام 1967. تأسست البلدة عام 1952 على أيدي اللاجئين الفلسطينين الذين شُرّدوا من ديارهم بسبب العنف الذي رافق نشوء دولة إسرائيل عام 1948. كانت بلدة الكرامة في البداية مجموعة من الأكواخ على الجانب الشرقي من نهر الأردن. لكن بحلول عام 1968 أصبحت بلدة للأعمال والصناعة، والأهم من هذا بالنسبة للإسرائيلين أنها تضمّ الهيكل الأساسي لقيادات فتح وقاعدتها. وهي القاعدة التي سيهاجمها الجيش الإسرائيلي. في حزيران من السنة التي سبقت ألحقت إسرائيل الهزيمة بقوات كل من سوريا ومصر والأردن مجتمعة، وبالتالي فقد العرب السيطرة ليس فقط على الضفة الغربية بل وعلى القدس الشرقية أيضاً. افترضت إسرائيل زيادة على ذلك أن الأردنيين سيقفون على الحياد عندما تقوم قوات الجيش الإسرائيلي بعمليات التدمير في الجانب الآخر من النهر.

كان الفلسطينيون والحكومة الأردنية يتوقعون الهجوم على قاعدة فتح في بلدة الكرامة منذ 18 آذار، عندما قام رجال فتح بتفجير باص مدرسة إسرائيلي، أدى إلى قتل طبيب وجرح سبعة أطفال. لكن في هذا الحدث لم يتّبع عرفات التكتيك القديم لحرب العصابات وإعطاء الأوامر لرجاله بالانسحاب لتجنب مواجهة القوات المتفوقة الإسرائيلية. وبدلاً من ذلك فقد قرر البقاء ومقاتلة الدبابات ببنادق الكَلاشنِكوف، معلناً ذلك على الملأ، "نحن نرفض الانسحاب".

في صباح يوم 21 آذار عبر نهر الأردن ما يزيد على أربعين دبابة وما يقارب الخمسين ألفاً من الجنود واندفعوا داخل بلدة الكرامة. كان القتال الدائر شديد الضراوة والوحشية. اعتقد الإسرائيليون أنهم كانوا يلحقون الهزيمة

المنكرة بالإرهابيين؛ أما الفلسطينيون فكانوا يقاتلون من أجل الكبرياء الوطنية. من وجهة النظر الفلسطينية كانت معركة الكرامة هي طريق الجلجلة والآلام في المعاناة المروّعة إلى جانب كونها فرحة النصر الاستثنائي. عندما دخلت القوات الإسرائيلية البلدة كان كل كوخ فيها وكل جدار وكل خندق يدافع عن نفسه حتى الموت، من قبل رجال حرب العصابات من فدائيي عرفات. عندما بدأ الفلسطينيون بخسارة الأرض بمواجهة الهجوم الإسرائيلي الضاري قام الجنود الأردنيون الذين لم يتحملوا الوقوف على الحياد متفرجين وهم يرون إخوانهم من العرب يُقتلون، بالانضمام إلى الفلسطينيين. كان الرجال يواجهون الدروع الإسرائيلية ببنادقهم بينما يأخذ آخرون أصابع الديناميت ويقذفون بأنفسهم وإياها تحت الدبابات. بعد أثنتي عشر ساعة من المقاومة العنيدة أُجبرت القوات الإسرائيلية على الانسحاب والعودة إلى الجانب الآخر من نهر الأردن.

من وجهة النظر الإسرائيلية عن الأحداث، لم يكن هناك انسحاب إجباري بل كانت هناك عملية ناجحة تمّ التخطيط لها من أجل تدمير مركز النشاط الإرهابي، وكانت السبب الوحيد في هروب عرفات الذي فرّ من البلدة في الليلة التي سبقت الهجوم الإسرائيلي.

لقد تلقت القوات الإسرائيلية إصابات بسبب تدخّل القوات الملكية الأردنية التي توقعت إسرائيل أنها ستبقى على الحياد بينما تقوم هي بإبادة رجال فتح.

أياً تكن الرواية الصحيحة. فالنتيجة الحقيقية لمعركة الكرامة كانت التدمير الكامل للبلدة وقتل ما لا يقل عن 150 من الفدائيين المقاتلين و138 من الجنود الأردنيين. وكان هناك أيضاً الدخان المتصاعد مما تبقى من عدد من الدبابات والعربات الإسرائيلية المصفحة يقدّر بإحدى عشر آلية، بالإضافة إلى 27 قتيلاً و60 جريحاً من الجنود الإسرائيليين. بعد عقدين من الهزيمة

المتواصلة إلا أن الفلسطينيين لم يكفوا عن إعلانهم من أن معركة الكرامة معركة فريدة من نوعها.

انتشرت وجهة النظر الفلسطينية عن الأحداث بسرعة، والعالم الذي كان مقتنعاً مسبقاً بأن العرب عاجزون عن هزيمة القوات الإسرائيلية، أصابته الدهشة. لم يكن من الممكن تصوّر أن الفلسطينيين المسلحين غير النظاميين والذين لا يملكون سوى بنادق الكَلاشنِكوف والديناميت يلحقون مثل هذا الضرر بالقوة الإسرائيلية المهاجمة التي يُفترض أنها لا تقهر. صار لدى الفلسطينيين صورة جديدة بكونهم شعباً يقاتل من أجل وطنه وليسوا مشكلة لاجئين. قال عرفات بعد معركة الكرامة: "طالما أن العالم لا يرى في الفلسطينيين سوى أناس يقفون بالدور أمام مساعدات الأمم المتحدة فليس من المحتمل أن يحترمهم. أما الآن وقد حملوا السلاح فإن الموقف قد تغيّر". أصبحت القضية الفلسطينية الآن تصبغ بحلة من أسفار الكتاب المقدس عن داود وجالوت، لكن بدلاً من المقلاع يحمل داود الكَلاشنِكوف. ومع ذلك، فإن النص الجديد للقصة القديمة تحمل اختلافاً كبيراً: فداود يخسر مرة تلو الأخرى.

في عام 2001 كان الفلسطينيون لا يزالون يتكبدون الخسائر. في الانتفاضة الثانية التي دامت عاماً كاملاً، وفي الوقت الذي كان فيه بيير يستأجر غرفة في بيت قرب التخوم الشمالية – الشرقية لمدينة رام الله، تطورت المقاومة من الصراخ الأصيل من الغضب واليأس نحو الكفاح المرير القاتل. وجد صديقي المصوّر العمل الذي يريده، لكنه قلّما كان رومانسياً. تحوّلت الثورة إلى حلقة مفرغة من الهجمات الفلسطينية الانتحارية والغارت الإسرائيلية على مخيمات اللاجئين وعلى البلدات التي نظّمت الانتفاضة. بدأت عمليات جيش الدفاع الإسرائيلي تتخذ طابعاً أكثر دمويةً. ولكي تتجنب الهجمات التي تقوم بها المجموعات الفلسطينية التي آلت على نفسها مقاومة أي هجوم

على المخيمات، تجنّبت القوات الإسرائيلية الحرب التقليدية التي ستخبئ لها المصاعب. حاصرت قوات الجيش الإسرائيلي الأماكن السكنية في الضفة الغربية بدبابات الميركافا، بينما كانت قاذفاته المقاتلة وطائرات الهليكوبتر من نوع الأباتشي تسيطر على سماء المنطقة، وتطلق الصواريخ بانتظام نحو الشوارع. وبمواجهة تقنية القرن الواحد والعشرين العسكرية المنظمة، استطاع الفلسطينيون أن يخوضوا المعركة ببنادق الـ AK، وقذائف الآر بي جي – وهي طريقة كلاسيكية للقتال استخدمت في اليمن، والصومال، والعراق ولبنان. تجبر قذائف الآر بي جي العدو على الخروج من مركبته، وتتكفل بنادق الكَلاشِنِكوف بتدميره حالما ينكشف أمامها. كانت طواقم الهليكوبتر محترسة من الطيران شديد الانخفاض فوق المخيمات: فرغم أن الأباتشي مصفحة من بطونها إلا أن قذائف الأر بي جي تستطيع أن تستهدف اشفار المروحة كما يمكن لرصاص الكَلاشِنِكوف المحظوظ أن يلعب دوراً في تدمير قمرة القيادة. وأفضل فرصة للفلسطينيين لكي ينزلوا بالإسرائيلين أفدح الخسائر كانت باستدراجهم إلى المخيمات حيث يتدنّى التفوق التقني الإسرائيلي كثيراً.

كان الجنود الإسرائيليون المثقلون بالأمتعة الشخصية يسيرون وراء الدبابات ولا يسرعون في الدخول إلى جنين أو رام الله، لأنهم يعرفون أنهم معرّضون للهجوم في متاهة من الأزقة حيث يكون الجانب الفلسطيني في وضع قتاليٍّ أفضل. فجميع الجنود الإسرائيليين كانوا يخشون الأزقة وبالأخص الأزقة الضيقة التي تشكل الأرضية الطبيعية القاتلة للمشاة. عندما أُبيد الفلسطينيون في مخيمات صبرا وشاتيلا خارج بيروت في عام 1982 كان حلفاء إسرائيل من المليشيات المسيحية اللبنانية هم من دخل إلى المخيمات وقاموا بقتل الفلسطينين ببنادق الكَلاشِنِكوف؛ وكانت الدبابات الإسرائيلية تسدّ مداخل المخيمات وتمنع خروج أي أحد من محيطها، وتسمح بالخروج فقط لمن دخلها من المسلحين المهاجمين بعد تنفيذهم المهمة. وهكذا

تعلمت القوات الإسرائيلية أن ترابط خارج المخيمات مرة أخرى، وتلتقط المقاتلين الذين يخرجون لمواجهتها وتقوم باغتيال قيادات الفصائل المسلحة بالهجمات الصاروخية والقذائف. كان بيير ينتظر من أجل أن يكتب قصته.

كان يتشارك الطابق الأول من الفيللا مع امرأة بريطانية في التاسعة والعشرين من عمرها تدعى ماري، وهي تعمل مع مجموعات نسائية في البلدة. في الطابق العلوي كانت غرف كل من هنري وسيلفستر وهما مصوران بلجيكيان مستقلان يزودان ستوديو تلفزيوني في القدس بالتقارير المصورة، عندما يتاح لهما الدخول إليها عبر طريق إسرائيلي يبعد عشرة كيلومترات إلى الجنوب. وللوصول إلى الفيللا بعد عودتهما من القدس كان عليهما أن يمرّا بساحة المنارة مركز مدينة رام الله - وهي عبارة عن تقاطع مروري ملتوٍ مزيّن بخمسة أسود كونكريتية، كل واحد منها يمثل واحدةً من العشائر الخمس الرئيسية في البلدة – بعد ذلك يتوجهان شمالاً من خلال ضواحي الطبقة الوسطى، قبل أن ينعطفا إلى جهة اليمين نحو زقاق غير نافذ على جانب التل المواجه لجهة الشرق قرب مستوطنة إسرائيلية في الجانب الآخر من الوادي. في مدخل الزقاق غير النافذ كان ثمة مراهق يفصفص البزر ويجلس على كرسي حديقة أبيض اللون من البلاستك أمام المكتب المحلي لفتح. كان فتى شديد الصرامة، ولتأكيد ذلك فقد وضع في حضنه بندقية AK. كان بيير يحييه بوقار كلما مرّ به. والفتى يرد التحية بإيماءة من رأسه، لكن نادراً ما كان يبتسم. لقد كان يقضي معظم وقته وهو ينظر إلى السماء منتظراً هجوماً صاروخياً إسرائيلياً.

في الشهر الثاني من إقامته انتقل بيير للسكن في الغرفة نفسها التي تقطنها ماري، وكان مكتب فتح قد استهدف بصاروخ مما أدى إلى تدميره وذلك ما قتل الحارس الشاب.

قال هنري لبيير: "من المحتمل أنه لم يرَ الصاروخ. إنها تصل أسرع من الصوت – إنها تضرب الهدف بعد ثواني من إطلاقها. وهي صواريخ ذكية – لا تقوم بنسف البناية، فهي تدخل من النافذة ومن ثمّ تفجّرها".

عندما نزل بيير عند المكتب لم يكن هناك أي أثر لجثة الشاب، ولكن الكرسي البلاستيكي لا يزال في الخارج إلى جانب بندقيته الكَلاشنِكوف. في المدخل الخرب للمبنى استطاع أن يجد فقط فرشاة تواليت محترقة وبعض الأوراق التي تشير إلى أنه لم يكن هناك أصلاً أي أحد في المكتب. صورّ بيير الحطام وباع الصورة إلى وكالة أميركية. في عام 2002 كانت صور البنايات المحترقة لا تزال تباع بشكل جيد.

التقط بيير المزيد من الصور في الأسابيع التالية. ومع ضخامة عدد وزارات حكومة السلطة الوطنية الفلسطينية في رام الله كان هناك عدد ضخمٌ من المكاتب الأمنية، كالمكاتب المختلفة للمسؤولين الرسميين ومكاتب قوات الحدود والجمارك ومكاتب ممثليات الأحزاب السياسية والحركات الدينية ومن ضمنها حركة حماس. جميع الرجال الذين يعملون في هذه الأماكن كانوا يحملون بنادق الـ AK؛ في الحقيقة، كان من المستحيل أن تمشي في أي مكان من البلدة من دون أن ترى واحدة. قالت ماري لبيير إنها لن تتفاجأ لو رأت كلباً وهو يحمل الكَلاشنِكوف في رام الله.

ذات صباح جلس بيير بجانب الأسود الخمسة في ساحة المنارة وعدّ ثلاث عشرة بندقية كَلاشنِكوف مرّت من أمامه خلال دقيقة واحدة؛ وكلما كان يحدث شيء؛ من الغارات الجوية الإسرائيلية إلى الملاسنات في الشارع، تجد حشداً من الرجال قد تجمهروا في الحال وهم يحملون بنادق الكَلاشنِكوف سوية وتصبح إمكانية وقوع مذبحة واردةً. حتى الازدحامات المرورية يمكن أن تتحوّل إلى مواجهات مسلحة. لقد شاهد بيير سائقاً يترجل من سيارته، ويتوجه نحو سيارة خلفه كان سائقها يطلق الزمّور، ويقوم بإفراغ مخزن ذخيرة

كَلاشنِكوف على غطاء محركها.

وجد بعض الصحفيين هذا الاستخدام الاعتباطي للسلاح أكثر توتيراً للأعصاب من التهديد بالهجمات الإسرائيلية، لكن بيير كان مفتوناً بالأسلحة. وعندما حلّ فصل الشتاء في الضفة الغربية توقف عن التقاط صور أكوام الحجارة والخرائب، وبدلاً عنها وجّه عدسة كاميرته نحو بنادق الكَلاشنِكوف. في الوقت نفسه بدأ كل من سيلفستر وهنري باصطحاب بيير معهما أينما ذهبا. أخذاه إلى قطاع غزة عبر إسرائيل لحضور جنازة اثنين من المسؤولين في فتح اللذين سقطا نتيجة استهداف صاروخ إسرائيلي لسيارتهما. شاهد في غزة كيف تمتلئ الشوارع بموكب مهيب ينبض بآلاف المتظاهرين السائرين خلف نعشين مكشوفين ينتقلان بشكل غريب مرفوعين بالأيدي فوق رؤوس الحشود. تلك الحشود التي ترفع صوتها بالهتاف وهي تهتف "بالروح بالدم نفديك يا فلسطين!".

كانت الحشود من مختلف الفصائل السياسية، يتدافع بعضها مع البعض الآخر تدافعاً هستيرياً، وثمة آخرون تجدهم أهدأ وينأون بأنفسهم عن التدافع. كان هناك الجيل الجديد المتباهي بنفسه من مُسلَّحي "فتح"، يمشون في كتيبة مثل كتلة صلبة في قلب الحشود شُكلت لغرض خاص، فهي تشق طريقها بمارش عسكري يضم ستة صفوف في العرض وعشرة صفوف في العمق. أمامهم تماماً وخلف النعشين كان هناك مقاتلون من الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، يرتدون قمصاناً سوداء اللون وبنطلونات فضفاضة سوداء هي الأخرى. يلفون حول رقابهم وشاحاً أحمر اللون طُبع عليه لوغو بالأحرف الأربعة من اسم الجبهة - كان هناك سهم على تخوم خارطة فلسطين في عهد الانتداب البريطاني تجرها نحو الحظيرة العربية يمثل العصيان المسلح (الكاتب هنا يتحدث عن لوغو أي شعار الجبهة الشعبية وينسبه إلى الجبهة الديمقراطية-م). كانوا يغطون رؤوسهم بقناع أحمر مع فتحات للعينين تمكنهم

من الرؤيا. لقد كانوا من رفاقهم، أولئك الذين يُحملون الآن في نعوش، فتراهم يتزاحمون بفضول خلفهم ملوّحين ببنادقهم الكَلاشنِكوف في الهواء. في الخلف كان هناك أربعون من مقاتلي حماس يضعون الوشاح الأخضر الذي يرمز للإسلام.

كان البعض ممن يسيرون مع فتح وحماس والجبهة الشعبية قد ولُدوا عندما صنع الفلسطينيون مقاومتهم الدامية في معركة الكرامة، لكنهم قد سمعوا عن النصر العظيم ضد إسرائيل عندما كانوا أطفالاً صغاراً. في طفولتهم كانوا يمثلون معركة الكرامة في الشوارع بأسلحة من الدمى، والآن يقدمون تراث المعركة عبر استعراضهم لبنادق الكَلاشنِكوف أمام الكاميرات. كانت الكَلاشنِكوف بالنسبة للمناضلين رمزاً للمقاومة الخالدة. بنادق الـ AK مرفوعة في الهواء، بنادق الـ AK تمسكها القبضات – التقط بيير مئات الصور لكن في جوهرها كانت متشابهة، لقطة واحدة مكررة: فلسطيني غاضب يحمل بندقية كَلاشنِكوف.

بالعودة إلى الفيللا في رام الله بعد يومين، نظر هنري بأسف نحو الصور التي التقطها بيير وعلقها في صف على الجدار ثم قال: "أعتقد أنك مهووس بالكَلاشنِكوف مثلهم يا بيير".

أجاب بيير "إنها كل ما لديهم. إنها تمنحهم الإحساس بالكرامة".

"هل رأيت أية كرامة هناك في الوقت الحالي؟ ماذا تقدمه بندقية كَلاشنِكوف الآن ما عدا الإيماءات الفارغة؟ ما زالوا مهزومين طوال الوقت. لا يزال بلدهم يتقلص يوماً بعد يوم. إنهم لا يملكون شيئاً سوى الموت".

جلب الشتاء الحقيقة التي جاءت بها كلمات هنري. الشعب الفلسطيني المنهك بهجمات الجيش الإسرائيلي جيئة وذهاباً، وبقصف مواقع للجهاد الإسلامي وحركة حماس بوحشية، قد وقع في حالة من اليأس. مجموعات

انتحارية تفجِّر نفسها في تل أبيب ونتانيا والقدس الغربية. في بادئ الأمر قامت الفصائل الإسلامية المتشددة بتنفيذ الهجمات، لكن سرعان ما أرسلت كتائب "شهداء الأقصى" التابعة لحركة فتح القنابل لكي يتم تفجيرها في النوادي الليلية والأسواق والبارات في إسرائيل.

أدت التفجيرات إلى مزيد من الهجمات الانتقامية على البلدات والمخيمات. أُجبر الفلسطينيون على مواجهة عجزهم، فحوّلوا غضبهم على أنفسهم. الأخذ في الثأر عمّ في الأثير، وجو من الريبة والخوف هبط نحو الضفة الغربية. أي واحد تحوم حوله الشكوك ويتهم بخيانته للقضية كان يُجرّ أمام حائط ويتمّ تصفيته. الأقاويل والإشاعات والحزازيات العائلية والخلافات المالية كل منها أدّى دوره، فرجال لم يفعلوا شيئاً أطلق عليهم الرصاص. وإذا كانوا من المحظوظين كان المسلحون يسمحون لهم بدقيقة يسلمون بها أرواحهم إلى باريها قبل أن يطلقوا عليهم النار.

في الليل يجلس بيير ليدخّن وقد جافى عينيه النوم ويقوم بتعليق الصور الملوّنة على جداره، متأملاً شكل بندقية الـ AK. كانت الخطوط المنحنية يتخذها شكل مشط الذخيرة والانحناءات الأنثوية تقريباً لمقابض اليد الخشبية متناسقة الأجزاء بشكل مدهش. لكن الجنازات والتظاهرات لم تكن كافية لبيير: كان يريد أن يكون حيث تطلق بنادق الـ AK النار على الإسرائيليين مفضلاً إياها على تلك التي يُلوّح بها في الهواء.

قد يكون الدخول إلى المخيمات سهلاً أو مستحيلاً. فليس لدى الإسرائيليين سياسة واضحة أو محددة فيما يخص الصحفيين: بعض المصورين يسمح لهم بالدخول، وآخرين يتم إيقافهم. يعتمد ذلك بشكل كامل تقريباً على حالة ومزاج الجندي الإسرائيلي الأعلى رتبة بين جنود الحاجز. ويعتمد كذلك على خبرة السائق الفلسطيني ومدى معرفته للشوارع المقفلة المتزايدة العدد. أولاً جنين ثم طولكرم فبيت لحم وحبرون التي قطّعتها القوات الإسرائيلية. بمثل

هذا النوع من السفر المقطع الأوصال كانت محاصيل الخضار الفلسطينية تتعفن في المخازن والعنابر، وتغلق المحال أبوابها وتواجه العائلات المستقبل القريب بلا دخل. والمسلّحون في الأزقة الضيقة ينتظرون القوات الإسرائيلية، مُدرِكين إنها لا بد أن تأتي في آخر الأمر.

في شهر شباط طُلب من هنري وسيلفستر أن يعودا إلى بلجيكا مدة شهرين، وقبل أن يعودا، قاما بتعريف بيير على رجل فلسطيني محنك له قدرة على إيجاد حلول لمشاكل التنقُّل يدعى سليم وهو بعمر الثانية والستين ويدخن بشكل متواصل، إنّه دائماً يعرف أي من الطرق مفتوحة وأي حواجز طريق يمكن له اجتيازها. كان يعتبر ذلك علامة على التخصص وعلى الكبرياء الوطنية، كونه يستطيع الذهاب إلى أي مكان يريد. كان يقول، "نعم، نعم، نستطيع الذهاب إلى طولكرم". إذا أوقفوهم كان لديه دائماً حلٌّ مفاجئ: "هناك طريق قديم يدور حول التل - طريق الماعز. سننعطف خلف التل باتجاه "أريحا" بعد ذلك نستدير مرة أخرى. مثل الماعز! عرف سليم الأحزاب والقادة. كان يتذكر الأيام التي كان فيها صبياً يجلب الشاي والسجائر للجنود البريطانيين أيام الانتداب. كان يسير في هذه الطرق عندما كانت تحت السيادة الأردنية، وعندما استولى عليها الإسرائيليون في عام 1967 كان لا يزال يشق طريقه فيها. لقد عرف سليم الطرق أكثر من غيره، تلك الطرق التي كانت تأخذ بيير دائماً إلى مواقع القتال.

في الساعة الخامسة صباحاً في أوائل شهر حزيران، رنَّ الهاتف المحمول لبيير. "أظن أن شيئاً ما سيحدث في جنين اليوم". للوصول إلى جنين قاد سليم سيارته المرسيدس القديمة بعيداً عن رام الله نازلاً نحو "أريحا في وادي الأردن. قبل أن يصل إلى أخفض بلدة على وجه الأرض انحرف عن الطريق السريع وسلك ممرّاً يقود إلى الشمال بموازاة جرف جوديان. سارا لمدة ساعتين وممرّا على رعاة من البدو يرعون قطعان من الأغنام، قبل أن ينعطفا أخيراً نحو اليسار ويسيران عبر وادٍ تكثر فيه البيوت البلاستكية.

تقع جنين، أكثر مدن الضفة الغربية اضطراباً، في أعلى الوادي. فقد دمرت إسرائيل البنية التحتية للسلطة الوطنية الفلسطينية في جنين، فأسرعت الفصائل الإسلامية لملء الفراغ بمسلّحيها. كانت الحالة هناك تعتمد على الثقة المهزوزة بين مختلف الفصائل ورجال "تنظيم فتح". كانت هناك معارك منتظمة بين المليشيات، وبطالة شبه كاملة تقريباً ما يعني أن البلدة كانت تغصُّ بالشباب الذين لا يستطيعون أن يحلموا بأكثر من الحصول على راتب بسيط من خلال الالتحاق بالمليشيات. فليس من الغريب بعد ذلك أن يكون الجو مُثقَلاً بالخوف ومُنذراً بالشر.

أنزل سليم بيير عند مكتب صغير خلف موقف لسيارات الأجرة في وسط البلدة؛ وهنا استقلَّ بيير سيارة أخرى انطلقت به مسرعةً مدة خمس دقائق نحو مخيّم يسمّى المقاطعة توقفت خلالها عدَّة مرّات على طريق شديد الانحدار، يؤدي إلى حافة الجرف الواقع خلف الجهة الجنوبية من جنين. تتخذ قوات جيش الدفاع الإسرائيلي مواقع لها في أعلى التلال المطلة على البلدة وعلى كامل القطاع الشمالي للضفة الغربية نحو تلال الجليل. لكن المواقع الإسرائيلية متراجعة عن حافة السلسلة ولا يستطيع الجنود رؤية أي شيء - أو أي شخص تحتهم بشكل مباشر. كان الصعود عبر شوارع المخيم شديدة الانحدار يسهِّل للمقاتلين الوصول إلى التل ولا يكتشف الجيش الإسرائيلي وجودهم قبل أن يباشروا - أي المقاتلين - بإطلاق النار.

كان قد تمَّ أخذ بيير إلى بيت صغير من الحجر والإسمنت عند سفح التل وهناك تعرف على ثلاثة رجال في منتصف العشرينات، هم حسان، وحسني وعلي، إضافةً إلى رجل رابع كان أكبرهم سناً وأنحفهم قداً، يدعى جبريل. كانوا يرتدون الزي العالمي للتمرُّد – أعني الجنز. مع الـ "تي شيرت" والأحذية الرياضية - وكانوا يغطون رؤوسهم: كان جبريل يتلفع بوشاح حول وجهه فيما يضع الباقون أقنعةً سوداء. كان من الواضح أن جبريل هو زعيم المجموعة،

كان يتنفس بتثاقل لكن بهدوء - رجل يستعد للدخول في معركة. كان الرجال الثلاثة الباقون يتأكدون من وضع مخازن الذخيرة في مكانها الصحيح.

تحدّث جبريل إلى بيير باللغة الانجليزية. "إذن، أنت تريد البقاء معنا؟ ابقَ خلفنا على مسافة لكن على الجانب الآخر. فلو كنت وراءنا مباشرة فسيطلق الإسرائيليون عليك النار. وإن سرت أمامنا قد تتعرض لنيراننا".

بدأ الرجال خطواتهم السريعة في الأزقة الصاعدة إلى قمة التل. لكن مع تقدمهم بدأوا ينحنون بمشيتهم لكي يتجنبوا الرصاص الذي بدأ ينطلق على السطوح في الأزقة. أعطاهم جبريل الإشارة بالتقدم بشكل أسرع، يربضون ويركضون في الوقت نفسه. بينما ضاعف بيير انحناءه وكان يسعى جاهدا لمجاراتهم في التقدم فبدأ بالتقاط الصور. كانت الضجة والحرارة وصوت أنفاسه اللاهثة قريبة منه الآن، ثم سمع دوي إطلاق النار النصف الآلي للكَلاشنِكوف. نجحوا في تسلقهم الطريق المنحدر عبر الأزقة التي صادفوا فيها مجموعات أخرى من رجال كانوا جميعاً في طريقهم إلى مصدر صوت إطلاق النار. كان الجميع يحملون بنادق AK، على الرغم من أن عدداً قليلاً جداً منها فقط كانت متماثلة. لكن كانت هناك بنادق الـ AKM وبنادق صينية من طراز 56 ونسخ عراقية ومصرية، مع نسخ معدلة يوغسلافية وتشيكية وحتى نماذج "الجليل" لبنادق كَلاشنِكوف، وهي النسخة التي طورها الإسرائيليون بعد أن أسرت قوات النخبة المظلية في الجيش الإسرائيلي جنوداً سوريين مع بنادقهم خلال الصراع الدامي على مرتفعات الجولان في العام 1973.

كان بيير مُلماً برائحة الزيت الذي يشحّمون به الأسلحة، وكثافة الجو، وأصوات الرجال الذين يتمتمون بصلواتهم بأنفاسهم اللاهثة، وبالملامح التي ترتسم على وجوه النساء والأطفال، المطلّين على المشهد، من النوافذ وفوق ذلك كله من بندقية الـ AK نفسها. ثم بدأ الزقاق يأخذ شكل مسطح؛ فقد وصلوا إلى أعلى جزء في المخيم، فوقهم الآن هناك فلل منعزلة، وخلف ذلك

أرض ذات أشجار صغيرة تغطي ذروة التل. عند الحافة القريبة للمخيم كان هناك خمسة وعشرون رجلاً تجمعوا في مخبأ. وكان الكثير منهم يطلق النار، لكن بيير لم يكن يفهم ماذا يجري؛ فهو لا يستطيع أن يرى أي إسرائيلي. لكن جبريل استطاع.

"انظر، انظر هناك" أشار جبريل من خلال شجيرة نحو الهوائي الذي يكشف الموقع الإسرائيلي. "لديهم دبابات منتشرة على طول القمة، لكنهم لا ينزلون التل من هنا. فهم يحاصرون البلدة من كل الجهات، لذلك عندما يريدون سيدخلونها من الأسفل. من هذا الموقع يقطعون علينا الطريق عندما يهاجموننا من أسفل المخيم. إنهم أشبه بسدادة القنينة، وفي بعض الأوقات علينا أن نهزّ القنينة إلى الأعلى – لكي نضغط على السدادة". ضحك جبريل وكأنه يهزّ قنينة. بعد ذلك، بدا وكأنه رجل يدق الجرس في بار ليطلب خدمة، رفع بندقية الكَلاشنِكوف فوق رأسه وأطلق النار رشاً آلياً لفترة قصيرة.

وفي الحال قام رشاش ثقيل بالرد وفتح النار من الموقع الإسرائيلي، وتفجرت الأرض والجدران من حول بيير بشظايا من الحجر فتصاعد الغبار. ثم اندفع يبحث عن مخبأ فسقطت منه كامرته. عندما انبطح على التراب وهو يكافح كي يستعيد السيطرة على زمام الأمور ويتخلص من خوفه، أدهشته رؤية مجموعة من الفتية، دون سن المراهقة، وهم ينطلقون من المخيمات ويشرعون بالصراخ ويرمون الحجارة على الإسرائيليين الذين لم يستطع بيير رؤيتهم بعد.

توقف الرشاش عن إطلاق النار وتسلق بيير ليسترد كامرته وبدأ بالتقاط الصور للفتيان. ظهرت مقدِّمة ناقلة جنود إسرائيلية مصفحة من بين الشجيرات على بعد مائة متر منهم وأطلقت رشة من رشاشها الآلي ناثرة الرمال أمام الأطفال، الذين عادوا راكضين نحو المخيم. بعد ذلك وقف جبريل وبدأ يطلق النار سانداً البندقية على خصره. حاول بيير أن يلتقط

صوراً، لكن كثافة النيران والضجيج جمّداه وأرجعاه إلى الوراء نحو الجدار. أجبر بيير نفسه على النظر من فوق الجدار مرة أخرى من دون أن يصدّق ما رأى. لقد كان ذلك جنوناً. بمجرد افتراضه أن الرجل قد تعرض لإصابة، فإذا بجبريل يقفز عائداً خلف الجدار.

كان يلهث قائلاً "هذا يكفي، انتهت المعركة".

في طريق العودة إلى رام الله كان بيير يحتضن كامرته فسأله سليم فيما إذا تمكن من الحصول على ما يريد.

"أعتقد ذلك" لقد تذوّق بيير طعم الحرب في المخيمات.

بعد بضعة أشهر، وفي صباح يوم عاصف بالرياح شديدة البرودة من أيام شباط، خرجت ماري لتشتري بعض الخضار الطازجة. وفي طريق العودة إلى الفيللا وهي محاطة بآخرين عائدين إلى بيوتهم لتحضير وجبة الغداء المكوّنة من ألياف البيتة (نبات تُتَّخذ من أليافه الحبال. م) الطازجة والخس، اعتراها إحساس مفاجئ ومخيف بتوقُّف الزمن. كل من كان حولها توقف رافعاً رأسه، محدّقاً، بشكل واضح بالشبح الذي ظهر في السماء. تبعت ماري نظرات الحشود المحدقة نحو نقطتين سوداوين تحوم وترتفع ثم تنخفض فوق البلدة. حملت الرياح بعض الغبار إلى عينيها فنظرت إلى الأسفل وهي تحاول أن تمسح ما علق بها بمنديل ورقي. عندما نظرت إلى الأعلى مرة أخرى كانت النقطتان السوداوان أقرب وتعرفت على طائرتي الهليكوبتر من نوع الأباتشي، التي تشبه الدبور. لقد بطل مفعول السحر وبدأت النسوة بالصراخ على الأطفال ليبتعدوا عن الشارع ويدخلوا البيوت. ظهر رجال مسلحون، لا يُعرَف من أين، وهم يومئون نحو السماء. استمرت طائرتا الهليكوبتر تحومان، من دون أن يبالي من فيها بحالة التشوش والرعب الذي تسبب على الأرض.

على الرغم من حالة الذهول التي أصابت ماري إلا أنها بدت وكأن قدميها

راسختان في الأرض. كان الجميع أيضاً إما يبحثون عن مخبأ أو يصدرون الأوامر بصوت مرتفع، هي الوحيدة التي بقيت ثابتة وصامتة. رأت طائرتي الأباتشي معاً فوق الجزء الشمالي من البلدة وأدركت ماذا سيحصل تماماً. أطلقت كل واحدة منهما صاروخاً. بشكل غريزي تابعت ماري مسار الصاروخين وعبرت بنظرها رام الله نحو بيت في سلسلة التلال على الجانب الشرقي للبلدة.

ورأت الصاروخين كليهما يدخلان الشباك نفسه في الطابق الأرضي. كان هناك صوتان مدويّان، ووميض خاطف بلون برتقالي ساطع قبل أن ينفجر الزجاج ويتناثر. وبعد بضعة ثوانٍ انهمر دخان أسود من النوافذ المحطّمة والسقف المهشّم، بعدئذ تمّ شفط الدخان بحالة من الامتصاص إلى الداخل وبدا كأنها أخذت معها الضجة أيضاً. في غضون ثلاث دقائق كان جَمَلة الكَلاشنِكوف من المسؤولين في مختلف الحركات المُسلّحة وفروع الأمن يسدون المنافذ حول المنزل المحترق.

تبع ذلك العويل والصراخ، وبدأ الناس يطلقون النار من بنادقهم نحو السماء. خرج من الحطام رجل يحمل ذراع انسان.

كانت ماري تنتحب باكية عندما رجعت إلى الفيللا. وكان بيير يرتب الصور، يضع الكَلاشنِكوف بمواجهة الكَلاشنِكوف، عندما دخلت إلى الغرفة، تهاوت على كرسي وهي تنشج بالبكاء "إنها الفوضى. لقد تعرضوا للهجوم، وبدأوا يطلقون النار في الهواء. إنهم كالأطفال".

حضّر لها بيير الشاي الأسود وأشعل لها سيجارة، فهدأت ماري رويداً رويداً.

إنها ليست مأساة، إنها الفوضى. لماذا يقفون هناك بأسلحتهم، ويطلقون النار؟ إلى ماذا سيؤدي ذلك؟ لو كان لديهم حس بالمسؤولية لكان من الممكن أن يفعلوا شيئاً. ما المقصود من إطلاق نيران أسلحتهم في الهواء

بعد أن غادرت طائرات الهليكوبتر؟ كل هذا التدفق لرصاص بنادق الـ AK - كررت إنهم كالأطفال.

قال بيير "إنهم يفعلون ذلك ليخرجوا الناس من بيوتهم".

ردت ماري "لكن هذا جنون، إنه يجعل الأمر أسوأ. ستزدحم الشوارع بالجموع ويتعذر على سيارات الإسعاف الوصول إلى المنزل المنكوب".

إنها جزء من مقاومتهم، وتعلن عن تحديهم. إنهم يقولون عبرها، "لا يمكنم أن تهزمونا. ثورتنا أقوى من صواريخكم وأسلحتكم".

"لكنهم على خطأ".

"بالنسبة لنا، ممكن، لكنهم لا يتوقعون أن ينتصروا في هذه الحرب بعد الآن. حتى إنها ليست مسألة حرب بالنسبة لهم - إنها مجرد مسألة كيف يعيشون والكَلاشنِكوف بين أيديهم. لا أعتقد أن بإمكانهم التصور أن الأمر سينتهي الآن. لماذا ينتهي؟ كل سنة يخسرون كسرة صغيرة، كل سنة يعاقبون لأنهم على قيد الحياة. كل ما يقدرون عليه هو محاولة التأثير على الطريقة التي يخسرون بها. فهم لا يكفّون عن الغضب. هذا ما تعنيه كلمة فلسطيني الآن".

"لذلك يهدرون الرصاص بإطلاق النار في الهواء ويتركون شوارعهم تغرق في الفوضى. كيف يخدمهم ذلك؟ إنه يخدم الإسرائيليين".

"قد يبدو التلويح بالأسلحة على أماكن مقصوفة بالقنابل ضرباً من الجنون. لكن البنادق هي كل ما يمتلكون وهي ما يؤكد القول إنهم غير مهزومين تماماً؛ فهم رجال والفلسطينيون شعب".

قالت ماري "أظن أنهم يعبثون، فهم مضطربون للغاية ويمكن أن يحولوا بنادقهم إلى صدور بعضهم".

أومأ بيير برأسه قائلاً: "لا أظن أنك ستعيشين في هذا الهراء كل حياتك

من دون أن تقتنعي به".

قال هنري، الذي كان يتفرج صامتاً، "ربما".

بعد الهجوم الصاروخي احتاجت ماري الخروج بعيداً عن رام الله. أخذها بيير إلى تل أبيب لمدة أسبوع لتناول حبوب الإكستازي وهي تتجول بين النوادي التي كان قد زارها عنما كان مصور أزياء. أقاموا في فندق فاخر محاذٍ لشاطئ رملي، وقد تذكّر مدير الفندق بيير فأعطاهم أفضل جناح. أقرَّ له بيير قائلا: "علمنا ونحن نتجوَّل في الردهة أنّ هناك الكثير من الغرف غير محجوزة". أمضى الاثنان أربعة أيام وهما يتناولان الإكستزي، ويتأملان غروب الشمس في البحر الأبيض المتوسط، ثم يمضيان الساعات الطويلة في الرقص على الشاطئ وينامان طوال فترة الصباح. لكن، كما المخدِّرات كذلك السرور سرعان ما يتلاشى لدى بيير. فبينما كان مستلقياً على الرمال، يشعر بدفء الشمس على ظهره، خطرت في ذهنه صور لـ "تنظيم فتح" وبنادق الكَلاشنِكوف وجبريل. في اليوم الخامس ترك ماري في جناح الفندق ورجع إلى رام الله.

قبل أن يتمكن بيير من العبور عائداً إلى الضفة الغربية، كان عليه أن يقوم بزيارة إلى القدس لتجديد البطاقة الصحفية من الجيش الإسرائيلي. المرأة المتوسطة العمر، التي تعامل معها لإنجاز معاملته، في المكتب الصحفي للجيش الإسرائيلي في شارع هلال في وسط القدس، كانت ذات مزاج نكد ومن اللواتي يرَينَ تقديم احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة على أنّه عملية ضرورية لتطبيق القانون.

كان هناك أربعة صحفيين آخرين في الغرفة، والجميع ينتظرون تجديد بطاقاتهم. كان يمكن أن تكون العملية شكلية أو تجعل منها هذه المرأة مهمة صعبة لأن الصحفيين كما تتصوَّرهم من المؤيدين للفلسطينين، وهو ما أوجب شمول الأربعة الذين سبقوا بيير في الحضور بذلك، لأنه ظل ينتظر

مدة ساعة ونصف حتى سمحوا له بالدخول إلى المكتب.

كانت المرأة تحتفظ أمامها بعدد من قصاصات الصحف وصور مستنسخة لجرائد ولمواقع إنترنيت. في الجانب الذي يقابله من الطاولة استطاع أن يرى ذراعي جبريل وبندقيته في لقطة لصورة كان قد باعها لمجلة فرنسية للأخبار.

قالت المرأة "عليك أن تنتبه إلى من ترافق. يبدو أنك مقرب جداً من الإرهابيين".

"أنا أعمل بجد لكي أحصل على صوري".

"ماذا عن بعض الصور عن جانبنا؟".

"توجد صورة عنهم هنا" أشار بيير نحو صورة لدبابة ميركافا كان قد التقطها لها وهي تتقدم نحو جدار حديقة. كان الدخان المنطلق من مؤخرتها كثيفاً عندما أدار السائق محركها بأسرع ما عنده ليخرج من موقعه المنعزل.

"كلا. أنا أقصد التقاط صور من جانبنا، بذلك يستطيع العالم أن يرى ماذا يحدث لأبنائنا".

"إنها مهمة صعبة. فأبناؤكم يطلقون عليّ النار دائماً".

"حسناً. عليك أن تكون حذراً". ابتسمت المرأة لأول مرة وختمت على ترخيصه.

ذهب بيير إلى جنين مباشرة ليعثر على جبريل ويطلب منه أن يتخذ وضعية جدية من أجل أن يلتقط له صور شخصية مع بندقيته. كان جبريل يفكر بأنه ليس من المناسب بالنسبة لمقاتل أن يقف أمام الكاميرا لمجرد أن يكون بورتريه، لذلك رفض أن يتخذ وضعاً ثابتاً أمام الكاميرا. لكن الرجال الآخرين كانوا أصغر سناً وأقل صرامة ويحبون جلب الانتباه. تدريجياً سمح جبريل لنفسه أن يظهر في لقطةٍ في غير وضعية القتال الفعلي، لكن بوجه مغطى على

الدوام. فالقائد هدفٌ للإسرائيليين في أي وقت إذا ما أقدم أحد المخبرين على إفشاء سره، فكان من الضروري ألّا يحصل العدو على صورة لوجهه. إذا كان بيير بارعاً في مهنته بما يكفي فمن الممكن أن يتسبب بقتل جبريل.

هذا ما أضحك بيير فقال: "لكنك تجعل نفسك هدفاً في كل وقت تقاتل فيه الإسرائيليين. أنت تقف أمامهم وتلوّح ببندقيتك. كيف لك ألّا تكون هدفاً أكثر من ذلك؟".

رد جبريل بالقول: "لم أكن أنا - إنه مقاتل فلسطيني. هم لا يعرفون أين يعيش هذا المقاتل ولا يعرفون أسماء أخواته، وعماته، وأمه وأبيه أو أبناء عمومته. وهم لا يعرفون أياً من البيوت يدمرون. رجاء لك يابيير ألّا تصوِّر وجهي". ولذلك أبقى جبريل وجهه مغطى بالكوفية بينما يكمل بيير التقاط الصور.

أمضى بيير ليلته في جنين، نائماً على فرشة مُدّت على الأرض. جلس لوقت متأخر يتجادل مع جبريل، الذي دافع عن حق الفلسطينيين بالمقاومة: "نعم هناك إرهاب ووحشية تمارس باسمنا. لكن من يتحدث عن دمارنا وخسائرنا وإذلالنا؟" تحدّث جبريل بهدوء وبغضب شديد، لكنه لم يصرخ ولم يكن مهتاجاً. لم يكن بحاجة إلى الصراخ؛ فكل مسام في جلده، وكل بوصة من كيانه كانت تشهد على مدى غضبه. كم من المعاهدات قد وقّعت مع دولة إسرائيل. لكنها لم تستطع تغيير مواقف جبريل والرجال الذين من أمثاله؛ فالنسبة لهم، الحرب لا يمكن لها أن تنتهي. كان جبريل تعبيراً عن الكفاح الفلسطيني بكل نبله ويأسه المطبق.

لقد تطوّرت هواجس بيير الخاصة. عندما جاء بعض الزوار إلى الفيللا قام بعرض عمله عليهم. وراح صديق ماري، وهو صحفي بريطاني كان في طريقه إلى طولكرم الواقعة تحت سيطرة حماس والتي كانت ترسل الانتحاريين لتفجير

أنفسهم داخل إسرائيل، يتامّل الصور المعلقة على الجدار، بينما كان بيير يجهز إبريق الشاي.

"جميع صورك عن الشيء نفسه".

"ماهو هذا الشيء؟"

"كل اللقطات عن بندقية الـ AK، وليس الرجل الذي يحملها. لماذا؟"

"بالنسبة لهؤلاء الناس البندقية هي الرجل. انظر، كل واحدة منها تختلف عن الأخرى". قلّب بيير الصور وهو يشير إلى الفوارق: "هذه كانت خارج جنين. هذا المقاتل لديه بندقية بساعد خشبي. لكن هذا الرجل كان قد اعتقل في رام الله. هل ترى ذلك، لقد انتزع الساعد الخشبي بشكل كامل من سلاحه لذلك فهو يستطيع أن يُخبِئه في جيب جانبي في باب سيارته ويسحبه من جيب سترته. إنه ليس جندياً، فهو شيء آخر - من الأمن الخاص".

أومأ الصحفي برأسه وقال "لم أكن أعرف أن الكَلاشنِكوف يمكن أن تعني الكثير".

ردّ بيير: "بندقية الـ AK تعني كل شيء هنا".

اشتدّ القتال حول المخيمات، وبدأ بيير يتعرض للمخاطر وهو يحاول أن يلتقط الصور التي يريد. كاد أن يتعرض للإصابة المباشرة عدة مرات، وفي أحد حوادث إطلاق النار، أطلق عليه أحد مقاتلي "التنظيم" النار فأصابه في كعب جزمته اليسرى.

ضحك جبريل طوال نصف ساعة وقال له: "أنت الآن بطل حرب!"

بعد هذه الحادثة بدأ المقاتلون يعتقدون بأن بيير واحد منهم، لذلك فوجئوا بابتعاد بيير لمدة أسبوع بعد مقتل حسني. كان بيير إلى جانب جبريل عندما حدث ذلك. فقد مزّقت بطن حسني رصاصة رشاش ثقيل وخرجت

من مؤخّرة عنقه، ساحبةً معها الكثير من الأحشاء الداخلية لهذا الشاب. بكى بيير وهو في طريق العودة إلى رام الله.

أوقف سليم السيارة في وادي الأردن، اتجه نحو صندوق السيارة وعاد بحقيبة بلاستيكية مليئة بالتين مع قنينة ماء. وأشار إلى بيير كي يجلسا معاً في الظل على جانب الطريق. عندما جلسا معاً بدأ سليم بالحديث. "انظر إلى هناك. إلى الجانب الآخر من الوادي". نظر بيير عبر الأرض ذات الشجيرات الخفيضة والرمال نحو التلال الأردنية على الجانب الآخر. "هناك جسر في الأسفل على النهر. سميّ جسر ألينبي على اسم الجنرال البريطاني الذي احتلّ فلسطين عام 1917. عندما طرد ألينبي الأتراك خارجها، دعا البريطانيون اليهود إليها. استخدم أحفاد اولئك اليهود جسر ألينبي لعبور نهر الأردن والهجوم على بلدة الكرامة". نظر سليم من فوق الوادي الجاف وقال: "لذلك فإن معركتنا العظيمة هناك، حيث بدأنا إيقاف التقدم الذي كان قد بدأه ألينبي، لكن في عام 1970 كنا قد طُردنا من الأردن. لم يقم بذلك الإسرائيليون وإنما الجنود الأردنيون. أرسل الملك حسين جيشه لقتل المقاتلين الفلسطينيين وطردهم إلى لبنان في شهر أيلول عام 1971. من هنا أخذت منظمة أيلول الأسود تسميتها".

أومأ بيير برأسه. لقد عرف كل التاريخ لكنه لم يكن قد سمع سليم – سليم المحظوظ الذي عادة ما يضحك على أي شيء، حتى على هجوم طائرات الهليكوبتر - يتحدث عن التاريخ من قبل.

عندما مالت الشمس في الوادي غطّت الظلال وجه سليم وسأل: "وماذا فعل رجال أيلول الأسود مع بنادقهم الكَلاشنِكوف؟"

"لقد اغتالوا رياضيين إسرائيلين في ميونخ".

"نعم، وعندما سقطوا صرعى في مهبط طائرات فورشتنبروك على يد

الشرطة الألمانية، ترك أحدهم ملاحظة كتبها على جسمه كوصية أخيرة وعهد. يقول فيها: "أيها الشعب الفلسطيني، لا تتنازلوا عن سلاحكم"، ونحن لم نتنازل عنه. ذهبنا إلى لبنان وإلى حرب أخرى. وفي عام 1982 قام الإسرائيليون بغزونا وضربنا مرة أخرى، وأخذوا بنادق الكَلاشنِكوف التي استولوا عليها ووضعوها في معرض في حديقة عامة قرب تل أبيب، مع أكشاك الآيس كريم وسلّطوا عليها الأنوار الكاشفة لكي تستطيع العوائل أن تتمشى بين الأسلحة وتتيقن من أن "الإرهابيين" الفلسطينيين قد هُزِموا في آخر الأمر. وبعد نهاية المعرض المقام في الحديقة أعطى الإسرائيليون بنادق الكَلاشنِكوف إلى السي آي أي، وأرسلتها السي آي أي في بواخر للشحن إلى باكستان. في ذلك البلد كانوا يضعونها في صناديق ويحملونها على البغال، وينقلها الباكستانيون عن طريق الجبال إلى أفغانستان لتصل إلى يد المجاهدين لمقاتلة الروس. كان الكَلاشنِكوف الأول الذي حمله أسامة بن لادن سلاحاً فلسطينياً تسلّمه من الأميركيين ومدّه به الإسرائيليون". بعد عودته إلى الفيللا طرح بيير بنطلونه على الأرض. كان عليه آثار دماء حسني، وقد تحوّلت من اللون القرمزي إلى اللون الأحمر الداكن، وتقريباً إلى الأسود في الأماكن التي كانت الدماء فيها كثيفة. كانت هناك لطخات أخرى، صفراء وزهرية اللون كانت مفزعة أكثر من الدماء.

بعد بضعة أسابيع، في الأول من نيسان، استدعى بيير سليم في ساعات الصباح الباكرة.

كان سليم يبذل جهداً كبيراً لكي يتنشّط، وكان بمزاجٍ سيء عندما نهض أخيراً والتقط الهاتف بتثاقل. "لقد كدت أن توقظ أحفادي، يابيير. ماذا تريد في هذه الساعة من الليل؟"

"أريد الذهاب إلى جنين".

"لم يحدث شيء في جنين اليوم. أريد أن أسمع عن شيء ما".

"اسمع سليم، أريد أن أكون هناك".

"حسناً، عليك أن تنتظر مدة ساعة. فأنا لا أكسر حظر التجول وأريد أن آكل أولاً".

كان سليم هادئاً في قيادة السيارة، على رغم أنه تنازل عن إصراره بأن لا شيء سيحدث في جنين عندما وجدوا أنها مُغلقة. حتى في الساعة السابعة صباحاً كان هناك صفٌ طويلٌ من الناس يقفون عند نقطة التفتيش التي تبعد مسافة خمسة كيلومترات، يحاولون الدخول ليبيعوا محصولاتهم من الخضار هناك.

مشى سليم وبيير مائة متر ليتقدما الصف عندما كان ضابط إسرائيلي شاب يأمر حشد المزارعين الغاضب بالرجوع إلى الخلف.

تساءل بيير: "ماذا يجري؟"

أجابه جندي بحدّة "لا أحد سيدخل اليوم، ما شأنك أنت؟ لا يمكنك الدخول".

تقدم سليم مبتسماً. وكان يخبئ شيئا ما في راحة يده: "سيدي، نحن ذاهبون لرؤية عائلتي. هل يمكن أن ندخل رجاءً؟"

كان الغضب والخوف يتراقصان على وجه الجندي الشاب. "أعتقد أني قلت لك: لا أحد سيدخل".

قال سليم "حسناً، شكراً، أيها الضابط. يسعد صباحك". والتفت إلى بيير. "تعال، سنذهب إلى البيت. اليوم ليس يوماً ملائماً".

لكن بيير كان يقف في مكانه ونظر في عيون الضابط. "وماذا عن كل هؤلاء الناس؟ ماذا سيفعلون بخضارهم؟"

"ما شأنك أنت؟ لن أسمح لك بالدخول".

"إنهم يتضورون جوعاً".

بدأ جنود إسرائيليون آخرون جميعهم من الشباب الذين يضعون نظارات شمسية، يطوفون حول بيير.

زجر الضابط على بيير قائلاً: "لا تفتعل مشاكل هنا، وإلاّ اعتقلتك واحتجزتك لمدت ثمان ساعات في مؤخِّرة سيارتنا. أنا لا أعبأ بالجهة التي تعمل معها. ماذا تفعل في بلدي؟"

"بلدك؟"

جذب سليم بيير من ذراعه وألح عليه. "تعال، تعال إلى هنا".

عادا إلى السيارة وقادها سليم مدة خمس دقائق حتى دار حول منعطف في أسفل التل فصارا بمنأى عن نظر نقطة التفتيش. ثم نحى السيارة عن الطريق وأطفأ المحرك، ثم رفع هاتفه المحمول واتصل بأحدهم، تحدّث بطريقة سريعة لمدة خمسة دقائق باللغة العربية. ثم أدار محرك المرسيدس وانطلق بها.

"هناك طريق. لكنه محفوف بالمخاطر. هل تريد أن نجربه؟"

"بالتأكيد".

سارا إلى جهة الشرق مدة عشرين دقيقة قبل أن ينعطفا إلى الجنوب عند شجرة زيتون ميتة نحو طريق ترابي. ثم وخلال عشرين دقيقة أخرى وصلا إلى مجموعة من البيوت البلاستكية الممزقة التي كانت تستخدم لاستنبات الطماطم، والتي تمزقت أغطيتها البلاستكية وتناثرت عن القضبان الفولاذية. مشى سليم وبيير خلفَ الخرائب حيث كانت هناك حافلةٌ صغيرة متوقفة وكان محركها يدور.

كان السائق يحمل على وسطه مسدساً ظاهراً للعيان تحت حزامه، واستحث بيير على الركوب قائلاً:

"يلّلا. يلّلا!"

قفز بيير في الحال إلى داخل الباص المكتظ بصنايق بلاستيكية مليئة بالبرتقال. فأطلقت النسوة الأربعة المحشورات في مؤخرة الباص ضحكتهن من طريقة بيير بالقفز، فقد كن يرتدين الزي التقليدي.

ضرب سليم براحته على النافذة بقوة: "كن حذراً".

رجع السائق إلى الوراء لينعطف من بين الشجيرات نحو شارع يؤدي إلى حقول مواجهة لمخيم جنين. ثم تمكنوا من رؤية طائرة أباتشي كانت تحوم فوقهم بشكل دائري. أمسك بيير بالمقعد الذي أمامه خائفاً. أما النساء فكن لا يزلن يضحكن على قفزة بيير وسقوطه على الكرسي، ويتحادثن مع بعضهن بلا أي شعور بالقلق، لكن السائق أنزل زجاج النافذة ونظر إلى الطريق الترابي الوعرة التي تنذر بتدمير نوابض السيارة.

بعد ربع ساعة من التوتر والارتطام بكل شيء في الطريق الترابي وصلت الحافلة الصغيرة إلى قلب جنين حيث وجدوا الفوضى الشاملة وسيارات الإسعاف في الشوارع تطلق صفاراتها، والنساء يتراكضن في الطرقات وهنَّ عائدات إلى بيوتهنّ بعد شراء المواد الغذائية من بضعة حوانيت كانت لا تزال تفتح أبوابها، وكان يُسمع أزيز الرصاص بشكل مُطّرد من مخيم اللاجئين المحاذي للتل. تجنّب بيير الدخول في الأزقة الضيقة وفرّ صعوداً نحو التل. كان قريباً من القمة عندما صمتت أصوات الأسلحة الهجومية بعد أن غطّى عليها انفجار مدوّ هزّ الأرض وارتجّت بفعل قرع الجدران في الأزقة. سقط بيير على الأرض وتدحرج نحو زاوية؛ فهو لم يسبق له أبداً أن سمع بمثل هذه الانفجارات للقذائف الثقيلة. وجاهد لكي يلتقط أنفاسه التي مصتها من

صدره الموجات المهتّزة. بعد عدة دقائق قضاها وهو يلهث في الغبار، استطاع أن يستعيد زمام أمره واستمر في الصعود إلى المنطقة العليا من الزقاق.

في قمة التل عثر على مشهد جنوني. حشد من الفلسطينين يصرخون على بعضهم في مكانٍ مكشوف وفي الوقت نفسه يحاولون جذب بطانية داخل ملجأ. خلف هؤلاء الأشخاص بمسافة مائتي متر ثمة دبابة ميركافا من الحجم العملاق أطلت من بين الأشجار. ومدفعها تخطّى حدود المخيّم. على الأرض كانت هناك بركة من الدماء قد تحولت من القرمزي إلى اللون الأحمر الغامق. وقف مقاتل يحمل الكَلاشنِكوف التي كانت ملطخة بذات الدماء. تعرّف بيير على السلاح في الحال: لقد كانت من طراز صيني موديل 56 ذات عقب خشبي داكن اللون، وقد قام بتصويرها بين يدي صاحبها عدة مرات. حمل الرجال البطانية وانفصلوا عن الحشد سائرين نحو الزقاق. قام بيير بشكل غريزي بتقريب كامرته من عينه، وصل الرجال بالقرب منه فأنزل بيير الكاميرا. كان داخل البطانية بقايا جسد جبريل.

لاحقاً، وبعد أن صوّر المقاتلين رجع وهو يركض إلى وسط المخيم، وقد كان فزعاً من صوت إطلاق نار آخر من دبابة جعل منه نصف أطرش، وجد نفسه في الغرفة التي التقى بها بجبريل لأول مرة. كان حسان مستلقياً في الزاوية، ذراعه مربوطة بضمادة وعلى وجهه حبيبات من العرق. أُرسل في طلب طبيب، ولكن لم يأتِ أحد، وقضى بيير ليلته إلى جانب حسّان الذي كان يئن في نومه.

في اليوم التالي كانت هناك جنازة للشهداء في جنين. خرجت البلدة عن بكرة أبيها، لكن كان هناك القليل من الأشلاء لكي تدفن. تلقى جبريل إصابة مباشرة من قنبلة. الإصابة القاتلة حطمت كل جسده تقريباً، فكل ماتبقى منه هو رأسه ومزق صغيرة مدماة من بنطلون الجنز الأزرق من تحت ركبتيه.

لكن بترتيب البطانية بعناية في النعش ليبدو جسده كاملاً، صنع رفاقه من الوهم رجلاً.

كانت هناك ستة توابيت، حمل واحد منها جثة صبي سقط بتبادل إطلاق النار. امتلأ الشارع الرئيسي في جنين بالمئات من حملة الكَلاشنِكوف الذين يلوحون بها في الهواء، ومن المتفجعين بهستيرية، وهم يشيعون النعوش إلى الجبانة وهم يلوّحون بالكَلاشنِكوف في الهواء ومن بينهم أطفال يحملون بنادق كَلاشنِكوف مصنوعة من الورق المقوى ومن فضلات الخشب وقد طُليت باللون الأسود. كان بعضهم في سن السابعة، لكنه يمشي متبختراً بمارش عسكري كما يمشي الرجال. كان هذا الجيل التالي المستعد لأن يعيش الأسطورة التي خُلقت في معركة الكرامة.

بعد يومين غادر بيير على متن رحلة للخطوط الجوية الفرنسية إلى باريس. وما أن غادر حتى عاد هنري وسيلفستر إلى الفيللا. لم تكن نوافذ الفيللا محكمة الإقفال فكانت ممتلئة بالغبار القادم من الشارع حيث مكتب فتح الذي تعرض للتدميرّ. أخذ بيير ملابسه وكاميراته فقط؛ والجدران لا تزال مغطاة بصوره. جلس هنري في منطقة نصف مضاءة وألقى نظرة على الصور. ورمى سيجارته على الأرض، ثم هزّ رأسه وقال لسيلفستر "بنادق كثيرة جداً".

عند الساعة السابعة من صباح اليوم التالي استيقظا على هدير الدبابات الإسرائيلية واندفعا نحو النافذة فشاهدا في الوقت الذي كان فيه رتلٌ من دبابات الميركافا تعبر من أعلى الشارع فوق المنحدر تتقدم نحو المقاطعة. وكان على ارتفاع ثلاثمائة متر من فوقها طائرات الأباتشي تطلق الصواريخ على البلدة. اندفع الرجلان ليحملا معدات التصوير ويرتدي كل واحد منهما السترة المضادة للرصاص التي كتب عليها بأحرف كبيرة بخط أسود "صحافة". وتلمسا طريقهما وهما يضعان الخوذ على رأسيهما وانطلقا إلى الشارع، الذي أصبح خالياً من المدنيين. ركضا متجاوزين بقايا مكتب فتح ونزلا نحو ساحة

المنارة، حيث كان يتردد صدى قتال عنيف فيما بين تماثيل الأسود التي تمثل عشائر رام الله. كانت هناك دبابتان للجيش الإسرائيلي متمركزتان وسط الساحة. وفي المدخل الجنوبي كانت هناك جثتان مطروحتان على الأرض لمقاتلين فلسطينيين. فوقهما كان ثمة بوستر لعرفات مزقه وابل من رصاص إسرائيلي تجرأ على أن يزيله بإطلاق النار عليه من بندقية الـ AK، لكنه فكر أن من الأفضل أن يترك ما تبقى من وجه الرئيس ملتصقاً بالجدار نصفه معلّق والنصف الثاني يتدلى إلى الأسفل. كانت صفّارات إسعافات الهلال الأحمر الفلسطيني تتعالى في الشارع إلى أن تصل إلى تقاطع الطرق حيث تمنعها الدبابات الإسرائيلية من التقدُّم.

كان المسلحون يكمنون في المداخل ويطلّون من النوافذ، ثم يختفون ما أن توجِّه الدبابة مدفعها مباشرة بالاتجاه الذي يطلق منه النار. اجتاز البلجيكيان طريقهما بحذر عبر الشوارع، مارِّين بعدد من الجثث وهم يقتربون أكثر من المقاطعة. عبروا من جانب دبابة كانت تدك واجهة أحد المتاجر؛ وفوق سقف المتجر كان هناك مقاتل يطلق النار من بندقية كَلاشنِكوف مباشرة على أعلى الدبابة. في الجانب الآخر من الشارع وبمستوى الأرض إلى جانب البلجيكيين كان هناك مقاتل ثانٍ يختبئ في المدخل. وفي محاولة يائسة لإيقاف الدبابة أطلق قاذفة آر بي جي نحو سرفتها لكنها بقيت تعمل واستمرت الدبابة بالتراجع من المتجر، وأسقطت واجهة البناية والرجل المسلح. ثم أدارت مدفعها الرئيسي نحو الآر بي جي، فهرب كل من هنري وسيلفستر راكضين يائسين إلى زاوية الشارع. انفجرت القذيفة بعيداً عن أقدامهما، لكن برغم وابل الشظايا والأحجار الذي انهمر لكنهما لم يصابا بأي خدش. ومع ذلك، كان المقاتل المزود بالآربي جي قد أحرق الشقة المواجهة للمدخل. بعد الظهر كانت المقاطعة مطوّقة.

مرّ أسبوع قبل انسحاب الدبابات، وعندما غادرت، خرج الرئيس ياسر

عرفات من المقاطعة وهو يخطو مرتعشاً محاطاً بوزرائه وكبار ضباطه. كان الرجال من حوله بأعمار الستين والسبعين؛ معظمهم كان من المنفيين معه في الأردن ولبنان وتونس. الكثير منهم كان قد شهد معركة الكرامة في ذلك الربيع البعيد عندما شاهدوا انسحاب الجيش الإسرائيلي. كانت يدا عرفات ترتعشان. وكانت شفته تتدلى من فكه وعيناه غارقتان في محجريهما. الرجل الذي كان تجسيداً للكفاح الفلسطيني أصبح على حافة التخلي عن الكفاح ذاته. صرّح عرفات قبل أن يساعده حراسه على العودة إلى المقاطعة قائلاً: "إننا سنستمر بالقتال".

في شهر آيار عام 2002 قامت القوات الإسرائيلية بغزو جنين. بعد أربعة أيام من القتال. سوّي المخيم بالأرض. لم يبق شيء من الأزقة التي قُدر لها أن تكون بيت جبريل وأرض معركته. قُتل أربعون مسلحاً في المعركة؛ وتمكن المئات من الهروب ببنادقهم الكَلاشنِكوف.

٥ - أغنية الأطفال المجنّدين

في أواخر السبعينات أدت الأعمال التي قامت بها الفصائل الفلسطينية المقاتلة إلى تشويه الصورة الثورية السابقة الناصعة لبندقية الـ AK47. فقد أصبحت هذه البندقية الآن رمزاً عالمياً ليس فقط للثورات العادلة بل أيضاً للإرهاب غير المبرّر.

في الثمانينات برزت ظاهرة شوهت صورة بندقية الـ AK47 بشكل أكثر: وهي صورة الجندي الطفل. وعلى الرغم من انتشار هذه البندقية بيد أطفال في أمريكا اللاتينية، وفي أوساط شعب الكرن في بورما حيث تجد طفلاً في عمر التاسعة يقود مجموعة من الأطفال المشتركين في حرب العصابات، إلا أن أفريقيا هي من تمتلك العدد الأكبر من المقاتلين دون السن القانونية المنتشرين هنا وهناك، وقد أصبحت هذه القارة نموذجاً لاستخدام الأطفال كمقاتلين. نظراً لوجودالملايين من بنادق AK47 فيما بين مصر وجنوب أفريقيا، فإن هؤلاء الأطفال يحملون بين أيديهم سلاح ميخائيل كَلاشنِكوف باستمرار، عندما كانوا يتوجهون إلى المعارك. وعلى الرغم من التقارير التي تتحدث عن أطفال بعمر العاشرة والحادية عشرة يقومون بمذابح يروح ضحيتها الآلاف من المدنيين، في عدد لا يُحصى من الصراعات الوحشية التي وسمت القارة بطابعها، من زمن الحروب ضد الاستعمار التي جرت في الستينيات والسبعينيات وما تلاها، إلا أن بندقية الـ AK47 ظلت تستحوذ على خيالات الفنانين والموسيقيين في الغرب بل وأصبحت أكثر رسوخاً.

لقد أصبحت أفريقيا نموذجاً لمجتمع الكَلاشنِكوف، هذه الأرض حيث العدد الهائل من البنادق يجعل من المستحيل على المجتمع المدني أن يحزم أمره ويوقِف القتل. وفي الوقت نفسه سيصبح الكَلاشنِكوف هو النجم الهادي الثقافي في الغرب، والشارة المناسبة للحنو والشفقة، التي يضعها نجوم الروك من ذوي الملايين في ألبوماتهم لغرض ترويجها. في أفريقيا يمثل الكَلاشنِكوف أمرين، السلاح القاتل والإعلان التجاري عن السلع. وسيكون الطفل المجنّد في قلب الحملة لكلا المعنيين السابقين للكلمة. فهذه العلاقة التكافلية وصلت إلى أوجها في العام 2005 عندما أحيا بوب غلدوف حفلة (Live 8) من أجل أفريقيا في الهايد بارك في لندن وشاهدها الملايين من الجماهير في طول العالم وعرضه. كانت الحفلة الموسيقية جديرة بالملاحظة لخلوِّ المسرح تقريباً من الأفارقة. وقد حظيت صور المعاناة - النساء اللواتي يتضورن جوعاً، والأطفال المجنّدين – بالترحيب لكن الواقع المرّ لم يلق ذلك القبول.

إن أحد الموسيقيين الذين رفض غلدوف اشتراكه في حفلة الهايد بارك، كان بعمر الثالثة والعشرين وهو مغني راب سوداني، قدّم صُوَراً موسيقية عن أفريقيا في ظل حكم بندقية الـ AK47 أكثر أصالةً، ممّا قدمه أيُّ نجم روك غربي. كان إيمانويل جال بعمر السابعة عندما خرطش الكَلاشنِكوف ليداعب بها ريش مروحة الهليكوبتر الدوّارة التي هاجمت قريته. وفي صباح يوم دافئ من أيام أيار عام 1987 اندفعت طائرات الهليكوبتر الحكومية من التلال المطلة على منطقة "تال" في النيل الأعلى في جنوب السودان للهجوم على مجتمع صغير يتكون من بضعة مئات من السكان، بواسطة الرشاشات الثقيلة والصواريخ والقنابل.

كان القرويون الذين تعرضوا للهجوم من قبائل النوّر، طوال القامة داكني البشرة من الذين يقاتلون الغزاة العرب القادمين من شمال البلاد منذ زمن

طويل يصعب عليهم حتى تذكّره. جاء العرب في البداية إلى الجنوب قبل مئتي عام للاتجار بالعبيد؛ قبل أن يتحولوا في وقتنا الحاضر إلى جنود مقاتلين لصالح حكومة الخرطوم في الحرب الأهلية التي أنهكت السودان منذ أن حصل على الاستقلال من بريطانيا في عام 1956. وقد قام الجانبان المتعارضان في الحرب الباردة بدورهما في الصراع بالتمويل والدعم بالأسلحة لطرفي النزاع، وكانت النتيجة وجود ملايين من بنادق الكَلاشنِكوف في السودان.

بعيداً عن السلام الذي امتدّ لمدة عقد من الزمان بين عامي 1972 و1982 فقد كان القريون في حالة حرب منذ زمن طويل قبل أن يأتي إيمانويل إلى الوجود، حتى قبل أن يولد أبواه. في ذلك الوقت كانت حكومة الخرطوم تُدعى بمختلف التسميات، لكنها كانت دائماً تمثل الشمال العربي وكذلك كانت تبحث دائماً عن الشيء نفسه: النفط في باطن الأرض التي عاشت فيها قبائل "النوير".

أمضى إيمانويل صباح يومه الأخير في قريته في بيت عمته. كان والده قد التحق بجيش التحرير الشعبي السوداني قبل ما يزيد على العام، وهو حركة لرجال حرب العصابات تدافع عن الجنوب الأسود بوجه الشمال العربي. توفيت والدة إيمانويل عندما كان في الخامسة من العمر، لقد فتكت بها أحد الأوبئة العديدة التي كانت تنتشر في مناطق الصراع الأفريقية. لم يعرف إيمانويل أي من الأمراض أودى بحياة أمه - فكل ما يعرفه فقط هو أنها قد "قُتِلَت في الحرب"، كما كانوا يقولون له.

لم يذهب إيمانويل إلى مدرسة؛ ولم يكن هناك عمال إغاثة مسيحيون بالقرب منه، ولا مخيمات للأمم المتحدة على بعد ثمانين كيلومتراً ليعطوا الأطفال كتباً للمطالعة أو أقلاماً، وليس هناك من أحد في القرية يعطي الدروس لأن جميع المعلمين التحقوا بجيش التحرير الشعبي السوداني. لذلك كان إيمانويل يقضي هذا الصباح مثل غيره، جالساً في مدخل بيت صغير

من طابق واحد، مستمعاً إلى الأصوات القادمة من القرية - أصوات محركات السيارات المرهقة بالعمل الشاق، وصراخ المسنين من الرجال وخوار بقرة من الألم وهي في طريقها إلى المسلخ. ومع سماعه كل هذه الأصوات كان إيمانويل يدندن أغنية بهدوء مع نفسه ويحلم بالذهاب إلى إحدى المدارس التي سمع عنها والتي كان تُديرها جمعيات خيرية غربية تعمل في المنطقة.

في وقت مبكر من ذلك الصباح كان إيمانويل يتفرّج على النساء وهن ينزلن ماشيات بجلبة إلى السوق أسفل التلة في مركز المدينة. وكالمعتاد لم يكن هناك غذاء كافٍ لذا رجعت النساء فرأى إيمانويل أمامه الهدوء وخيبة الأمل اللذين يحيطان بهن. كان الولد الصغير يحملق في الضوء الساطع عندما ارتفعت الشمس فوق أعالي البيوت في الجانب البعيد من الشارع، حيث يجلس الرجال المسنون على مدرّج ويتحادثون حتى يصل اليوم إلى حافة درجات الحرارة اللاهبة. عرف إيمانويل أن النساء يذهبن دائماً إلى السوق والرجال يجلسون على المدرّج المواجه لبيت عمته، لكن اليوم وجد أن ثمة شيئاً قد تغيّر. هناك شيء مختلف في هواء القرية، شيء لا يستطيع أن يشرحه لنفسه.

بينما كانت الشمس تصهر الشارع جاء أربعة رجال من جهة السوق، مثيرين الغبار في مشيتهم. كانوا يرتدون بدلات مستعملة من زي جيش التحرير الشعبي السوداني – صنادل زائد بنطلونات جنز قديمة مع قمصان خاكية اللون، أو بنطلونات بالية لمقاتلين مع قمصان تي شيرت كانت قد تمزقت عند الدرزات – ويحملون بنادق خشبية الساعد من طراز بندقية الـ AK47 التي منحتهم السلطة على القرية. لم يتكلموا بل كانوا يحدِّقون نحو الظلال بين البيوت ويديرون رؤوسهم ببطء، ويستكشفون كل ما حولهم بعناية. أدرك إيمانويل بأن المُقاتلين كانوا هم أيضاً قد لاحظوا أن هناك شيئاً ما مختلفاً حول القرية اليوم. سحب رجليه عندما اقتربوا – لقد رأى كيف يرفس رجال

حرب العصابات أولاد القرية الذين يضحكون منهم ويتبعونهم صارخين في الشارع. برغم أنه لا يستطيع أن يتذكر هيئة والده، إلا أنه يبدو له الآن مثل هؤلاء الرجال الأربعة القادمين؛ لكن وكما حدث في المناسبات السابقة التي كان يتفرج بها على رجال جيش التحرير، فإن أباه لم يكن واحداً منهم.

لم يكن هناك أكثر من عشرين من رجال حرب العصابات في مركز القرية في ذلك الصباح - لم يكن كافياً لتتحول القرية إلى هدف عسكري ذي قيمة بالنسبة للحكومة. لكن بحلول عام 1986 لم يعد العدد قضية مهمّة في السودان. لم يكن إيمانويل يعرف ذلك، لكن الصراع وصل إلى مرحلة جديدة: لم يعد منطقياً تسميته صراعاً ضارياً على الموارد، إنه الآن أقرب إلى حرب الإبادة العرقية والتدمير الذاتي والوطني. كانت الحكومة مصممة على ترويع قبائل النوير لكي يتركوا موطنهم. فقد قصفت المدارس بالقنابل، وأحرقت البيوت وأرسلت الدبابات الروسية لمواجهة قرى جيش التحرير الشعبي السوداني ومُخيَّماته. في بعض الأحيان كان رجال حرب العصابات يُجبرون على التراجع إلى أقصى جنوب البلاد، أو حتى يتعرضون للهجمات وهم في قواعدهم عبر الحدود مع أثيوبيا، عندما كان نظام منغيستو هيلا مريام الماركسي سعيداً بإمداد بنادق الكَلاشنِكوف وتقديم الدعم إلى أي جهة تقاتل منافسه الإقليمي. كذلك فقد دُفع بهم عبر الحدود الأوغندية، التي يمكن لها أن تخفي جيوشاً بأكملها. لكن كان لديهم دائماً موطئ قدم في وطنهم.

في بعض الأحيان ينزل جيش التحرير من المرتفعات للسيطرة على المواقع الحكومية ويحتفظ بها بضعةَ أيام قبل أن تقوم طائرات انتونوف للنقل والتي تحولت إلى قاصفات بإجبارهم على الخروج منها مرة أخرى من خلال إلقاء براميل مليئة بالديناميت وقطع الفولاذ. أحياناً كان يحدث القتال بين رجال جيش التحرير أنفسهم من أجل الحصول على مكاسب آنية هنا وهناك يعقد خلالها زعماء منشقون هدنة منفصلة مع الحكومة، وهي سياسة التنافس

للحصول على السلطة الدائمة قام بها سياسيون من جنوب السودان. لكن ومهما كان ميزان القوى ودرجة العنف في المنطقة، فإن الناس يموتون - سواءً بنيران الكَلاشنِكوف أو الأوبئة والمجاعة التي تتبع الأسلحة بشكل ثابت.

لم يشمل هذا الوضع السودان وحده فقط؛ وإنما شمل شرق أفريقيا وما وراءه أيضاً. الأرض التي استحوذت عليها الكَلاشنِكوف منذ زمن الكفاح ضد الاستعمار والتي تشكلت في الحرب الباردة بالوكالة، وقد استمرات بنادق الـ AK تتدفّق إلى القارة منذ أواسط الستينيات إلى يومنا هذا. فقد أرسل كلٌ من اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية والصين وكوريا الشمالية الملايين من بنادق الكَلاشنِكوف إلى أفريقيا السوداء؛ حتى أن الصين وكوريا الشمالية كانتا قد أسستا مصنعاً لذخيرة بنادق الـ AK في أوغندا. في البداية كانت هذه البنادق رمزاً للتحرر؛ ففي موزمبيق وأنغولا كان رجال حرب العصابات يسمّون أبناءهم كلاش احتفاءً بدور هذا السلاح في القتال ضد الحكم الاستعماري البرتغالي. وفي عام 1975، عندما حققت حركة فرليمو التحريرية في النهاية الاستقلال عن البرتغال، كشفت النقاب عن العلم الوطني الجديد والذي يحوي على رسم لشفرة محراث وكتاب وبندقية كَلاشنِكوف.

كان التركيز على الكَلاشنِكوف أكثر من سكة المحراث والكتاب كرمز للنصر. كانت القارة تغرق في الأسلحة الخفيفة، فبالإضافة إلى تعزيزها للقوة النارية من أجل النصر في الكفاح ضد الاستعمار والحصول على الحرية، والرخاء والسلام، إلا أنها وفّرت الظروف المناسبة للصراع الدائم في أفريقيا. في موزمبيق كان هناك مايزيد على مليون حالة وفاة في الحرب الأهلية التي تلت الاستقلال، بين حركة فرليمو وحركة رنامو المدعومة من جنوب أفريقيا، وعندما انتهى ذلك الصراع في عام 1992 كان هناك مايزيد على سبعة ملايين قطعة سلاح رشاش يتم تداولها في البلاد بصفةٍ غير رسمية.

لقد أثر هذا الإفراط الجنوني في توفُّر الأسلحة الهجومية على الجميع. كان

باستطاعة جنود الحكومة المُسرَّحين والمُتمردين وسارقي البنوك والمتجاوزين على أملاك غيرهم والمراهقين العدوانيين في سلوكهم والنشالين، نقول كل هؤلاء كان باستطاعتهم الحصول على الكَلاشنِكوف، الأمر الذي أكد أن الحياة لا يمكن لها أن تكون طبيعية لأن هناك دائماً إمكانية لانفجار الأوضاع عبر إطلاق النار من أسلحة رشاشة. منذ أن أصبح هذا السلاح بيد كل شخص في أفريقيا - أو بالأحرى كان يتوجب على كل واحد أن يقتنيه - وجدت أفريقيا نفسها في حالة هوس بالكَلاشنِكوف. فقد جلبت الكَلاشنِكوف المزيد من إراقة الدماء بدلاً من الحرية بالنسبة للملايين، وبحلول التسعينيات كان "كلاش!" صرخة يأس أكثر منه فرحة نصر. في العام 1991، أعلنت "نشرة علماء الذرة" قائمة ببلدان نجد فيها "شباناً" (وبعض النساء) مزودين قبل كل شيء ببنادق الـ AK47 لوحدها أو مع أسلحة أخرى "خفيفة" تسببوا في قتل عشرات الألوف - وفي بعض الأحيان مئات الألوف – من الأشخاص... وكان معظم ضحايا هذه الصراعات من "غير المقاتلين". ومن أصل سبعة عشر بلداً ورد ذكرها في النشرة كان عشرة منها في أفريقيا لوحدها وهي: الجزائر وأنغولا وبروندي والكونغو وموزمبيق ورواندا وسيراليون والصومال والسودان وأوغندا.

أصبحت الحرب في السودان هي الحالة الطبيعية. كانت علاماتها في كل مايحيط بإيمانويل: من النادر أن يكون هناك طعامٌ كافٍ، وكان معظم الرجال في القرية من المسنين. ونادراً ما كان الشباب الذين غادروا القرية يعودون إليها. وإن عادوا فغالباً ما كانوا يعودون بلا رجل أو بلا ذراع. لكن على الرغم من ذلك كان إيمانويل قد عرف أن هناك أناساً يسمّون العرب يريدون قتله، حتى الآن لم تمسّ الحرب إيمانويل مسّاً مباشراً. وحتى اليوم لم يتعرض لإطلاق نار أو القذف بقنبلة.

عندما أصبح ضجيج طائرات الهليكوبتر مميزاً عن بقية الأصوات التي ملأت القرية كان إيمانويل لايزال جالساً في المدخل، يدسّ رجله في التراب لكي

يشكّل شيئاً ما ويغني مع نفسه. اقترب الصوت حتى أصبح أعلى وأعلى حتى غطى على العالم المحيط به. توقفت رجله عن الحركة في الغبار وكفَّ عن الغناء لكي يسمع. وصل الصوت المرعب إلى ذروته مباشرةً من فوقه، والهدير المُخيف للمحرك الذي اختلط بزمجرة الرشاش الثقيل وهو يطلق النار أجبره على سدّ أذنيه، إضافةً إلى أن موجة من عصف تيار الحرارة والصوت دفعته إلى الوراء نحو المنزل.

لم يصب بأذى، عاد إلى الوقوف على قدميه وتفرّج بصمت متحجراً من الذهول أكثر منه من الخوف. كان الناس في الشوارع يتراكضون وهم يصرخون عندما رشّت الهليكوبترات القرية بنيران أسلحتها وأسقطت القنابل بطريقة ارتجالية، فكانت تنفجر وسط البيوت وبين الحشد المفزوع. سقطت قنبلة على سفح التل المواجه لمركز القرية وبدأت ألسنة اللهب تنفث السعير من بيت استهدفه القصف.

شاهد إيمانويل النيران وهي تحاول الإمساك بأي شيء قابل للاحتراق حتى السيارات في أسفل الشارع كانت في قبضتها. من بين المركبات المحترقة استطاع أن يرى أجساداً تحترق وهي ممدّدة على الطريق.

لم يبكِ إيمانويل، لكنه نظر حوله بتعجب متزايد عندما رأى رجال حرب العصابات يفيقون من صدمتهم الأولية ويشرعون بإطلاق النار نحو السماء من بنادقهم الكَلاشنِكوف. لم يطلق الرجال النار بكثافة كما كان يفعل المراهقون الذين رآهم ذات مرة وهم يطلقون النار بارتجال في ميدان للتدريب في ضواحي القرية. إن أولئك الفتيان كانوا يطلقون النار وهم يضعون البنادق على خصورهم وكانوا يفرغون مخازن الذخيرة في ثوانٍ، ناثرين رصاصهم في كل مكان ويصيبون كل شيء ما عدا علب الصفيح والقناني التي وضعت كأهداف لنيرانهم. أما هؤلاء الرجال فهم يحملون بنادق الـ AK بإحكام قرب خدودهم، جاثين على ركبهم لكي يتوازنوا، ويطلقوا النار في الحال وبشكل آلي

متقطع عندما تكون طائرات الهليكوبتر فوقهم تماماً. كان المقاتلون من أشجع الرجال الذين لم يَرَ لهم مثيلاً لكنهم كانوا هادئين ولم يتراكضوا مرعوبين كالناس الذين رآهم، وعلى الرغم من صغر سنه استطاع إيمانويل أن يفهم ما كان الرجال يحاولون فعله. كانوا يستهدفون واجهة الهليكوبترات فقط، آملين أن توصلهم سرعة إطلاق بنادقهم إلى إيقاف التيار المتدفق من الرصاص القادم من الهليكوبترات. كان إيمانويل متأثراً بمنطق المقاتلين، وحفظ في ذهنه المعرفة الجديدة التي تلقاها عن كيفية إطلاق النار من بندقية الـ AK على طائرة هيلوكبتر.

بعد ذلك، انتهت الغارة فجأةً كما بدأت. انعطفت الهليكوبترات بعيداً عن مجرى الرصاص وارتفعت ارتفاعاً شاهقاً مبتعدةً عن القرية بسرعة، حتى تحولت إلى نقاط سوداء صغيرة ليس إلا، يصعب عليهم رؤيتها، تعلو راجعةً من فوق التلال الشمالية. في البدء كانت القرية هادئة، وكان إيمانويل يقف في مدخل المنزل يتفرج على الدخان الكثيف المتصاعد من السيارات والبيوت المدمرة أسفل الشارع، والذي كان يتساقط ملوثاً بالزيت. فالرائحة لسعت عينيه بحرقتها. وعاد الصوت، وامتلأ الهواء القارص بعويل الجرحى وندب الموتى وصراخ الرجال وصوت النار الصادر من البيوت المحترقة.

لم يستطع إيمانويل معرفة عدد القرويين الذين لاقوا حتفهم، ولم يكتشف ذلك أبداً. ولم يستطع كذلك أن يعثر على عمته، واختفى جميع الرجال المسنين الذين كانوا يجلسون على المدرج. لكن رجال جيش التحرير الشعبي السوداني الذين كانوا يقفون في الشارع ويطلقون النار من بنادق الـ AK على الهليكوبترات، ما زالوا على قيد الحياة: إذ جمعوا كل الفتيان المتبقين في القرية. كانوا زهاء عشرين صبياً، ومن ضمنهم إيمانويل، ثم أخذوهم إلى قمة التل ليتحدث إليهم أحد رجال حرب العصابات وهو يحمل بندقيته الكَلاشنِكوف على كتفه.

"هذا الهجوم يعني إن الحكومة ستعود ثانية، لكن في المرة المقبلة سيكون هناك جنود وقد يجلبون دبابات أيضاً. وسيقتلون الجميع".

تغيّرت سحنة الفتيان عندما بدأوا يفكرون بمجيء الجنود إلى القرية. البعض منهم بدأ بالبكاء؛ وآخرون صرخوا بأعلى أصواتهم "كلا!" إلا إيمانويل - كان قد سمع عن المذابح، وعرف أن مثل هذه الأمور قد تحدث.

"تعالوا معنا وسنعطيكم الغذاء والمأوى" وأكمل الرجل قائلاً: "ستكونون في مأمن بعيداً عن جنود الحكومة ويمكنكم أن تلتحقوا بالمدرسة". كانت كلمة مدرسة كلمة سحرية بالنسبة لإيمانويل. كان مذعوراً وغير واثق مما يجب عليه فعله بالضبط، لكنه وقف بين الدخان والفوضى في قريته المقصوفة وأدرك أن شيئاً ما كان صعب المنال قد سبق له التفكير فيه وأصبح الآن يُعرض أمامه؛ كان يود أن يتعلم القراءة والكتابة، حتى أنه يود التحدث باللغة الإنجليزية. "كنتُ مشوشاً" استذكر هذا الأمر بعد عشرين عاماً ويكمل قائلاً: "عندما تكون طفلاً ويقولون لك أن بإمكانك أن تذهب إلى مكان لا حرب فيه، وتستطيع الذهاب إلى المدرسة لتصبح شخصاً أفضل - في الحقيقة، فإنك توافق على ذلك. وعليه فقد ذهبت معهم".

لقد كان قراراً غيَّر مجرى حياة إيمانويل. وبسببه أصبح طفلاً مجنداً، من حَمَلة الكَلاشنِكوف الأصليين في حرب مضطربة تتبدل فيها الولاءات تبدّلاً عنيفاً ودائماً لكن نادراً ما كانت لمصلحته. أنشأ جيش التحرير مجموعة من المخيمات في الجنوب الغربي من أثيوبيا التي كانت تدعم وتموّل حضوره في جنوب السودان، بل إن المخيمات كانت تنتشر بصفةٍ متزايدة طوال مدة الصراع التي ناهزت العشرين عاماً وقد استنزفت ليس فقط قواته المسلحة بل شعب جنوب السودان برمته. ونتيجة لذلك كان هناك بضعة رجال هم من بقوا ليتطوعوا مجندين في قوات جيش التحرير الشعبي السوداني. كان الصبيان الخيار التالي، وكانت المدارس هي الطعم الذي أغروهم به. كان

جيش التحرير يدرك بأن عرب الشمال لديهم مستويات تعليم أعلى وهو ما يمنحهم التفوُّق في الجانب العسكري بطبيعة الحال، لذلك افتتح المدارس في مخيماته بعد أن عمل على إعاقة الوكالات في تزويده بالمدرسين. كان جيش التحرير الشعبي في جنوب السودان يقدم للطفل فرصته الوحيدة للتعليم.

في أواخر أبريل من العام 1986، وبعد أسبوع من الغارة التي تعرضت لها القرية، قام إيمانويل وبقية الفتيان برحلة لمسافة 300 كلم مشياً على الأقدام تارةً وبواسطة المركبات تارةً أخرى نحو منطقة عمليات جيش التحرير في الجنوب الغربي من أثيوبيا. فأسكنوهم في الثكنات التي كانت جزءاً من مجمّع للمخيمات وقرى تحوي ما يربو على المائة ألف لاجئ ومقاتل ومسؤول في جيش التحرير، كانوا يعيشون جنباً إلى جنب مع المواطنين الأثيوبيين. فقد ضربت المجاعة المدمرة أثيوبيا في السنة السابقة - وقد نشرتها صور التلفزيون التي أظهرتها حملة المساعدات في ذلك الصيف في كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية - وكان الأثيوبيون مستقتلين لحماية الغذاء النادر والموارد الشحيحة من تدفق السوادنيين عليهم.

لكن السودانيين، على أية حال، كانوا يحملون بنادق الكَلاشنِكوف. وليس من المستغرب أن تكون حدة التوتر مرتفعة بين الجماعتين.

في مثل هذه الظروف بدأ الأولاد تعليمهم، غير مدركين بأن دروساً في الحساب والقراءة كانت وسيلة أكثر منها غاية بالنسبة إلى جيش التحرير. كان إيمانويل ينام مع ثلاثين من الصبيان الآخرين في مهجع ذي سقف من التنك، منذهلاً من وجود الطعام الكافي الذي يأكل منه قدر ما يريد، إضافةً إلى حضور الدروس.

"سُمح لنا بتناول الغذاء المناسب لكي ننمو أقوياء. وكانوا يعطوننا الغذاء ويعلموننا كيف نطبخه لأنفسنا في الساعة السابعة. كنا نقوم بتنظيف

البيوت وكذلك نذهب لصيد الغزلان والبقر الوحشي وأي حيوان نعثر عليه، في بعض الأحيان نصطاد الأفاعي وفي أحيان أخرى الضفادع. كنا نصطاد بالعصي وليس ببنادق الـ AK التي ليست للصيد".

لقد صُنِعَت بنادق الـ AK لقتل الناس، وبعد ثلاثة أشهر في المخيم لمح الصبيان أولى بوارق ما ينتظرهم في المستقبل. ففي صباح أحد الأيام أخذهم عدد من رجال حرب عصابات لم يلتقوا بهم سابقاً، إلى طاولة تحت شجرة ليعلموهم كيف يفكون وينظفون ويعيدون تجميع قطع بندقية الكَلاشنِكوف. إنها فقط ثمان قطع متحركة لذلك كانت المهمة سهلةً - لقد تعمّد ميخائيل كَلاشنِكوف تصميم هذا السلاح بشكل سهل وبسيط ليستطيع المجندون على وجه السرعة في الخدمة الإلزامية والفلاحون الأميّون من كزخستان أو سيبريا استعماله بسهولة. في هذه المناسبة كان العمل لعب أطفال بالمعنى الحرفي، وبظرف ساعتين تعلم إيمانويل وبقية الصبيان عن ظهر قلب كيف يفككون بنادقهم ويركبونها.

كان التدريب العسكري قاسياً – بل وحشياً أيضاً. كان الصبيان يعاقبون بالضرب إذا أخطأوا، وكانوا يعيدون التمارين مرة تلو الأخرى. كانت التمارين نفسها بسيطة: اركض نحو عدوك وأطلق عليه النار. فلقد وجد ضباط جيش التحرير أن لديهم مجندين تواقين لا يحتاجون إلى الدعاية أو أن يشربهم أحد الأفكار والمبادئ. إنهم مجرد يحتاجون إلى الإجابة بصدق على أسئلة الصبيان حول الحرب.

"أتينا من بيوت وأماكن مدمّرة. لقد ذقنا طعم المرارة مسبقاً - فأردنا الانتقام. لم يقل لنا القادة في جيش التحرير "اكرهوا العرب لأنهم أشرار"، لكن عندما سألونا، "من أحرق قرانا؟" كان جوابنا، "العرب هم من فعلوا ذلك". عندما تساءل أحدهم: "أين إخوتي؟"، كان الجواب "لقد أخذهم العرب عبيداً في الشمال". لذلك عندما أعطونا بنادق كَلاشنِكوف، كنا نريد

القتال. أخبرونا قصصاً عن العرب، لكن كنا نحن من قرر أن يكرههم. لو كنتَ طفلاً ينمّي مثل هذا الغضب فستذهب للقتال وتنسى أنك طفل".

لكنهم في الحقيقية لم يكونوا أكثر من أطفال. وبما أن وزن الكَلاشنِكوف يقارب أربعة كيلوغرامات فكان العديد من الصبيان يكافح من أجل أن يكون له القدرة البدنية على حمله لكي يصبح طفلا مُجنداً في جيش التحرير. بعد مضي عشرين عاماً لايزال إيمانويل يتساءل ليس فقط كيف قُدِّرَ له أن يطلق النار من سلاح ثقيل كهذا، بل كيف كان يحمله ويستعمله في القتال. "لا أدري كيف كنت أرفع بندقية الـ AK عندما أكون مجهداً - لقد كانت ثقيلة للغاية".

كان الصبيةُ متعبين دوماً من الضغوط النفسية للتدريب العسكري. كان الانفصال عن ذويهم، وما يشكله من قلة أو انعدام الدعم العاطفي وكونهم تحت الضغط المتواصل لكي يصبحوا راشدين بالأحرى وليسوا أطفالاً، ما يقودهم مراراً إلى السقوط في حالة من البكاء والحزن. في مثل هذه الحالات تصبح العوائق أمام تسليح الأطفال ببنادق كَلاشنِكوف ظاهرةً للعيان. حتى بعد التدريب الكامل فإنهم ليسوا دائماً يفهمون بالضبط المدى المميت الذي كانت عليه بنادقهم، وقد رأى إيمانويل صبيةً يفقدون عقولهم تحت الضغط - وكانت النتيجة مدمرة. "جنّ الصبيةُ في معسكرات التدريب، وبدأوا يطلقون النار من بنادقهم. رأيتُ أحد قادتنا يُقتَل بهذه الطريقة. قام صبي بإطلاق النار من بندقية الـ AK من حولنا فانبطحنا على الأرض، وعندما نهضنا كان القائد ميّتاً".

استمر التدريب، كما أن جيش التحرير كان مستقتلاً لكي يجلب أعداداً أخرى كي يزيد من مقدرته على القتال. في أواخر الثمانينيات تعرضت الحركة للمزيد من الانشقاقات. أراد أحد الأحزاب أن يستمر في القتال من أجل السودان الفدرالي حيث يحصل جنوب السودان على الحكم الذاتي ولا يتبع

الشريعة الإسلامية القاسية، بل سيكون له مكان في الحكومة الوطنية في الخرطوم؛ ومجموعة أخرى كانت تطالب بالانفصال التام وباستقلال جنوب السودان. بينما وصل هذا الجدل المُدَّمى إلى القمة في القوات المسلحة لجيش التحرير، كان المتدربون من المقاتلين قد دُفع بهم نحو أقسى الحالات. كان إيمانويل يفك ويركب الكَلاشنِكوف مرة تلو الأخرى. وفي التدريب على إطلاق النار كان مجبراً على التقليد الببغائي لمختلف أوضاع عتلة الاختيار الفولاذية للإطلاق، الموجودة على الجانب الأيمن من البندقية: في أعلى مستوى لها تكون في حالة الأمان، المستوى الأوسط تكون في وضعية الإطلاق الآلي وبِطَقَّتين إلى الأسفل تكون في وضعية الإطلاق النصف الآلي. لقد تعلم أن عتلة صلي بندقية الكَلاشنِكوف يجب أن تسحب برفق إلى الوراء لأنها ستعود إلى الوراء أكثر من أي عتلة في سلاح آخر قبل أن يطلق النار؛ وعندما يطلق النار فقد يفاجئك ذلك مما يجعل الرصاصة تخطئ الهدف.

كان إيمانويل في عمر التاسعة عندما شارك في القتال ببندقية الـ AK – ليس ضد الحكومة السودانية، بل لكونه جزءاً من حرب أطفال مرتجلة وغير رسمية ضد قرية أثيوبية مجاورة كانت ترتاب من أطفال جيش التحرير (على الأصح، مما سيصبحون عليه)، من سرقة الدواجن والمواشي. كان إيمانويل واصدقاؤه يتسللون إلى المناطق المدنية الأثيوبية ويسطون على الدجاج والماعز بل وحتى الأبقار إذا اتيحت لهم الفرصة. وفور العودة إلى المنطقة الآمنة في المخيم كانوا يسارعون في ذبح الحيوانات وأكلها. في إحدى المرات ما إن ذبحوا بقرة حتى وصلتهم أنباء عن اقتراب قرويين أثيوبيين غاضبين من المخيم للبحث عن دابتهم. قام الصبيان وبسرعة بدفن البهيمة، وجلسوا على تلَّتها وبنادقهم في أحضانهم بينما كان الإثيوبيون يمرّون بهم.

كان القرويون عُزّلاً من السلاح، لكن بعد مرور أسبوع عادوا ببنادق الكَلاشنِكوف وأطلقوا النار فوق قسم الصبيان في المخيم. التحق إيمانويل

بالمئات من الصبيان الآخرين لعقد اجتماع طارئ عشيّةَ الهجوم. كان المزاج حاداً، وقرر الصبيان الرّد. "هم من بدأوا الحرب، حسناً، ذلك جيد - كنا كلنا قد تعلمنا ماذا نفعل، وعرفنا كيف نقاتل. كان هناك مايزيد على المائة ألف في مخيمنا، لذلك كان الكثير من الأطفال الصغار مستعدين للهجوم. لدينا بضع بنادق كَلاشنِكوف وبعض الأحجار والعصي. كان ذلك كافياً. كنا غاضبين جداً ولم نكن خائفين. لم يسبق لنا أن كنا في معركة فكان الأمر بالنسبة لنا أشبه بلعبة، لعبة أن نكون جنوداً. سيطرنا على قريتهم في غضون ساعة. طردناهم خارج قريتهم وبعد ذلك قمنا بإحراق بيوتهم. قتل البعض منّا، لكننا انتصرنا - لقد طردناهم بعيداً".

في عرض مروّع لما يمكن للأسلحة الآلية الفعالة أن تفعله حتى وإن كانت بيد صبيان صغار-كان يمكن لبنادق الكَلاشنِكوف أن تغيّر الحالة الاجتماعية - لقرية بكاملها وقد دُمرت بالفعل على يد هؤلاء الأطفال. كان إيمانويل مأخوذاً بالحالة. "السلاح صنع مني رجلاً. أو جعلني أشعر كأني رجل، عرفت أن الناس سيفعلون ما أقوله لهم، لأن بيدي بندقية AK. بهذه البندقية يمكنك أن تحصل على الطعام، والاحترام وأي شيء تريد. حتى وإن كنت في التاسعة من العمر".

خلال شهور معدودة من القتال ضد الأثيوبيين كان إيمانويل قد دخل في معركة بكل معنى الكلمة. كان جيش التحرير الشعبي السوداني يساند النظام الأثيوبي في هجومه على القرى المتمردة. لم يكن جيش التحرير الشعبي يحبِّذ أسلوب الهجوم الليلي المباغت متبوعا بنيران الـ AK المدمِّرة الذي استخدمه الفييتناميون بفعالية ضد قوّات GI المذهولة. بل كان يفضل هجوماً أكثر مباشرة، يتمثّل في أن يهاجم السودانيون العدو على شكل موجات. كانت الموجة الأولى تُشكّل من الأطفال، غالباً ما يكونون في أعمار السابعة أو الثامنة، يُرسلون في المقدمة راكضين في ساحة المعركة، اذ كان منطق جيش

التحرير هو أن الصبي أقل إلفاتاً للنظر من الكبير في ساحة القتال لأن حجم جسمه ووزنه أقل من الجندي الناضج. ثم يأتي من ورائهم أطفال أكبر سناً، يحملون بنادق الكَلاشنِكوف، تتبعهم موجة أخرى تلتقط البنادق من الصرعى على الأرض الذين قتلوا على يد العدو. أحياناً كان إيمانويل يرسل إلى المعركة في الموجة الثالثة: "كنا نتقاسم استعمال السلاح. أنت تركض نحو المعركة تحمل بعض مخازن الذخيرة والأحجار وتركض محتمياً وراء شخص في المقدِّمة. يطلق النار، ثم تركضان كلاكما مرة أخرى. إذا قُتل تلتقط أنت بندقيته الكَلاشنِكوف. فإذا جاء دورنا في إطلاق النار فليس علينا سوى أن نطلق، بم!بم!بم! من بنادقنا. بهذه الطريقة ذهبت إلى الحرب".

لقد اكتسب إيمانويل الخبرة والأسبقية فأعطوه بندقية كَلاشنِكوف خاصة به. وقاتل بشكل متقطع مع جيش التحرير في حربه ضد الحكومة السودانية عابراً الحدود وعائداً إلى الوطن. وعلى رغم الموت والدمار الذي رآه من حوله، والمعدّل المرتفع للضحايا، فإنه اتخذ هو ورفاقه من الأطفال المجندين موقفاً طفولياً من الحرب "كانت بالنسبة لهم تشبه مباراة بلعبة مسدسات أطفال، لكن عندما بدأت الحرب كان بإمكانك إما أن تضع السلاح جانباً وتهرب أو تضغط على الزناد. عندما تنجز ذلك مرةً فإنك ستعود إلى المعركة مرةً أخرى لأنك ستكون خبيراً بالسلاح، وسيجرُّك نحوه. حتى أنك ستحاول أن تكون في المقدمة، فهذا ما ستفعله بندقية الـ AK بك. إنها تجعلك تعتقد بأن لا أحد يقدر عليك. تجعلك تقوم بأشياء خطرة، وبمجازفات أكبر عندما تدخل في المعركة. عندما تطلق النار من بندقية الـ AK47 مرةً واحدةً ستصبح شجاعاً. وأن لم تكن حذراً فسيجرك السلاح إلى الجبهة".

استخدم جيش التحرير قواعده في أثيوبيا لتعزيز وإمداد سيطرته على الكثير من مناطق جنوب السودان، وتدريجياً حصل على إقليم. في عام 1988 كان هناك حكومة هي الأكثر تشدداً في الشمال: وهي حكومة الجبهة الوطنية

الإسلامية (التي لعبت دور المُضيِّف لأسامة بن لادن منذ عام 1991) وهي من تخلى عن إمكانية إجراء مفاوضات سلام وقدمت نفسها على أنها ستنجز الانتصار الكامل في الحرب الأهلية. في العام 1990 وقفت الحكومة الإيرانية إلى جانب الجبهة الوطنية الإسلامية بتمويلها لصفقة مع الصين الشيوعية، يتُّم بموجبها استبدال مخزون الحكومة السودانية من بنادق الكَلاشنِكوف القديمة بأخرى من الموديلات الصينية الجديدة. بحلول العام 1991 كان هناك أربعة ملايين شخص مشرد ومليونا قتيل في جنوب السودان وحده، والأمر الأكثر كارثية بالنسبة لجيش التحرير الشعبي السوداني كان الانقلاب الذي أسقط منغيستو هيلا مريام في شهر آيار. لم تكن الحكومة الأثيوبية الجديدة مقتنعة بوجود جيش (هو جيش احتلال في الواقع) على حدودها الغربية، فأُجبر جيش التحرير على العودة إلى السودان. وبفقدان الدعم الأثيوبي اللازم لصفوفه بدأ جيش التحرير يخسر الإقليم السوداني، وبغضون ثلاث سنوات دُفِع إلى التراجع نحو الحدود الجنوبية.

في هذه المرحلة ظهرت إلى السطح التوترات المتأصلة في الحركة فتمزق جيش التحرير بين الفصيل الرئيسي، وهو من يدعو إلى الفدرالية في السودان بقيادة جون قرنق ومن جهة أخرى، هناك المنشقون عن جيش التحرير من الحزب الاتحادي بقيادة رايك ماشار. بعد محاولة ماشار الفاشلة في الإطاحة بقرنق قطعت قبائل النوير الدعم عنه في منطقة أعالي النيل فأسس مركزاً لقيادته في منطقة "وات" بالقرب من الحدود الأوغندية والكينية. بقي إيمانويل مع الفصيل الرئيسي لجيش التحرير وقطع مسافة 800 كلم نحو المواقع الجديدة في التلال القريبة من مدينة "جوبا"، العاصمة التقليدية لجنوب السودان التي أصبحت بعد ذلك تحت سيطرة الحكومة. كان لدى قوات قرنق القليل من المدفعية الثقيلة وليس لديها قوة جوية لكن كانت غنية بالكَلاشنِكوف، وكان قد تمّ التخطيط لاحتلال البلدة بإطلاق العنان

للمُسلَّحين التابعين له وبموجة من الأطفال المجندين للانخراط في هجوم أطلق عليه "عملية عاصفة الأدغال". كان إيمانويل جريئاً عشية المعركة: "أردت الذهاب إلى المعركة مع بندقية AK. كنت شجاعاً وأردت القتال". لكن حتى بنادق الكَلاشنِكوف لا يمكنها أن تضمن النصر، ومع أن عاصفة الأدغال بدأت بدايةً جيدةً إلّا أنها انتهت نهايةً كارثية.

في شهر حزيران عام 1992 شقت مجموعة من الكوماندوس طريقها إلى وسط جوبا واستولت على المقرات القيادية العسكرية لجنوب السودان برمته التابعة للجبهة الوطنية الإسلامية. كان إيمانويل وآلاف من الأطفال المجندين في جيش التحرير على تخوم جوبا وجاءتهم الأوامر للركض نحو الأماكن التي تتمترس بها المواقع الحكومية. في البداية كان الهجوم ناجحاً وبدأ جيش التحرير تقدمه نحو مركز البلدة التي تدعمه، لكن الحكومة السودانية، التي كانت لاتزال تسيطر على القاعدة الجوية في جوبا، قامت برد الفعل.

كان الهجوم الذي شنه الفريق البشير، زعيم الجبهة الوطنية الإسلامية، خلال يوم واحد، بعد أن طار شخصياً إلى جوبا تتبعه الطائرات والدبابات، كافياً لقلب موازين القوى في المعركة. فبينما كان هجوم جيش التحرير الشعبي السوداني يدمدم متقهقراً، أطلق البشير العنان لانتقام مسعور مُرعِب، حتى بالمقاييس السودانية. كان يطلق النار على رجال جيش التحرير الذين استسلموا ويرديهم قتلى في الشوارع ويذبح المدنيين في حالة من الهيجان في القتل والتعذيب؛ وسقط الناجون من السودانيين الجنوبيين في الفوضى. بالنسبة لإيمانويل، كان الرعب الذي انتاب الأطفال مثله مثل الخوف من القتال. "عندما يخسر طفل معركة لا يبقى أمامه سوى الهرب. تلقي ببندقيتك، وتلقي بأي شيء بعيداً. وبعد ذلك تجهش بالبكاء مثل أي طفل صغير. تبكي من أجل أمك. من الصعب على الطفل أن يقاتل ثانية إذا هُزم في الحرب".

أدار إيمانويل ظهره لجيش التحرير الشعبي السوداني وعاد ماشياً يرافقه أربعمائة من الصبيان الآخرين نحو منطقة "تال" في النيل الأعلى. كانت رحلة يائسة عبر بقاع كانت ساحات معارك وعبر أراضٍ ذات أشجار خفيضة. كان الأولاد يتضورون من الجوع فكانوا يطلقون النار على النسور إذا اقتربت منهم ويفتشون تحت الصخور للبحث عن الحلزونات. في بعض الحالات كانوا مجبرين على أكل جثث أولاد آخرين سقطوا ميتين من التعب والإجهاد في المشي. فكان هناك الكثير من الجثث - مئات منهم استسلموا للموت بسبب الجوع ونقص المياه. ولتجنُّب الجنون وآلام الموت عطشاً وضع صبيان منهم فوهات بنادقهم الكَلاشنِكوف في أفواههم وضغطوا على الزناد. وقام آخرون بإجبار الأصغر سناً منهم وتحت تهديد السلاح بالتبول في كوب ليتمكنوا من شرب السائل. كان إيمانويل يمشي لمدة ثلاثة أسابيع وكان على وشك الانهيار عندما أطلق النار على نسر وأخطأه. إطلاقه للنار أنقذ حياته: انجذب قرويون ودودون نحو الضجة فأخذوه إلى منطقة "وات" حيث تتمركز قيادة قوات اتحاد جيش التحرير برئاسة ماشار. لم تكن القرية قريته لكن كتبت له الحياة.

كان هناك سبعون من الناجين فقط بعد هذه المسيرة، الذين سيُعرفون لاحقاً باسم (الصبيان المفقودون). إذ انضموا إلى مئات الألوف من المشردين السودانيين الجنوبيين الذين توزَّعوا على المخيمات في كينيا وجنوب السودان أو أرسلوا إلى مركز "أكول - بيا" وهو مقر الأمم المتحدة في شمال أوغندا الذي أصبح موطناً لأربعة وعشرين ألف لاجئ سوداني. اغتسل إيمانويل وتناول الطعام لكنه لايزال واهناً، ثم وجد نفسه في زيّ جديد مع بندقية كَلاشنِكوف وتمت إضافة اسمه على قائمة حركة ماشار. لكن بعد كارثة جوبا ومقاربة الموت في الرحلة المرعبة عبر جنوب السودان، فقد إيمانويل سروره بكونه ولد الكَلاشنِكوف. فأصيب بالكآبة وهو يتجول حول المخيم. كان إيمانويل فرحاً ببندقية الـ AK عندما رمقته عاملة في المساعدات البريطانية

تدعى "إيما مككونز" كانت تعمل لصالح جمعية خيرية كندية تدعى "الأطفال المشرّدون". كانت إيما قريبة جداً من الصراع السوداني بل متورطة فيه، ربما لأنها متزوجة من ماشار، وهي تدعم قتال الجنوب ضد حكومة الخرطوم. بالرغم من هذا التأييد، فقد كانت ترتعب من وجود أحد ما بعمر إيمانويل في الخطوط الأمامية ويخدم كجندي. لم تطلب منه أن يترك الجيش فقط وإنما أيضاً أخذته إلى المجمع في منطقة "وات" حيث بدأت تعلمه اللغة الإنجليزية وتقدم له طعاماً إضافياً لكي تعوِّضه عما خسره في طريقه من جوبا. خلال بضعة أشهر تحولت مككونز إلى أم بديلة للصبي الذي لم يكن يتذكر أمه الحقيقية.

على الرغم من حمايته من قبل مككونز، إلاّ أنّ إيمانويل الذي كان ما يزال يحمل الكَلاشنِكوف اختار القتال عندما تعرّضت وات للهجوم. كانت الموارد نادرة للغاية في جنوب السودان، وكان اللصوص مسلحين بشكل جيد، ما جعل من الغارات على الدواجن والمواشي تهديداً يشبه تهديد الجيش السوداني. خلال الشهرين التاليين ذهب إيمانويل إلى المعارك عدة مرات ضد مليشسات اللصوص، وهو لايزال بعمر الثانية عشر فقط، ونجا من العشرات من المهام القتالية. سواء كانت نجاته ناتجة عن مهارته أو عن كونه محظوظاً فإنّ فرص عدم تعرُّضه للإصابة محدودة لذلك قررت مككونز أن تنهي الموضوع، فصممت على أن تأخذ إيمانويل بعيداً عن "وات" قبل أن يتعرض للقتل، في شهر كانون الثاني 1993 نجحت في أخذه إلى نيروبي في كينيا بالطائرة ضمن رحلة نظمتها إحدى منظمات المجتمع المدني. عندما اقتربت مككونز من الحراس السودانيين تراجع إيمانويل إلى الوراء واختفى بين مسافرين آخرين كانت قد نفحتهم مككونز رشوة صغيرة فتسلل من بينهم. في المطار قامت مككونز بمغازلة الحراس ليغفلوا عن إيمانويل الذي مرّ بدون حقائب أو أوراق ثبوتية. في نيروبي أرسلته إلى مدرسة ونقلته إلى شقتها في المدينة، لكن بعد

ستة أشهر من وصوله دخل إيمانويل بتجربة أكثر مأساوية. ذات صباح نوديَ إلى خارج الصف وأُبلغ نبأ مقتل مككونز في حادث سيارة وهي حامل في الشهر الخامس. كانت معرفته بها لمدة ثمانية أشهر فقط.

وجد إيمانويل نفسه الآن يعيش في نزل مع "صبيان مفقودين" آخرين. لكنه أيضاً تحت حماية بيتر موزاينسكي، عامل مساعدات بريطاني وصحفي وصديق لمككونز، كان يسافر إلى مناطق الصراع في شرق أفريقيا وأماكن أُخرى ويقوم بكتابة التقارير التي يبعثها إلى الأمم المتحدة. كلما عاد موزاينسكي إلى نيروبي كان يعطي إيمانويل النقود ويساعده على البقاء في المدرسة، لكن بعمر الثالثة عشرة بلغ إيمانويل مرحلة جديدة حيث أصبح مسؤولا عن مصيره فعلياً.

ما أن تكيّف في حياته الجديدة بعيداً عن بندقيته الكَلاشنِكوف، حتى هيمنت البندقية وبشكل متزايد على المناطق الإفريقية شبه الصحراوية. كلما ازدادت الحروب تزداد الحاجة إلى الكَلاشنِكوف وكلما ازدادت أعداد الكَلاشنِكوف اندلع المزيد من الحروب. قادت الصراعات إلى وضع من عدم الاستقرار الاقتصادي وعدم توفُّر الغذاء وفرص العمل لمئات المجموعات من الرجال ما هيّأ الظرف المناسب لكل من يتمتع بكاريزما قيادية وزعماء اللصوص الذين يضمنون لهم تأمين دخلٍ ما اتكالاً على بنادقهم، ولمّا كثُر الرجال الجياع والمحبطون فقد أصبح الكَلاشنِكوف هو الجزء الحيوي في القضية. وتحولت بندقية الـ AK47 من كونها أداة للصراع إلى سبب للصراع، وفي أواسط التسعينيات أصبحت رائد الإرهاب الذي لا يميّز بين ضحاياه في مناطق شاسعة من القارة. إذ كيف يمكن أن يكون الوضع مختلفاً عمّا هو عليه وبنادق الـ AK في كل مكان، مما جعل الاستقرار سلعة نادرة، حتى إن أصغر المجاميع يمكن أن تشكل ضغطاً عسكرياً لا يتناسب مع حجمها الحقيقي. وهكذا فإن حركة صغيرة نسبياً، وغريبة وعنيفة مثل جيش الرب تتنقل في

المنطقة الحدودية بين السودان وشمال أوغندا، يمكنها أن تشعل حرباً وحشية وهي ما قامت به في كلا جانبي الحدود منذ عام 1987.

كان بإمكان كل من قرنق وماشار أن يكونا وحشيين أيضاً، وفي صراعهما مع الحكومة السودانية والحرب الأهلية الداخلية بين جيش التحرير الشعبي السوداني كان كلاهما يقترف الفظاعات؛ لكن كان لديهما على الأقل أهداف عسكرية وسياسية معقولة. على السطح كان صراع جيش الرب، مثل غيره من الصراعات الكثيرة في أفريقيا، عبارة عن حرب يخوضها أناس قبليون مهمّشون - في هذه الحالة، فإن قبيلة "آتشولي" الموزعة بين جانبي الحدود الأوغندية - السودانية هي ضد هيمنة الحكومة المركزية. لكن زعيم حركة جيش الرب "توني كوني" كان رجلاً صاحب رؤى ومن المؤمنين بعقيدة العصر الألفي السعيد، يرافق هذا الايمان معنى قاتل لمهمة إلهية هي فقط ما تنبئ عن الهدف، وهو فرض الوصايا العشرة في الدستور الوطني الأوغندي. كانت قبيلة آتشولي الضحية الأولى للحرب التي شنها كوني وجيش الرب. مع إن القوة القتالية لجيش الرب نادراً ما كانت تتجاوز الخمسة آلاف مقاتل لكن سقط من الضحايا عددٌ لا يقل عن 800، وبوجود بنادق الكَلاشنِكوف مع الاستخفاف التام بحياة المدنيين، بدأ العدد يرتفع. وتحول الامر منذ عام 1987، نحو الأذى المفرط والشقاء الاستثنائي.

بحلول العام 2005 كان هناك اثنا عشر ألف قتيل كنتيجة مباشرة للحرب وآلاف آخرون بسبب الأوبئة والمجاعة التي تلت الحرب، إضافةً إلى تشريد مليونيّ مدنيّ.

عندما كان كوني يخسر رجالاً من أتباعه – وهو ما كان يحدث له في الأيام الأولى، حيث كان رجاله يتشكّلون، قبل قيامهم بالهجوم، على شكل صليب حاملين المشاعل، وهذا ماجعل منهم أهدافاً سهلة لخصومهم. ومن أجل أن يعوض ما يخسره من مقاتلين كان يقوم بخطف أطفال من قبيلة آتشولي

ويضعهم بدلا منهم. كان هناك عشرون ألف طفل أُخذوا بهذه الطريقة بحلول العام 2005. على خلاف "الصبيان المفقودين" لجيش التحرير الشعبي السوداني لم يكن هناك فرصة لهؤلاء الأطفال المجندين للهرب. كانوا يتدربون ليس فقط على قتال العدو بل على القتل بلا سؤال من أجل دعم التكتيك الأولي لجيش الرب. في الحقيقة إنه التكتيك الوحيد، وهو في الأساس لب الاستراتيجيا: أي أنّه إرهاب مطلق.

كان العهد "القديم" الملهم لكوني في الحرب المقدسة يصاحبه تقليد عن ثورات دينية مُلهِمة في المنطقة. كان كوني يعتبر نفسه موسى، برغم أنه لم يتوقع رؤية الأرض الموعودة التي من المفترض أن عمليات القتل كافةً جرت من أجلها. بلا أي شعور بالمسؤولية عن أفعاله، كان كوني يحافظ على موقف العهد القديم من أعدائه - كان جذّ الأيدي وبتر الأرجل وجدع الأنوف وشرم الآذان لكل مدني يُعتقد أنه مذنب بحق جيش الرب. وعلى رغم الخوف من هجمات جيش الرب، فإن قبيلة آتشولي كانت ترى أن الأطفال المخطوفين الذين يقترفون هذه الجرائم هم أنفسهم ضحايا. هذا ما وضعهم في وضع مُعقَّد: فهم بحاجة إلى الحماية من هجمات جيش الرب، لكنهم لا يستطيعون دعم عمل الحكومة ضد مضطهديهم الذين تحولوا أكثر فأكثر نحو سياسة ثابتة هي المذابح.

بسبب تسليح ودعم الحكومة الأوغندية لجيش التحرير الشعبي السوداني ضد الجبهة الوطنية الإسلامية، قامت الحكومة السودانية بدعم جيش الرب. طوال عقد التسعينيات وحتى القرن الجديد كانت الصراعات محتدمة في المناطق الحدودية للبلدين. وبتقدم إيمانويل من طفل مجند إلى لاجئ ثم إلى موسيقي كان هناك لاجئون سودانيون يتعرضون لإطلاق النار أو يقطعون بالفؤوس حتى الموت على يد جيش الرب. في عام 1991 ذُبح مائة سوداني عندما غزى جيش الرب قبيلة آتشولي - باي. وعندما عاد جيش الرب ليمارس

القتل مرة أخرى في العام 2002 أقفلت الأمم المتحدة نهائياً مخيم اللاجئين.

كانت حظوظ جيش الرب مُتقلّبة: أحياناً كان يقع أفراده في الكمائن التي تنصبها لهم القوات الحكومية، وفي مناسبات أخرى تستفيد قواته من العفو الذي تصدره الحكومة ويقومون بتسليم أنفسهم. لكن مع الدعم ببنادق الـ AK القادم من السودان وقدرة جيش الرب على الاختفاء في الأدغال الهائلة الاتساع كان من المستحيل عملياً أن يتعرضوا للهزيمة. طبقاً للتكتيك الكلاسيكي للثورة المضادة في عدم منح حركة رجال حرب العصابات بحراً يسبحون فيه، شكّل الأوغنديون في العام 1991 مليشيات دفاعية من أوساط قبيلة آتشولي لمقاومة جيش الرب. كانت هذه المليشيات مسلحة بالأقواس والسهام، لكن الأقواس والسهام لم تكن فعالة في مواجهة أطفال يحملون بنادق الكَلاشنِكوف. أعطى كوني الأوامر لرجاله وصبيانه إذا لاحظوا أي إشارة للمقاومة في أوساط السكان المحليين أن يعدُّوها انتهاكاً، وينزلوا بأي واحد يُشك باستخدامه للقوس والسهام "مجرد شك ولو من بعيد"، عقوبة تقطيع الأوصال بالفؤوس. كانت هذه العقوبة تطبق بلا رحمة على جميع سكان القرى - رجالاً ونساءً وأطفالاً.

في النهاية استبدلت الحكومة الأوغندية في العام 2003 الأقواس والسهام ببنادق الكَلاشنِكوف. فارتخت قبضة جيش الرب عن أرض قبيلة آتشولي، وانتقل العديد من مقاتليه إلى داخل السودان عبر الحدود. وعلى رغم أن الحكومة لم تحقق النصر النهائي الذي كانت تنشده، فإنها حققت من النجاح ما يكفي لخفض مستوى الرعب وتقطيع الأوصال. لكن هذا الموضوع كان له ثمن - فقد أصبح السكان من قبيلة آتشولي أقوياء ببنادق AK. فحينما يدخل الكَلاشنِكوف إلى مجتمع يصبح من المستحيل إزالته، فهو كالفايروس المُعدي الذي ينتشر في الوسط الذي يستضيفه، والمرض الذي يسببه هو الصراعات. في العام 1998 كان هناك تخمينات بوجود مليونيّ بندقية الـ AK

متعددة المصادر في أوغندا؛ وتضاعف الرقم بعد خمس سنوات. في محاولتها هزيمة جيش الرب، كان كل ماتملكه الحكومة الأوغندية هو فقط خلق الظروف المناسبة لمزيد من الصراع.

في الجانب الآخر من الحدود، في السودان بدا أن هناك أخباراً أفضل. ففي شهر كانون الثاني 2005، وبعد عامين من المفاوضات بين الحكومة السودانية وجيش التحرير الجنوبي، تمّ توقيع معاهدة بين الجانبين في نيروبي. يتمتع الجنوب فيها بشيء من الاستقلال، ولن يكون خاضعاً لقوانين الشريعة الإسلامية، وسيكون له رئيس الوزراء، ومع ذلك فإن الاتفاقية لم تكن واسعة النطاق ولا شاملة بما يكفي لتشمل دارفور، وهي الإقليم الغربي للسودان حيث تتواجد جبهة التحرير السودانية (وهي منظمة انفصلت عن جيش التحرير الشعبي السوداني) التي كانت تقاتل ببنادق الكَلاشنِكوف وعلى نطاق واسع المليشيات المدعومة من الحكومة، التي قامت خلال الشتاء بين عامي 2004 و2005 بعمليات إبادة جماعية للسكان من الأفارقة السود. بدت الاتفاقية على الأقل عرضاً لخطوة جوهرية إلى الأمام على طريق السلام في السودان وعلى اعتبار أن الحكومة الكينية هي من استضافت المحادثات لذلك أقامت حفلاً مسائياً في التاسع من كانون الثاني. كان على القائمة مغني راب شاب بعمر الرابعة والعشرين من جنوب السودان – هو إيمانويل جال.

إيمانويل الذي أصبح الآن نجماً واعداً في كل مكان من شرق أفريقيا، كان قد قضى سنواته الأخيرة في نيروبي يغني ضمن كورس إنجيلي أسسته الكنائس الإنجيلية الأميركية، ويستمع لأغاني الراب الأميركية. ثم تطور ليصبح مغنياً قوياً، إذ أنه في أوائل العشرينيات من عمره كان يجتذب الحشود إلى زوايا الشوارع ليستمعوا لأدائه. وعندما اتسعت شعبيته بدأ بكتابة أغانيه بنفسه - وهي أغانٍ عن الحرب وعن الأطفال المجندين - بعدة فترة أصبحت الحشود مستعدة أن تدفع المال لكي تسمع أغانيه. يئِسَ موزينسكي من إقناع

إيمانويل أن يأخذ أي مبلغ من المال لنفسه، اذ كان يدفع ما يحصل عليه من اجل توفير المأوى والدراسة لأصدقائه من الناجين من المسيرة العظيمة التي قاموا بها من جوبا، الصبيان الذين كانوا يطلقون النار على النسور من بنادق الكَلاشنِكوف والذين كانوا يَرون أصدقاءهم أمامهم يتضورون من الجوع حتى الموت. كانت إحدى الأغاني على وجه الخصوص أكثر شعبية من غيرها: هي "غوا" - نَوَر من أجل "السلام"، وهي التماس لإنهاء الحرب في السودان وتفجُّع على الأطفال المجندين. آمن موزينسكي الآن بأن إيمانويل كان "صوت من لا صوت له"، فأدار جلسة تسجيل في ستوديو نيروبي. نتج عنها نسخة وحيدة لأغنية "غوا" أصبحت الأكثر انتشاراً في كل مكان من شرق أفريقيا.

أذيعت أغنية "غوا" لإيمانويل في حفلة غنائية، ولقيت ترحيباً جيداً فُطلب منه الانضمام إلى موسيقي بارز من شمال السودان هو عبد القادر سالم لتسجيل ألبوم احتفالاً بوقف إطلاق النار وبالمعاهدة. لكن التوتُّر كان لا يزال شديداً مما جعل من المستحيل على إيمانويل أن يزور الخرطوم، لذلك أرسل عبد القادر التسجيلات إلى لندن حيث قام إيمانويل بدبلجة أغانيه عليها.

في لندن وفي العام 2005 كانت أفريقيا والحرب على رأس أجندة وسائل الاعلام. وكان قد حان موعد اجتماع الدول الصناعية المعروفة باسم G8 والمقرر عقده في سكوتلندا في منتصف العام. كانت حملات ومجموعات الضغط مثل مجموعة "اجعلوا الفقر شيئاً من الماضي" تريد استغلال الفرصة للضغط على الأمم الصناعية الأغنى في العالم لكي تزيل عبء الديون عن كاهل البلدان الأفقر في العالم. كانت الثقافة الشعبية الغربية ترفع قضية المعاناة في أفريقيا كقضية أخلاقية تخصها وحدها، منذ العام 1985 عندما أطلق غلدوف دعواته للمساعدات المباشرة في حفلاته الموسيقية. كان هناك توق لإعادة الكرّة: كانت موسيقى الروك على وجه الخصوص تسعى إلى استغلال أية مشاعر تتعلّق بالقضية لتقتبس منها. وكما حدث في أوائل

السبعينيات عندما فازت فرقة روك بريطانية لشبان صغار تدعى فرقة "الاصطدام" برمز الكَلاشِنِكوف الذي يضعونه على قمصانهم، (في الحقيقة كانت بندقية MP5 نصف آلية من طراز هكلر وكوتش، ولأنها تحولت إلى أيقونة مثل الكَلاشِنِكوف كانوا يعتقدون أنها بندقية الـ AK)، وهذا الرمز تحمله أيضاً منظمة إرهابية ماركسية ألمانية هي الجيش الأحمر، التي تعرف بمنظمة بايدر - ماينهوف. في الآونة الأخيرة حققّت مجموعة "وعاظ الشارع المجنون" (مانيك ستريت بريتشرز) نجاحاً عالمياً بأغنية "كيفن كارتر" التي تتحدث بأسى عن الصراع في أفريقيا الجنوبية، وفي الوقت نفسه، تحتفل بروعة مشاركته فيها عبر أغنية "Bang bang club AK 47Hour". أصبحت الحرب في أفريقيا صفة مميزة لفن الروك، حتى إن الصور التي تُعبِّر عنها من قبيل الأمهات وأولادهن الذين يتضورون جوعاً، والكَلاشِنِكوف الذي يحمله الأطفال المجندون، صارت جزءاً من عملية بيع التسجيلات. بالنسبة لفرق الروك، كانت هذه الإشارات تهدف إلى خلق أجواء راديكالية. وفي العام 2005 أقامت جمعية خيرية حفلاً موسيقياً بعنوان "طفل الحرب، حفل حي رقم 8" ضمن حملة لتخفيف معاناة الأطفال في مناطق الصراع، فكان هناك الكثير من بنادق الكَلاشِنِكوف التي رفعتها مختلف الفرق المشاركة.

ولأن إيمانيول جال كان محارباً قديماً متمرساً في الحرب والجوع والتهجير القسريّ، قبل أن يبلغ الرابعة عشر من العمر، فهذا يعني أنه يمتلك ميزة رائعة تناسب هذه الأجواء. عندما استخدم موزينسكي صلاته بالأمم المتحدة لكي يأخذ إيمانويل لاجتماع أدنبرة لتدشين حملة "لنجعل الفقر شيئاً من الماضي" كان إيمانويل يتمتع بحفاوة فران هيلي، وهو الرجل الأول في فرقة روك بريطانية تدعى "ترافيز". أصرَّ هيلي المفتون بمواهب إيمانويل على أنه يجب أن يشترك في الحفل.

لكن بوب غلدوف هو الذي كان يقرر من الذي يعزف في الحفل رقم 8،

وعندما تعارف إيمانويل بغلدوف بدا واضحاً أن الأخير غير مهتم بأن يوضع طفل أفريقي مجندٌ سابقاً على خشبة المسرح في الحفل الرئيسي المقام في الهايد بارك. قال غلدوف ل إيمانويل "عليك أن تبيع أربعة ملايين نسخة مسجلة لكي تفعل ذلك. ولو صعدت على خشبة مسرح الهايد بارك فسيطفئ الصينيون تلفزيوناتهم". بدا أن أصل إيمانويل يشكل له عائقاً: فقد تمَّ تهديد الرجل بالإبعاد عن الغرب وإعادته إلى أفريقيا حيث تنتشر بنادق الكَلاشنِكوف.

لكن ما لم يكن معلوماً لدى إيمانويل جال هو أنه كان هناك شعورٌ بعدم الارتياح في أوساط المراقبين حول الطبيعة البيضاء المقصودة لحفلات الروك التي حجز لها غلدوف: فالحفل المقام من أجل أفريقيا لم يبدُ أفريقيا. وقد أعطى غلدوف تعليماته لبيتر غبرايل، وهو موسيقي يتمتع بالشهرة لعمله في موسيقى "العالم"، لتنظيم حفل بديل لحفل رقم 8 وهو حفل أطلق عليه "مشروع جنة عدن" يقام في كورنوول، حيث يستطيع مختلف الفنانين الأفارقة المشاركة. يأتي الكثير من هؤلاء الفنانين من بيئة ثقافية كان الكَلاشنِكوف هو الملك المتوّج فيها. وجميعهم يتمكنون من إعطاء الأجوبة المناسبة على سؤال لماذا يجب أن تكون السيطرة على الأسلحة الصغيرة في قمة أولويات العالم عندما يأتي لتقديم المساعدة لأفريقيا.

عزف إيمانويل مقطوعة "قارب الكورنش". سواءٌ أكان مصيباً أم مخطئاً، فقد قدم نفسه كتجسيد للمعضلات التي يدّعي الموسيقيون الغربيون أنهم ينكبّون عليها. أكثر من ذلك، شعر بأنه يجب أن يكون هناك سبب لمعاناته ولمسيرته الطويلة بين الأشجار الخفيضة عندما كان الناس من حوله يتضورون جوعاً. لماذا عندما كان الأطفال في ساعة غضبهم يطلقون النار من بنادق الـ AK حول مخيم التدريب لم تصبه رصاصة؟ ولماذا لم يصبه شيء عندما كان يركض في المعركة بلا سلاح على الإطلاق، كان ينتظر فقط متى يلتقط الكَلاشنِكوف من الصبي الذي يركض أمامه؟ لماذا استطاع أيضاً ينجو إن لم يكن لسبب؟

بمثل هذه الثقة بالنفس اختطف إيمانويل عرض "جنة عدن" واستمر في أوائل أيلول بالظهور إلى جانب فرق "راديو هيد" و "كولد بلي" في ألبوم "طفل الحرب" الخيري. وعلى غرار مشروع "الأولاد المشردون" لايما مككونز، كان مشروع "طفل الحرب" عملاً خيرياً مكرّساً لمساعدة الأطفال في مناطق النزاع. لكنه وبذكاء داعب وتر حاجة الروك إلى الكَلاشنِكوف. بالنسبة للفرق المشاركة في مشروع إيمانويل كان الأخير صفقة حقيقية. كان ولد الكَلاشنِكوف الفعلي وهو الذي زود الألبوم بمجد صراع فعلي. في آخر أيلول كان ألبومه "وقف إطلاق النار" مع عبد القادر سالم منجزاً. كان هذا الألبوم عن السلام لكن البطاقة المُلصَقة عليه كانت "شبكة الموسيقى العالمية". كانت بلا شك حول الأيقونة الجذابة لبندقية الـ AK وأظهر الغلاف صورة مظللة لشخصين من رجال المليشيات يقفان باسترخاء – من المفترض أنهم خارج الخدمة الآن - وتتدلى ذراعا كل منهما على بندقيته الكَلاشنِكوف التي وضعها على كتفيه من الخلف على منوال نجم السينما جيمس دين.

تحولت مهارات إيمانويل في استخدام بندقية الكَلاشنِكوف أكثر فأكثر إلى جواز سفر جلبت له اهتمام أكبر وسائل الاعلام. فدعي لإلقاء خطاب في مؤتمر للأمم المتحدة عن موضوع الأطفال المُجنّدين. في تشرين الأول فضّلته النيويورك تايمز على مغنيّ الراب الأميركيين باعتباره الشخص الذي كان حقيقة قد "اجتاز وادي الموت". وبينما حوّل إيمانويل اهتمامه ليكتسح السوق الأميركية، بقي بيتر موزينسكي في بريطانيا، حيث كانت شقته في شمال لندن تتزين بأشياء مصنوعة من فوارغ طلقات وأجزاء من بندقية الـ AK: تمائم وحليّ، وأجزاء من آلات وتماثيل صغيرة وتذكارات نحاسية لجلب الحظ الجيد والحياة المديدة مصنوعة من الخراطيش. كان يعرضها على الزوار وأيضاً، بعد التنقيب من خلال نظام الملفات المختلطة لديه، كان هناك بعض الصور كان قد التقطها قبل خمس وعشرين سنةً في أفريقيا.

كانت من بين تلك الصور لقطات لأشخاص مُهجّرين بمخيم في سيراليون في العام 2001، وتعكس أحد الصراعات الأفريقية التي شهدها موزينسكي. وتظهر إحدى الصور صبياً بعمر التاسعة بترت يده اليمنى بواسطة منجل، وفتاة أخرى فقدت كلتا يديها. وفي الجانب الخلفي لإحدى الصور يقف افراد من قوات حفظ السلام التابعة لمنظمة الوحدة الأفريقية حول كدس من بنادق كَلاشنِكوف مزيتة وبسواعد معدنية سوداء. كانت هناك إشارة إلى المخيم جاء فيها "يجب علينا أن نكف عن تقطيع الأوصال لأنها ستفسد لنا مستقبلنا". كان هناك حشد من الأطفال يتحلقون حول الفتاة التي ليس لها يدان.

كان نصف دزينة من بنادق الـ AK هو كل ما تحتاجه لإيقاف سعار تقطيع الأوصال الذي لحق بهؤلاء الناس التعساء. لم يكن هناك نجوم روك ليستغلوا ما تقوم به هذه البنادق ويحولوه إلى تجارة رابحة. ولن يكون هذا المشهد جيداً للتصوير، فليس هناك سوى بضعة من الرجال يرتدون البدلات الرسمية بمنظر يبعث على الضجر وهم يمضغون العشب ويغيّرون حراسهم بين الفينة والأخرى. كان موزينسكي قد عرض الصور على الصحافة لكنه لم يلقَ اهتماماً من أحد. كما أن بنادق الكَلاشنِكوف تقوم بعمل جيد ولا تبيع الصحف أو الأقراص المدمجة لحفلات الروك.

في نهاية العام 2005، وبعد عدة صدامات بين جيش التحرير الشعبي السوداني والقوات الحكومية في جنوب السودان، تم توقيع المعاهدة في شهر كانون الثاني من السنة التي تلت على وعد الحل.

٦ - منظر الارهاب

بعد مرور سنة على الهجمات بالقنابل التي تعرضت لها لندن والتي قُتل فيها 52 شخصاً في السابع من تموز 2005، كنت جالساً لتناول القهوة التركية في مقهى عربي مع مراسل حربي مشهور في التلفزيون البريطاني. من النافذة استطعنا أن نرى محطة أنفاق أدوار رود، حيث قتل تسعة أشخاص مع زعيم إحدى المجاميع وهو، محمد صديق خان، عندما فجّر قنبلته. بعد بضعة أيام من محادثتنا تم نشر الآتي: في العام 2001 كان خان يقوم بزيارة إلى معسكر الحديبية في الفلبين، وهو قاعدة عسكرية تديرها جبهة تحرير مورو الإسلامية، وهي فصيل مسلح يقاتل من أجل إقامة دولة إسلامية مستقلة في جنوب الفلبين. تلقى خان في معسكر الحديبية فصلاً دراسياً أولياً عن الجهاد الحديث أو الحرب المقدسة يتألف من تعليمات ووصايا سياسية ودينية وتقنيات تصنيع القنابل وتدريبات جسدية مناسبة. وفي الختام وصل الأمر المحوري في الفصل الدراسي وفي الحياة في المعسكر ألا وهو: التدريب على الكَلاشنِكوف.

كان معسكر الحديبية يمثل فقط حلقة واحدة في سلسلة من المعسكرات والمراكز التي تمتدّ من الشرق الأقصى مروراً بالباكستان، وأفغانستان والعراق. كان المراسل قد عمل في العراق وفلسطين والقرن الأفريقي وقد رأى من خلال عمله مدةَ خمس سنوات الآلاف من بنادق الـ AK في أيدي المقاتلين الإسلاميين، والجنود الحكوميين ورجال المليشيات. لكن تركيزه في هذا الصباح الصيفي لم يكن على الكميّات الهائلة من بنادق الكَلاشنِكوف

التي تتدفق كالسيل على العالم الإسلامي بل على ما اعتبره تعاملاً غير منصف مع المسلمين البريطانيين من قبل الصحافة الشعبية البريطانية، التي قدمتهم وكأنهم أداة جاهزة للعنف والإرهاب. بينما كنا نرتشف القهوة التركية الكثيفة لم نتطرّق إلى المفارقة الكبيرة التي اتضحت لي وأنا أتأمّل في الروابط بين المجموعات الجهادية لجنوب آسيا والمسلمين البريطانيين؛ فالحقيقة هي أنّ رأي تلك المجموعات الجهادية بالمسلمين البريطانيين مطابق تماماً لرأي الصحافة الصفراء، فهم يرون في الساخطين من إخوانهم في الدين خزّانا ممكناً للمجاهدين. في جو الشكوك المتنامية والقلق أراد الصحفي من الرأي العام أن يدرك بأن الشباب البريطاني المسلم ليس زمرة من الإرهابيين المتعصبين الذين يريدون أن يدمّروا المجتمع الغربي، بل أنهم مثل أكثرية مواطنيهم، همُّهم الأوّل العيش بسلام. تحدّث عن "شيطنة" الشباب المسلم في بريطانيا والأجندة الهستيرية للصحافة البريطانية التي تهتم بترويج صحفها أكثر مما تهتم بالتصوير الدقيق لما يجري داخل الجاليات المسلمة.

ضرب المراسل مثالاً على ذلك قضية مسجد ميدان فاينسبري في شمال لندن: "الذي أُشيع عنه أنه موقع راديكالي، في حين أنه مسجد كبير للغاية. يتّسع لألف مصلٍ في وقت واحد، لكن ذلك كلّه اختزل بخطيب واحد يعِظ في الشارع خارج المسجد". هذا الخطيب، المدعو، أبو حمزة المصري، الذي كان قد حكمت عليه محكمة بريطانية بثماني سنوات في شباط من العام 2006 بتهم إثارة الكراهية العرقية والتحريض على القتل. قَدِم أبو حمزة المصري المولود في مصر، إلى بريطانيا العام 1979 لغرض الدراسة، لكن بعد أن أعاد اكتشاف عقيدته الإسلامية أصبح خطيباً يلقي الخطب النارية التي تحرِّض على الجهاد. أُجبر على إلقاء خطبه في الشارع بعد أن منعته إدارة المسجد من إلقاء الخطب داخله. إنَّ مظهر أبي حمزة - الذي كان قد فقد كلتا يديه وإحدى عينيه بينما كان يعمل في نزع الألغام الروسية في أفغانستان، فزود بكلابين في

يديه وعصبة على عينه، إضافةً إلى مهارته الاستعطافية، كل ذلك جعل منه هدفاً رائجاً للصحافة البريطانية التي كانت تجتمع بانتظام لسماع تنديداته بالغرب التي يطلقها وهو محاطٌ بحلقة من رجال الشرطة البريطانيين لحمايته. كانت الأحداث التي تجري خارج مسجد فاينسبري يمكن أن تشبّه بسيرك، لكن أبو حمزة لم يكن مهرجاً، بل كان كسائر المقاتلين الإسلاميين، يرى في بندقية الكَلاشنِكوف السلاح الرئيسي لتلك الثورة. كانت هناك نشاطات جدّية في المسجد خلف المشاهد الهزليّة في الشارع.

سألتُ مراسل التفلزيون: "ماذا عن الإشاعات بصدد وجود بنادق الكَلاشنِكوف في المسجد؟".

أنزل من يده فنجان القهوة واعترف قائلاً: "نعم، أمر لا يصدّق، حقيقةً، لكني لا أعتقد أنها تشكل خطراً حقيقياً. إنها رمزية الكَلاشنِكوف بالنسبة لهؤلاء الناس أكثر من كونها أي شيء آخر. فالسلاح في الشرق الأوسط يمثل المقاومة - ذلك هو السبب في انجذاب المتطرفين الغربيين له. بالنسبة للشباب المسلم الذين تعرّضوا للأفكار الجهادية، فإن حمل بندقية الـ AK يربطهم بكل صنوف المقاتلين في فلسطين، وأفغانستان، والعراق والقاعدة. هذا كل ما في الأمر بشأن بنادق الكَلاشنِكوف في مسجد فاينسبري. لا أعتقد أن أحداً ما ينوي جديّا الذهاب إلى وسط لندن وهو يحمل بندقية الـ AK47".

في 20 من كانون الثاني 2003 وعلى إثر مداهمة الشرطة للمسجد تمَّ اكتشاف مخبأ للأسلحة وبطاقات ائتمان وجوازات سفر كانت مخبّأة في سقف الطابق السفلي. لم يتمّ العثور على أي بندقية كَلاشنِكوف، غير أنّ مسلمين بريطانيين أخبروا الشرطة بأن هناك على الأقل بندقية واحدة كانت في المبنى في آواخر التسعينيات. كانت المخابرات البريطانية مقتنعة بأن هناك بنادق الـ AK في المبنى لأنه كان لديها مخبرٌ في منظمة أبو حمزة على الأقل خلال فترة الاستجواب. في الحقيقة، كانت المخابرات البريطانية

قد سمحت لمرافقي أبو حمزة أن يحضروا دروساً في "الهوم كاونتيز" حيث قام بعض العسكريين البريطانيين السابقين بتدريبهم على استعمال بنادق AK47. وكان هذا تكتيكاً استخبارياً قديماً: يتمثّل بالتمويل والسيطرة على نشاطات المجموعات الثورية، بعد ذلك تستطيع أن تنهيها متى ما تشاء وحيثما تشاء. لكن المخابرات البريطانية أخطأت في تحديد الهدف من وجود بنادق AK. لم يكن الهدف من التدريب خلق كادرٍ من ثوّار المدن، بل على الأصح كان حفلاً لتلقين المبادئ قوامه الأساسي كان الكَلاشنِكوف. كان المراسل على حق: فوجود بنادق AK47 في مسجد فاينسبري لم يكن يعني أبداً أنها ستستخدم في شوارع لندن. كان الغرض منها أن تكون رمزاً للجهاد بالنسبة للشباب المسلم البريطاني وهي تقنية تعلّمها أبو حمزة والمتطرّفون الآخرون الذين يتخذون من بريطانيا مقراً لهم، من أسامة بن لادن، أستاذ الحرب الإسلامية المُنظّمة في العصر الحديث، وهو من استخدم وبكل إصرار الكَلاشنِكوف رمزاً لجهاده.

التقط بن لادن بندقية كلاشنوف في البداية عند الحدود الأفغانية - الباكستانية عام 1979 عندما كان الشخصية الرئيسية لما يسمى بـ "مكتب الخدمات"، وهو منظمة أنشئت لتشكل قناة لتوصيل بنادق الكَلاشنِكوف والمتطوعين للمقاومة الأفغانية من خلال شبكة من المعسكرات على جانبي الحدود. لقد اجتذبت الحرب مسلمين من مناطق الشرق الأوسط كلها وما وراءه إلى جبال هندكوش الجرداء، كما جاءت بالملايين من بنادق الـ AK لتسليحهم.

إن ثقافة المقاتل الشرس متأصّلة في أفغانستان قبل دخول الإسلام، لكنّ وصوله أسهم في تنميتها وأعطى تسويغاً جديداً لولع القبائل الجبلية بالقتال. وَجَدَت بعض المُوجبات التي تحث على القتال في القرآن نظيرها المثالي في ثقافة الإرث الذكوري الذي يستند إلى نظام الشرف من خلال القتال. كانت

معايير الرجولة تتجسد بامتلاك السلاح لدى القبائل البشتونية على جانبي الحدود بين باكستان وأفغانستان، فالخلافات كانت تُحلُّ بالبندقية، كما كانت العدالة تُفرض بالسلاح، أما ثروة الرجل فتُقيّم بعدد الأسلحة التي يمتلكها وتلك التي تكون تحت تصرفه، فضلاً عن أن السياسات المحلية كانت تديرها الأسلحة. عاشت القبائل الأفغانية مئات السنين في عزلة نسبية، كان أفرادها أحراراً في قتل بعضهم بعضاً، لكن لم يكن لهم تأثير يذكر في مجريات الأحداث في عالم ما وراء حدودهم الجبلية. بعد ذلك وفي القرن التاسع عشر وجدت أفغانستان نفسها في نقطة التقاء بين أعظم قوتين متوسِّعتين، الإمبراطورية الروسية التي تزحف من الشمال والإمبراطورية البريطانية التي تتقدّم شيئاً فشيئاً من الهند.

شعرت كلتا القوّتين بالندم لاشتباكهما مع عدوٍّ صعبٍ لا يعرف الرحمة على أرضه. عندما أرسل البريطانيون ألفين و500 من الجنود إلى الشمال من الهند عبر الجبال نحو كابول في عام 1880 تركهم الباشتون يعبرون الحدود، ثم هاجموهم بجيش قوامه خمسةٌ وعشرون ألف مقاتل. قُتل في الهجوم ألف من الجنود البريطانيين وفرّ الباقون، تاركين أسلحتهم وراءهم. بعد مائة عام خاض السوفييت، الذين غزوا أفغانستان في العام 1979، تحت غطاء دعوة مزعومة من الحكومة الماركسية التي كانت تواجه معارضة داخلية كبيرة، تجربة مشابهة بتسليحهم عن غير قصد عدوّاً مخيفاً بتقنية أفضل من التي كان يمتلكها سابقاً. لكن السوفييت ليسوا كالبريطانيين فقد بقوا ليواجهوا العواقب في حرب دامت عشر سنوات، كلفت رقما هائلاً من الخسائر في أرواح الروس والأفغان وحوّلت الكثير من المناطق في البلاد إلى أرض للقتل لا يحكمها قانون. فمنذ العام 1979 وما بعده منح اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية الحكومة الأفغانية الآلاف من بنادق الكَلاشنِكوف، لكن على الرغم من أن الحكومة كانت ماركسية، فإن الكثير من جنودها المجندين بالإكراه،

من القبائل الجبلية، لم يكونوا كذلك. كان هؤلاء الجنود يتحينون الفرص لكي يهربوا ويلتحقوا بالمُسلّحين من المجاهدين المناوئين للحكومة، وكانوا يأخذون بنادقهم الكَلاشنِكوف معهم. وكان الاستيلاء على قافلة روسية يعني في المُحصِّلة تدفق المزيد من تلك البنادق إلى المجتمع الأفغاني. وعندما بدأت وكالة المخابرات الأميركية السي آي أي بإرسال شحنات من بنادق الكَلاشنِكوف إلى افغانستان من خلال باكستان، وجدت المنطقة نفسها على رأس قائمة البلدان التي تكتَّظ ببنادق الكَلاشنِكوف في العالم.

إن الكثير من بنادق الـ AK التي وصلت إلى المناطق الحدودية بين أفغانستان وباكستان كانت قديمة جداً، أي صينية من طراز 56 أو حتى بنادق AK47 روسية أصلية، إلا أنها كانت ميكانيكياً دقيقة، ولأنها كانت بسيطة للغاية فهي تحتاج فقط لتجديد أولي لتكون جيدة وصالحة لثلاثين سنة أخرى من الاستخدام. حتى المناظر الطبيعية في أفغانستان كانت قد تغيرت بسبب الكَلاشنِكوف. فبعد النجاحات الأولى للمجاهدين في هجماتهم العسكرية على القوافل، أزال الروس النباتات والأشجار عن جانبي الطريق لمسافة 300 متر، وهو المدى المجدي لبندقية الـ AK47. وعمدوا إلى تجريف الأشجار والأجمات من أحد الجوانب في كل الطرق الرئيسية بالدبابات والبلدوزرات أو برشها بسائل كيمياوي لتعريتها من الأوراق. الأمر الذي أظهر عجز القوات السوفييتية أمام سلاح كانوا يعتقدون أنه سلاحهم الخاص.

فشلت الحكومة الباكستانية في رؤية وتقدير حجم التهديد الذي يمسّ أمنها الخاص لتورطها بالصراع تورطاً كاملاً عبر الحدود. ولكي تتمتع بدعم كامل من الحكومة الأميركية التي رأت في الإسلام المقاتل العصا المناسبة لضرب الماركسية السوفييتية، استجابت باكستان وواجهت الغزو عبر تحولها إلى قناة لضخِّ كميات هائلة من الأسلحة إلى أفغانستان لتسليح مختلف المجموعات الأفغانية. مئات الآلاف من بنادق الكَلاشنِكوف الرخصية والتي يصعب تتبع

أثرها وجدت طريقها إلى الأقاليم في المنطقة الحدودية الشمالية الغربية. لم هذه المنطقة لم تكن تحت السيطرة الحكومية الكاملة منذ تأسيس الباكستان في عام 1949، وبإغراقها ببنادق الكَلاشنِكوف تأكدت الحكومة أنها ستبقى الحقيقة الواقعة لعقود مقبلة من الزمن. عندما دخلت القوات الحكومية المنطقة تسامحت في موضوع فرض سلطتها كما كانت تفعل دائماً؛ لذلك كان من الطبيعي ألّا تكون هناك سلطة مركزية وكانت كل قبيلة أو زعيم من زعماء الحرب متأكدين من أن لديهم ما يكفي من الرجال المسلحين للسيطرة على مناطقهم وحمايتها من جيرانها. ولكي توجِّه وكالة المخابرات الباكستانية ضربة إلى الروس، حوَّلت مناطق واسعة من بلدها إلى معسكرات مسلحة، ولَّدت، وعلى نحو يدعو للأسف ماكان يسميه مسؤولوها "ثقافة الكَلاشنِكوف".

ومع انتشار الحرب، قَدِم مئات الآلاف من اللاجئين إلى داخل البلاد واستقروا في بلدات من الأكواخ في داخل مدنيتي بيشاور وكويتا وما حولها، خارج السيطرة المباشرة للشرطة الباكستانية ووكالة المخابرات الباكستانية، فيما كانت عصابات الكَلاشنِكوف تتنافس على إدارة هذه التجمعات السكانية. أصبحت معارك السلاح الدائمة حقيقة مميتة عن الحياة في المعسكرات التي تحولت إلى عالم مصغَّر لثقافة الكَلاشنِكوف المنتشرة في الشمال الغربي لباكستان. كان المقاتلون الأفغان يتنقلون ذهاباً وإياباً عبر الحدود كما يَحلو لهم، وتطورت صناعة الأسلحة في الأكواخ عندما اكتشف السماكرة أن معلوماتهم التقنية البسيطة كافية تماماً لإصلاح بنادق الكَلاشنِكوف. أصبحت بعض البلدات والمدن الباكستانية في النتيجة أسواقاً للسلاح تحقق الأرباح. كانت "ساخكوت" التي تبعد 65 كلم شمال شرق بيشاور عبارة عن حوانيت تبيع بنادق الـ AK وورش عمل لإصلاح الأسلحة المتضررة وتجديدها. كان هناك تنوع واسع لموديلات بنادق الكَلاشنِكوف

– مثل AKM وAK47 وAK74 – ولأن السوق كانت متخمةً والبنادق رخيصةً. في العام 2002 كانت بندقية AKM تُكلِّف 200 دولار أميركي وموديل AK74 بسعر 250 دولاراً. حتى أن بعض السماكرة المغامرين بدأوا بإنتاج موديلاتهم الخاصة من بنادق الـ AK من قطع الغيار الفائضة. كان هذا جيداً بما يكفي لجذب انتباه – وإعجاب - ميخائيل كَلاشنِكوف، كما أخبرني عندما قمت بزيارته. لكن اختراع الجنرال كان بقصد مساعدة الجنود السوفييت؛ لكن البنادق التي خرجت من معطف هذا الاختراع والتي انتجتها الورش المظلمة في "ساخكوت" كانت لقتلهم.

عندما انسحب السوفييت في النهاية من أفغانستان في العام 1989 كان تأثير الكَلاشنِكوف قد انتشر فيما وراء المنطقة الحدودية الباكستانية وإلى أقصى الجنوب في "كراتشي"، عاصمة البلاد وميناؤها الرئيسي. استُخدمت المدينة من قبل وكالة المخابرات الباكستانية كنقطة مركزية في عمليات التوزيع؛ فمن هناك كان تنقل الأسلحة مباشرة إلى المعسكرات على الحدود، ولكن لعقد من الزمان كانت الآلاف منها تختفي عن طريق رشوة المسؤولين المحليين لتتحول إلى شبكة عصابات مهربي المخدرات. ذات مرة خلقت الأسلحة زخمها الخاص في العنف داخل المدينة، وفي أوائل التسعينيات كان الجو المتوتر بين المجموعات السكانية في مدن البنجاب والسند قد تفجر ليتحول إلى حرب مفتوحة، مما اضطر الحكومة أن تُنزِل الجيش الباكستاني إلى الشوارع.

بهذه المستويات من العنف التي شهدتها كراتشي اضطرت الحكومة أن تفرض سيطرتها عليها، لكن المنطقة الحدودية كانت لا تزال تُدار من قبل زعماء الحرب المحليين، والمجموعات الجهادية وتجار المخدرات، ولدى كل طرف

منهم حلبة سباقه الخاصة. ومع أن المخابرات الباكستانية لم تتعلم الدرس عندما تخلت عن إقليم خاضع للسلطة الوطنية لصالح العصابات المسلحة، إلا أنها كررت خطأها طوال عقد التسعينيات بإنشائها المعسكرات لتوريد المزيد من بنادق الكَلاشنِكوف للفصائل المقاتلة مثل الجماعة الإسلامية، التي كانت تقاتل لطرد قوات الاحتلال الهندي من منطقة جامو - وكشمير المتنازع عليها. لقد ضحّت المخابرات الباكستانية، من خلال تسليحها لهذه المجموعات، بالسيطرة على السياسة الخارجية، ليصبح من المستحيل أن يتحقق السلام الكامل أبداً في الوقت الذي كانت باكستان موطناً للآلاف من المقاتلين الإسلاميين المُكرَّسين لحرب لا تنتهي مع الهند. في العام 1991 دعا حسين معاوية وهو قائد إحدى المجاميع القتالية المعروفة بـ "قافلة خالد بن الوليد" الشباب المسلم "لحمل بنادق الكَلاشنِكوف سوية". وذهب ليعلن أن "القافلة" "ستدمر الولايات المتحدة الأميركية" إذا تعرضت لأسامة بن لادن. وكان الأكثر خطراً بالنسبة لأنصار باكستان في واشنطن، ادعاؤه بأنه سيدعم الجيش الباكستاني في خطته لتحرير كشمير. ضيّع الكَلاشنِكوف حدوده بين الشرعية واللاشرعية وبين الصديق والخصم. وقد يكون المسؤولون في السي آي أي الآن نادمين على قرارهم بدعم المجاهدين في أفغانستان.

استفادت إحدى الفصائل التحررية الكشميرية على وجه الخصوص من الموقف. فأسست مايسمى بـ "لشكَر طيبة" (أي فيلق طيبة-م)، وهو كالعديد من المجاميع الجهادية، المدعومة جزئياً من أصحاب النفوذ السعوديين وبتمويل مباشر من أسامة بن لادن؛ كان يتلقى الدعم أيضاً من المخابرات الباكستانية التي كانت تتأكد من أن جماعة فيلق طيبة مُجهَّزة جيداً ببنادق الكَلاشنِكوف. لم يكن "فيلق طيبة" في الأصل فصيلاً كشميرياً، فمؤسسوه جميعاً باكستانيون، وكانوا يجندون المقاتلين من أقصى البقاع كأندونيسيا والجزائر. كانت القاعدة الرئيسية بالقرب من بلدة "موريدك" المحاذية لمدينة

"لاهور"، وقد شيدت بالأموال السعودية وبمساعدة المخابرات الباكستانية، أثناء الحرب الأفغانية لتدريب المُسلَّحين على مُقاتَلة السوفييت. ويغطي هذا المعسكر الضخم مساحة نصف كيلومتر مربع ويحتوي على مسجد خاص به، وورش عمل للنجارة والحدادة، ومصنع ألبسة وبيوت وثكنات للجهاديين الزائرين وطلاب الدين الأجانب. طوال عقدي الثمانينيات والتسعينيات كان المعسكر يؤدي دور المضيف للاجتماعات السنوية التي تجتذب ما يزيد على مائتي ألف مقاتل تمّ تحريضهم على حمل السلاح. كانت الجدران مغطاة بالملصقات التي تصور الكَلاشنِكوف مع القرآن، وتدعو لتقديم التبرعات المالية لشراء المزيد من بنادق الكَلاشنِكوف والتي قُدمت بصفتها واجباً دينياً يقع على عاتق المؤمنين.

في الثمانينيات، وقبل أن يتحول أسامة بن لادن إلى مطلوب، فإنه ترأَّس العديد من الاجتماعات التي تدور فيها النقاشات الفقهية؛ والتسويات المتبادلة، وفي التسعينيات كان رجال الجناح المسلح لفيلق طيبة، المسمى "مركز الدعوة والإرشاد"، يتلقون التدريبات في معسكرات القاعدة بأفغانستان. وبعد أن اختبأ بن لادن في أواخر التسعينيات كان لا يزال يرسل خطاباته إلى "مُريدك". متحدثاً عبر الهاتف الجوال، لتبث بشكل مباشر إلى المجتمعين. كان يحتفظ بجناح من الغرف له في حالة نزوله من مَخبَئه في الجبال وهو يلوّح ببندقية الـ AK على الحشد من حوله، ومن الممكن أن يكون قد استخدم هذه الغرف في التسعينيات. كانت المخابرات الباكستانية تستبعد احتمال أن يُطلب منها إيقافه: لقد كانت الأجهزة الأمنية الباكستانية مُتورِطةً بالمطلق مع القاعدة والفصائل الجهادية الأخرى، التي لم تأخذ السي آي أي على عاتقها جدّياً أبداً اقتفاء أثرها لكي تلقي القبض على بن لادن. في الحقيقة، اقتنع المسؤولون الأمنيون الأميركيون بأن المخابرات الباكستانية ساعدت بن لادن على أن يتفادى الاعتقال في عدة مناسبات.

وعد الانقلاب العسكري الذي قاده الجنرال برويز مشرف في عام 1999 باستعادة النظام في باكستان، لكن كان ذلك من المُحال في بلد يسيطر على حياته الكَلاشنِكوف. لكن الارتدادات وصلت إلى ما وراء الحدود الباكستانية. أصبحت قواعد المجاهدين في باكستان الحاضنة للقاعدة، وأصبح الكَلاشنِكوف رمزاً للروح القتالية الإسلامية الظافرة في مختلف أرجاء المعمورة.

عندما أسس بن لادن القاعدة في العام 1988 كان حريصاً على أن يحتفظ برابط مع الكَلاشنِكوف. كان عمر بكري محمد وهو سوري الجنسية والمرشد الروحي للقاعدة غالباً ما يسمى فيلسوف بيت القاعدة، أشتهر بادعائه "أن الثقافة الغربية ليست أكثر من تسلية". من الواضح أنها عبارة عن تنديد بالثقافة الغربية غير أن مؤيدي القاعدة وهم شكل من أشكال التقيد الرجعي بالطقوس السلفية يسمى "الوهابية" التي ترفض التجديد تسعى لكي تعيد عقارب الساعة إلى القرن السابع الميلادي، ليست حركة فلسفية. فالقاعدة تكيّفت على استخدام تقنيات أعدائها.

كانت الصناعات الترفيهية هي التي دفعت الاقتصاد الاستهلاكي الغربي نحو السوق من خلال سلسلة من الماركات التجارية العالمية التي يعترف الاقتصاد بقوتها، فكان من الطبيعي أن يطور الإسلام المقاتل ماركاته التجارية الخاصة. بعد عشرين عاماً من الحرب في الشرق الأوسط أصبحت الكَلاشنِكوف أيقونة للصراع العربي ضد الصهيونية والإمبريالية الغربية. ومن أجل الارتقاء بذلك السلاح ليتحول إلى رمز للجهاد، كان الأمر لا يتطلب سوى حملةٍ تسويقية بارعة تستخدم التلفزيون، وهو الوسيلة التي يقدرها المجتمع الغربي على اعتبار أنها من أهم إنجازاته.

من الواضح للجمهور الغربي الذي تنشَّأَ على مشاهدة التلفزيون أن بن لادن، بوجهة نظره القادمة من القرون الوسطى، سواءٌ في الدين أو في السياسة، كان بارعاً في الظهور في وسائل الإعلام الحديثة، وخبيراً في استخدام وسائل

أعدائه وأدواتهم. فمنذ العام 1998 وما تلاه كان يرسل رسائل تلفزيونية إلى مؤيديه، ثم انطلقت من خلال المحطات التفلزيونية العالمية، فجلبت له جمهوراً عريضاً. صنع زعيم القاعدة ميزة خاصة به وهي اصطحابه لبندقية كَلاشنِكوف عندما كان يظهر على الشاشة. لكنه لم يكن يحمل البندقية نفسها دائماً: ففيلم سيرة حياة بن لادن كان يظهره إلى جانب أنواع مختلفة من بنادق AK. في أحد المشاهد كان يقف مع حارسه، يقبض بإحكام على بندقية ال AK مطوية الأخمص من المحتمل أنها كانت غنيمة من الجيش السوفييتي قبل عشر سنوات. في مشهد آخر يبدو فيه مع البندقية المزجرة AKS-74U وهي رشاش متوسط صنع في معمل "تولا" للمدفعية وصُمم للقوات الخاصة المقاتلة في حرب المدن حصراً. ربما كان إظهارُه لرشاش AKS-74U يمثل تحذيراً لأية قوة خاصة تخطط للقبض عليه أو لقتله بأنه كان مستعداً لمواجهتهم. كانت رسالة في وقتها، فبدخول الألفية الجديدة كان من الجائز أن يكون بن لادن الرجل الأول المطلوب في العالم. على إثر هجمات القاعدة في شهر آب عام 1998 على السفارتين الأميركيتين في تنزانيا وكينيا التي أودت بحياة 224 (بضمنهم 12 أميركياً) وجرحت 4000 شخصاً، والهجوم الانتحاري على البارجة ""USS Cole في عدن في أكتوبر من العام 2000 الذي تسبب في مقتل 17 شخصاً من طاقمها وجرح 39 آخرين أعلنت الحكومة الأميركية عن جائزة قدرها خمسة ملايين دولار ثمناً لرأسه.

في صيف العام 2001 قام بن لادن، اللامبالي بالولايات المتحدة ولا بأموالها، بإصدار مقطع الفيديو الدعائي الكَلاشنِكوفي الأعنف على الإطلاق. إنه مقطع بطول تسع دقائق من البهجة بالتفاني والقتال البطولي للرجل والحركة، وكان فيه نجمان: النجم الرئيسي هو بن لادن نفسه، ولو كان هذا من إنتاج هوليود لكان النجم الثاني هو ذاك الطابور من حملَة بندقية الكَلاشنِكوف الذين اصطفُّوا، لكي يطلقوا النار على صُور الرئيس الأميركي السابق بيل

كلنتون، وثمة أطفال يحملون بنادق الكَلاشنِكوف بينما كان بن لادن يرفع آيات الشكر إلى الله للنجاح الذي تحقق بالهجوم على البارجة ""USS Cole. كان بن لان يرتدي الأبيض وهو زي الطهر والفداء في الإسلام، وكان الفيلم يُلمِّح إلى أن الخلاص يأتي بالكَلاشنِكوف. لكن من الغريب، ربما، أن يكون الشيء الذي حقق للقاعدة أعظم نجاحاتها لم يكن الكَلاشنِكوف بل القنابل، لكننا لم نرَ في الأغلب سوى، بندقية الـ AK تعرض الموقف الفريد لها وهو كالآتي: أنت لا تحتاج إلى إطلاق النار منها للوصول إلى مبتغاك.

بحلول العام 2001 كانت دعاية بن لادن مؤثِّرةً للغاية فكان التدريب على بنادق الـ AK قد أصبح جواز المرور بالنسبة لأي جهادي مُحتَمل. في بريطانيا ازداد الذعر من استعمال سلاحٍ يمنع القانون حيازته. كان رجال من أمثال أبو حمزة الذين كانوا في أفغانستان وقد تشبَّعوا بثقافة الكَلاشنِكوف، قد جلبوا السلاح معهم عندما طلبوا المأوى في بريطانيا في التسعينيات. كان مسجد فاينسبري مجهزاً لاستقبال أكثر من مائتي مسلم بريطاني وكذلك كان هناك العديد من الزوار الأجانب: عرب وباكستانيون، محاربون قدامى في صراعات أفغانستان والبوسنة، من الذين يستطيعون التحدث بفيض عن خبراتهم وآثار بنادق الكَلاشنِكوف التي تركوها على أجساد الجنود "الكفرة". بالنسبة للشبان في الأحياء الآسيوية خارج لندن أو في شوارع "يوركشاير" و"لانكشاير" المسكونة بالفقر والبغايا، يجدون في هذه القصص والحكايا لمحات من حياة أكثر إنجازاً. وفي قلب تلك الحكايا كان يتربع السلاح.

كان لجو الأخوة والسرية الذي نشأ فيما بين المتدرِّبين في فاينسبري صدى وارتدادات حول العالم. كان رتشارد ريد أحد أولئك الذين تعلموا إطلاق النار من بندقية 47AK أسفل المسجد. وهو من انتعل حذاءً مليئاً بالمتفجرات وتمكن المسافرون من التغلب عليه بمكيدة بعد أن حاول تفجيره في رحلة للخطوط الجوية الأميركية في عام 2001. كذلك كان محمد صديق

خان، فبعد تلقيه التدريبات على الكلاشنِكوف في معسكر الحديبية التحق هو الآخر بمسجد فايسبري. وهذا ما فعله أيضاً زكريا الموسوي وهو فرنسي من أصل مغربي أدين في الولايات المتحدة الأميركية في عام 2006 بدعوى ضلوعه في هجمات الحادي عشر من أيلول.

في الساعة الواحدة صباحاً بتاريخ 30 من نيسان العام 2003 تخرّج رجل آخر من صفوف الكلاشنِكوف في مسجد فاينسبري، المدعو عمر خان شريف شاب بعمر الواحد والعشرين، حاول الدخول إلى "محل مايك" وهو بار للموسيقى الشعبية الصاخبة في الشاطئ الرملي للبحر المتوسط في تل أبيب. إلى جانب خان كان هناك آصف حنيف عمره سبعة وعشرون عاماً. كان الرجلان يرتديان بعناية الزي المناسب كمئات الأشخاص من رواد النوادي في منطقة شاطئ المدينة الإسرائيلية، على الرغم من ذلك كان ثمة شيء في مظهرهما وسلوكهما لفت أنظار رجال الأمن فأوقفوهما في مدخل البار. وبدأ الجدال وأدرك حنيف أنه لن يتمكن من الدخول إلى البار، فسحب حبلاً من تحت قميصه ليفجر القنبلة المربوطة على خصره. وفي وقت واحد سحب شريف الخيط المفجر للقنبلة، لكنه فشل في تفجير القنبلة الثانية. ووسط الفوضى والدخان الذي سببته قنبلة حنيف ارتعب شريف وفرّ عبر الشاطئ مسقطاً القنبلة على الرمال وهو يركض هارباً. قُتل حنيف على الفور. جثة شريف وجدت على الشاطئ وقد لاقى حتفه بعد ثلاثة أيام؛ ادعت الشرطة الإسرائيلية أنه غرق مصادفة أثناء هروبه.

لو لم يتم توقيف حنيف في مدخل البار لكانت قنبلته قد تسببت بمذبحة يصعب تخيلها في البار المكتظ بالزبائن. بسبب ذلك أحصت تلك الليلة عدداً منخفضاً نسبياً للقتلى. مع عدد الجرحى الذي وصل إلى خمسين شخصاً كان هناك فقط خمسة قتلى من ضمنهم منفذ العملية، وكان يمكن للهجوم على "محل مايك" أن يُنسى بسرعة لو كان المنفذان فلسطينيين. بعد

بضعة أيام من الهجوم قدمت الشرطة الإسرائيلية جوازات سفر تثبت أن كلا المنفذين هما من المسلمين المولودين في بريطانيا وقد دخلا إلى البلاد عامدين أن يتحولا إلى انتحاريين. كان حنيف من لندن أما شريف فقد كان طالباً سابقاً في مدرسة عامة في مدينة "دربي". كان هذا مضرب مثل لحماس، وهي فصيل مقاتل في المقاومة الإسلامية ادّعى المسؤولية عن الهجوم، مستخدماً انتحاريين أوروبيين للهجوم على هدف إسرائيلي؛ وللمرة الأولى، كانت هناك دعوى نشرت من قبل الصحافة البريطانية، هي أن الحائزين على الجنسية البريطانية يتطوعون في العمليات الانتحارية.

بعد أحد عشر شهراً من الهجوم، أطلقت حماس تسجيلاً فيديوياً تمّ تصويره في شقة في مدينة غزة قبل أسابيع من الهجوم على "محل مايك"؛ حيث يظهر فيه كل من حنيف وشريف وهما يرتديان بزة المقاتلين المموّهة ووشاحاً أخضر طبع عليه "لوغو" باللغة العربية لكتائب القسام، الجناح العسكري لحماس. كان فيلماً عن الاستشهاد، وهو وصايا متلفزة اعتاد الانتحاريون الفلسطينيون أن يسجلوها لتبث بعد أن تكون مهماتهم قد أنجزت - لكن هذا الفيديو لا يُبرز الشباب الذين عادة ما يكونوا نحيلين كأولئك القادمين من غزة أو الضفة الغربية. بالوجه الممتلئ والأسنان البيضاء، بدا في الحال منظر كل من شريف وحنيف يعلن للمشاهد أنهما ليسا فلسطينيين. ولا يمكن لبزتيهما أن تكونا لمقاتلين؛ فقد كانتا منتفختين على جسديهما وكانت آثار الثنيات ما تزال بادية عليها.

كان حنيف يبدو سعيداً، وهو يتحدث إلى الكاميرا. "أنا أقوم بهذا العمل من أجل هؤلاء الناس الذين يرغبون أن ينتشر هذا العمل بين العرب لنظهر إلى أي مدى قد سئمنا حقيقةً [من الوضع]". (القوسان الأخيران زادهما المؤلف على حديث حنيف). ومع كل الغيظ الذي أبداه فقد كان من

الصعب تخيّل أن هناك رجلين أكثر منهما بعداً عن التشبّه بالمجاهدين. وفي إحدى اللقطات رن جرس الهاتف النقّال عندما بدأ حنيف بالكلام، وهنا أوشك الشريط الذي صوَّرته حماس أن يجنَح إلى المهزلة بالفعل لولا وجود شيئين منحاه المَسحة الأصلية للإرهاب والخطورة: إنهما بندقيتا الكَلاشنِكوف! إذ كان كلٌ من الرجلين يحمل واحدةً على صدره. ومرةً أخرى تلتقط الكاميرا التصميم السامي للكَلاشنِكوف، تقوس مخزن الذخيرة، وتوازي خطي سبطانة البندقية مع أنبوب الغاز المرتجع.

اتبعت الفصائل الإسلامية الأخرى خطى بن لادن وبدأت بتسجيل نشاطاتها وأعمالها بأشرطة مُصوَّرة. وبين الفينة والأخرى كانت تحدث لدى المسلمين فورة للاهتمام بالأفلام التي تصور العنف المخيف الذي بدأ يتسلل إلى بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا عبر أئمة من المشايخ ومن المحاربين القدامى في الجزائر والبوسنة والشيشان وكشمير. لم يكن الجمهور الأكبر لهذه الأفلام من العرب الميسورين والمهاجرين الإيرانيين في مقاهي الشرق الأوسط، المنتشرة في وسط لندن، حيث كنت أرتشف القهوة التركية مع مراسل حربي مشهور، بل في أوساط الجاليات الجنوب آسيوية فيما كان يسمى ذات مرة الشمال الصناعي. أردت الحديث مع الشبان المسلمين البريطانيين الذين كانوا مستهدفين باعتبارهم جيل الكَلاشنِكوف التالي، لم يكن عليّ أن أستمع إلى الموسيقى اللبنانية في شارع إيدجوير بل توجّب عليّ السفر إلى المنازل ذات الطراز الفكتوري في يوركشاير ولانكشاير حيث استقر مئات الآلاف من الباكستانيين في الستينيات والسبعينيات. كانوا قد جاءوا للعمل في الصناعات النسيجية التي انتشرت في كلا الجانبين من منطقة "بننيز" ومن لحظة وصولهم اصطدموا بالتفرقة والتمييز العنصري. كان السكان الأصليون مربكين بالخصومة ومتعبين بسبب الثقافة الإسلامية الوافدة، التي بدا وكأنها غير قابلة أو غير راغبة في تكييف نفسها، مع مجتمع كان فيه التعاطي تجاريا مع

الجنس أمراً وارداً، كما أنه لا يرى من الضروري أن يكون إجلال الأكبر سناً في سلم الأولويات.

ومع تضاؤل صناعات القطن والصوف انطوت الجالية على نفسها، تاركة الجيل التالي في موقف متناقض فهو لم يتحرر من ثقافة ريف الباكستان التي تتعامل بها عوائلهم التي بدورها لا تزال متماسكة وممتعضة من المجتمع البريطاني الذي لم يقبلهم كما هم قبولاً كاملاً. كان الشباب البريطانيون من أصل آسيوي، عاطفياً وفكرياً وسياسياً، يشكلون أرضية مثالية للتجنيد بالنسبة لأي فصيل إسلامي يقدم لهم وسيلة النجاة، والكرامة، والهدف، والتفسير المتماسك للحالة الراهنة، اي التفسير الذي لا يضع اللوم عليهم أو على ثقافتهم بل على المؤامرة الغربية على الإسلام.

بالنسبة للشباب البريطاني الآسيوي الأصل الطامح في الذهاب إلى الجنة؛ ليس المهم فقط استعداده ليكون طابوراً خامساً داخل معسكر العدوّ، بل كان ارتباطه المسبق طبيعياً بقواعد الجهاديين في جنوب آسيا. ثلاثة أرباع المليون من البريطانيين الآسيوين لديهم أقارب في المنطقة، وفي كل سنة يرجع الآلاف إلى باكستان. من المؤكد أن الأكثرية المطلقة ليس لديها اهتمام بالعودة إلى المناطق القبلية ليلتحقوا بالمعسكرات، لكن الجهاديين على مختلف أصنافهم والذين هم الآن يركزون أنظارهم على الأوروبيين الغربيين ليس بهم بحاجة إلى الآلاف، بل فقط ما يكفي من الشباب الذين يفجرون أنفسهم في قطار أو في حافلة نقل ركاب. ولو انضمَّ واحد أو اثنان في الشهر من العائدين إلى الجهاديين لكان لديهم ما يكفي من الرجال ليتمكنوا من نقل حملتهم ضد الكفار إلى الشوارع البريطانية. وهل هناك وسيلة تجذب انتباه شاب أكثر من بندقية 47AK؟ طبقاً لذلك، فإن الرجال الذين يستهدفون الذكور من الشباب الآسيوي استخدموا الكَلاشِنكوف كماركة تعريفية لهوية قضيتهم، والسلاح يثبت مدى قوة الانجذاب لدى الجمهور المستهدف.

اكتشفت ذلك بنفسي في العام 2003 عندما سافرت إلى "ليدز" في يوركشاير الغربية لمقابلة اثنين من الشباب بعمر الواحد والعشرين وكانا أولاد عمومة، كنت قد علمت من خلال اتصالي بالجالية الآسيوية، أنهما عائدان للتو بعد أن كانا في زيارة لمعسكرات تدريبية للجهاديين. التقيت بعبدالله ورحيم في وسط "ليدز" ثم استقلينا الحافلة إلى المنطقة المتهالكة عند حافة المدينة حيث يعيشان، قرب "بيستون" كان حي "ليدز" هو الحي الذي كان يقطن فيه محمد صديق خان. كان كلا الرجلين يرغبان أن يتحدثا إليَّ عن تجربتهما في المعسكر وعن استخدام الكَلاشنِكوف كوسيلة دعائية في بريطانيا، بشرط واحد فقط هو عدم ذكر اسميهما الحقيقيين. قال لي رحيم وهو يتحدث بلكنة أهل يوركشاير تماماً "منذ انفجارات لندن وحتى الآن أصبح المناخ سيئاً للغاية بالنسبة للشبان الباكستانيين. نحن لم نرتكب أي خطأ عندما كنا هناك وأنا متأكد جداً من أننا لم نفعل شيئاً غير قانوني، ولم يحاول أحد أن يمنعنا في الباكستان، ومن المفترض أن الباكستان من حلفاء الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، لكني ما زلت لا أريد أن تأتي الشرطة للبحث عنا. فمن المكن أن ينتهي بنا المطاف في السجن أو أسوأ من ذلك أن نُرسَل إلى "غوانتنامو". فقط لأننا حملنا بندقية الـ AK47 ".

عندما مررنا بضواحي ليدز قارن أبناء العمومة، باستخفاف، المنطقة التي نجتازها بباكستان، فرغم أنهما ولدا في يوركشاير إلا أنهما كانا يفكران بكل وضوح بباكستان على أنها هي الوطن. بالنسبة لعبد الله كانت هي الجزء المحزن في سبيله إلى الوطن. بالنسبة لرحيم كانت تشير إلى الانقسام بين المؤمنين وغير المؤمنين.

بالنسبة لي كان الأمر ستاراً كثيباً وبعيدَ الاحتمال لقصة دعائية للكَلاشنِكوف، وبالنسبة لأولاد العمومة فهي قضية هروب نهائي.

كان رحيم يعتقد بأن الأمل الوحيد لأبناء جاليته هو العودة إلى دينهم،

لإيجاد مغزى لحياتهم ولكرامتهم في القرآن. كان عبد الله أقل ثقة. كان يعلم أن الأمور كانت على خطأ، لكنه أراد طريقاً بعيداً عن متطلبات التطرف والانعزال. كانت تجربة غريبة وتقريباً مضحكة، أن تسمع مثل هذا الحوار المكثف في حافلة، لكن الأحداث التي جرت في لندن بعد عام أعطت للحديث معنى مفرطاً في الجدية من أجل استعادته والتأمل فيه.

قال رحيم "اسمع، أينما تَواجد مسلمون فإنهم يُضطهدون أو يُقتلون، من الذي يفعل ذلك بهم؟ أمريكا هي من يفعل ذلك طوال الوقت".

قال عبد الله "لكن ليس هناك عذر للانتحار، فالانتحار ضد مبادئ القرآن الكريم".

"وماذا يفعل أيضاً إخوتنا في الشيشان من أجل المقاومة؟ حمل بنادق AK47 والتفجيرات الانتحارية، ليس إلا. والوضع مشابه لدى إخوتنا في كشمير وفلسطين".

"كيف تبرر التفجيرات الانتحارية؟"

أجاب رحيم "كيف لنا أن نقاتل الأقوى منا؟ إن استخدام العمليات الاستشهادية ضد الصهيونية ليس أمراً لا أخلاقياً، وانما هو الشيء الوحيد الذي نستطيع أن نقوم به".

بعد نصف ساعة في الحافلة وعشرة دقائق من المشي دخلنا بيت عبد الله وجلسنا لنشاهد فيلماً في الغرفة الأمامية. كان ثمة طاولة غطتها الصحف، وعلب للبيتزا، وألعاب كمبيوتر مثل لعبة "دووم والضربة المضادة"، لم تكن الغرفة كهف بن لادن. كان أولاد العمومة مستفزين لما يشاهدونه في الفيلم، وأدركت بسرعة السبب الذي يجعلهم يرتعدون مستثارين لرؤيتهم من يحمل بالنيابة عنهم بندقية الـ AK وكأن الفعل مشهد لحرب مقدسة. بعد أن أمر عبد الله أخاه الذي يصغره بثماني سنوات بالخروج من الغرفة، أنزل

رحيم الستائر ودفع الفيلم في جهاز التشغيل. ظهرت سلسلة من الخطوط والخربشات على الشاشة قبل أن تنبثق صورة مشوشة، بعد ذلك اختفت نهائياً قبل أن تستقر وتُظهر منظراً طبيعاً مغبرّاً.

كان الشريط المُصوَّر يعرض مجموعة من الرجال يقفزون من على حائط، ثم يقفون متيبسين في حالة استعداد. كانت أكمامهم ملفوفةً حتى مرافقهم، وكان كل رجل منهم يرتدي قفازات سوداء. كانوا يرفعون بنادق AK47 قليلاً أمام صدورهم. انبطح الرجال على بطونهم وبدأوا بإطلاق النار بشكل متقطع على هدف غير مرئي، ثم نهضوا على أقدامهم وبدأوا بالركض. ثم قفزوا من فوق صف من الحواجز التي صنعت من براميل النفط وأكياس الرمل قبل أن يرتموا بأنفسهم على الأرض بقوة، وهم يتشقلبون ثم يزحفون على ظهورهم تحت سلك مَشدود بإحكام إلى أوتاد بارتفاع الركبة. وبينما كانوا يزحفون ظهر رجل آخر بلباس خاكي باهت على جانب المضمار الهجومي جاثياً وهو يطلق النار بزخاتٍ قصيرة من بندقية كَلاشنِكوف فوق السلك تماماً. استمر الرجال يحثون أنفسهم قدماً وهم يتلوَّون كالأفاعي على عمودهم الفقري وعبر إقحام أكتافهم بقوة في الأرض الصلبة وهم يدفعون بأنفسهم إلى الأمام. عندما تحرروا من السلك عاودوا القفز والركض مجدداً.

تحولت الصورة إلى داخل بناية كونكريتية الجدران حيث رُكِّزت الكاميرا على رجل آخر. كان يرتدي ملابس سوداء اللون لكنه يربط وشاحاً حريرياً أخضر اللون على جبهته. وكان هناك خطوط عربية على الوشاح وكان الرجل ينظر مباشرة صوب الكاميرا. تحدّث الرجل لمدة خمس دقائق ثم تغيَّرت الصورة مرة اخرى وتشوشت وأخفقت مرة تلو الأخرى في حالة من الانطفاء والاشتغال قبل أن تتوضح ثانية لتظهر طريقاً ترابياً يمتد طويلاً عبر منحدر شديد في وادٍ جبلي. كان المكان قاحلاً ومغطى بالصخور المتناثرة وبعيداً عن أرض غابة الصنوبر التي تلي خط الطريق الأبيض الذي يتخذ سبيله فوق المنحدر عبر الزوايا الحادة والمدى الطويل للمنحدر الممتد. كانت السماء

الشتائية باهتة الزرقة مرئية من بين الجبال.

كانت الكاميرا تتنقل صعوداً وهبوطاً على طول الطريق ونحو قمة التل وسفحه. أيا كان المتعامل مع الكاميرا، فقد كان يبحث عن شيء ما. تتحرك الصورة مُصغرةً ومُكبَرةً لتقول شيئاً. "إنها الشيشان" قال رحيم الذي كان يجلس إلى جانبي على الأريكة. كانت هناك سيارة بيضاء اللون قادمة على الطريق من قاع الوادي. تابعتها الكاميرا لبرهة من الزمن، ثم حولّت انتباهها أكثر إلى الطريق متجاوزة الغابة التي تمتد بمحاذاة الطريق لمسافة كيلومتر. التقطت الكاميرا ناقلتين عسكريتين تسيران على الطريق. وعندما اقتربت السيارة والناقلتان من بعضهما البعض توارت السيارة والشاحنتان عند أطراف الغابة. كان من الصعب علينا أن تتابع حركة المركبات من خلال الأشجار؛ فقط كان يبرز من بين الفجوات الطلاء الأبيض لمقدمة السيارة، ولم يبدُ أي شيء على الإطلاق من الناقلتين يمكن لنا أن نراه. بعد ذلك، وعند النقطة التي يفترض أن تلتقي بها الناقلتان القادمتان من أعلى المنحدر والسيارة الذاهبة إلى أعلاه، دوى انفجار لشعلة صفراء مترافقة مع دخان أسود يتلاطم كموجة عظيمة من فوق الأشجار. كانت اللقطة تركز على ألسنة اللهب المنبعثة من كوم غير محدد من الخردة والكتل السوداء المتطايرة هنا وهناك وقد ابتلعتها الغابة.

قوة الانفجار عبرت الوادي بعد ثوانٍ معدودات. ارتعشت الصورة وتذبذبت وتشوشت قبل أن تقع على الجزمة السوداء لمنفذ العملية قبل أن تنقطع اللقطة. بعدئذ عادت الصورة. كانت الشمس لا تزال في كبد السماء لكن لم تكن هناك إشارة تحدد مدة الوقت المنقضي. انتقل المصور عبر الوادي إلى مكان الانفجار ووقف في مساحة سوداء إلى جانب الطريق حيث دمّر الانفجار جزءاً من الغابة بشعاع قطره خمسةٌ وعشرون متراً. كل ما تبقى من السيارة البيضاء هو كتلة المحرك التي استقرَّت على حافة حفرة الانفجار

ملقاة في وسط الشارع. نُسفت كلا الناقلتين على التل وسقطتا في الغابة المتفحمة والمدمرة فوق الطريق. وكانت إحدى الناقلتين منكفئة على جانبها؛ والأخرى منتصبة لكنها فقدت عجلاتها وكانت كابينة السائق منسوفة بشكل كامل. من حول الناقلة تبعثرت أوراق أشجار الصنوبر على الأرض مختلطة مع أشلاء، وأكوام الملابس وحقائب بلاستيكية لا بد أنها كانت تحمل غداء المحتلين. اجتمع حشد من الناس حول الناقلة الثانية، عشرون أو ما يقارب ذلك من الرجال الذين يرتدون خليطاً من بلوزات وجاكيتات الجيش الروسي، وبنطلونات الجينز ونماذج من الجاكيتات التي يرتديها العمال وأزياء المدربين، يتحلقون حول ما تبقى من القافلة. وكان جميع الرجال يحملون بنادق AK47.

دارت الكاميرا بحركة بانورامية إلى أعلى الأشجار وقربت الصورة لتلتقط جذع انسان معلّق في الأعالي على فروع الأشجار. كان الجذع عارياً، وليس من الممكن أن تحدد إلى من ينتمي، هل كان للانتحاري أم لواحد من الجنود الروس الذين كانوا ضحاياه. ثم عادت الكاميرا إلى الأسفل لتصور الناقلة مرة أخرى، حيث أصبحت مجموعة الرجال أكثر نشاطاً وحيوية. لم يكن هناك صوت في الفيلم، لكن شكل أفواههم والطريقة التي كانوا يومئون بها جعلت من الواضح أنهم كانوا يصرخون وهم مُستثارون. لوّح الرجال ببنادق الـ AK ورقص بعض منهم. انتقل المصور من خلال المجموعة نحو مؤخرة الناقلة التي فقدت عجلاتها. تقدم عبد الله إلى الأمام وهو جالس على الأريكة متحفزاً ليرى إلى ما كان ينظر إليه الرجال، ثم تناول قنينة كوكا كولا ثم أخذ يلهث. "أوه، لا يارجل!" لقد تبين سبب الإثارة التي كان عليها رجال حرب العصابات: لقد وجدوا أحد الناجين.

قام رجلان بسحب الجندي الروسي إلى مؤخرة الناقلة. كان عمره لا يتجاوز الواحد والعشرين. بشعر أشقر وعينين زرقاوين، كان لديه وجه نحيل وأنف أفطس كوجوه الناس في شمال روسيا. كان مغطىً بالسواد بسبب الانفجار

وملطخاً بالدماء. وبعيداً عن كونه مصعوقاً، لكن تبين أنه نجا من الكمين ولم يصب بأذى. لكنه إذا كان قد سلم من الموت في الناقلة رغم قوة الضربة الهائلة فهو الآن في وضع قد يجعله يعاني أكثر. بدا على وجه الجندي الروسي الألم والخوف من الاعتقال عندما كافح ليحرر نفسه من قبضة آسريه.

تقدم رجل آخر ممن يحملون بنادق الـ AK على كتفه حاملاً سكيناً طويلة، وانتزع الأذن اليسرى للأسير ليبقي رأسه مرفوعاً. ومرر بيده الأخرى شفرة السكين على وجه الرجل وقطع أنفه. رفس الجندي الروسي باهتياج المسلحين الذين يمسكون به، لكنهم شددوا من قبضاتهم على ذراعيه ليكمل صاحب السكين تقطيع وجهه مرة أخرى. ثم ابتعدت الكاميرا لتتيح للرجل الذي يحمل السكين إكمال ما بدأه. ارتعشت الصورة واسودّت، وعندما عادت مرة أخرى كان الصمت المطبق يغلف الغرفة الأمامية. كان المُسلَّحون يقفون على الجسد المرتعش للروسي موجهين فوهات بنادقهم على مؤخرة رأس الجندي حيث كان الشعر الأشقر مجدلاً بالدماء. ابتسم المُسلَّحون بوجه الكاميرا وسحبوا زناد بنادقهم. تفجر رأس الروسي، ملوثاً بنطلونات الجينز بالدماء والدماغ المتناثر.

قال رحيم "يا للجحيم!".

كانت تجربة غريبة، رؤية مشاهد من الرعب في حرب بعيدة في الغرفة الأمامية لبيت في يوركشاير. كان هناك شعور من الإثارة المحسوسة لصور الكَلاشنِكوف، ومن جهة أخرى كان هناك كره بريطاني شديد لما كانوا يشاهدونه. كان الفيلم وحشياً، ومن الصعب اعتباره مثلاً لصراع نبيل.

أعقبت ذلك حالة من مشاعر عدم الارتياح غطت الغرفة، وكأن أولاد العمومة محرجين ومربكين من الشيء الذي عرضوه لي. ولكي نتجاوز هذه الأجواء سألتهم متى أصبحوا للمرة الأولى يدركون أن الكَلاشنِكوف هو سلاح للجهاد.

قال رحيم: "كان ذلك في العام 2001، جاء عبد الله فيصل وهو أحد الدعاة السود إلى يوركشاير وذهبنا نحن الاثنان لسماعه. قال: "يجب علينا أن ندرب شبابنا على القتال لنشر الإسلام بالكَلاشنِكوف".

على الرغم من أن فيصل مقيم في لندن، فإنني لم أتفاجأ بسماع اسمه في الشمال. كان جامايكي المولد تحول إلى الدين الإسلامي، وكان سجيناً مدة تسع سنوات في العام 2003 بسبب التحريض العنصري والدعوة لقتل اليهود والأميركين والهندوس. كانت نقطة انطلاقه في جامع "برايكستون" في جنوب لندن - لقد استخدم هذا الجامع أيضاً زكريا الموسوي وريتشارد ريد - لكنه كان يسافر بانتظام إلى وسط البلاد وشمالها لينشر رسالته عن الجهاد القتالي. زار "مسجد المدينة المنورة" في بيستون، حيث كان محمد صديق خان يتعبد (كما فعل المشارك الآخر في تفجيرات لندن، وهو شهزاد تنوير). كان فيصل أيضاً يلقي عظاته في مسجد في "تيبتون" وهي مدينة بوسط البلاد، كان منها منير علي وهو أحد "إرهابيي تيبتون" توجه للقتال في أفغانستان العام 2001 ولم يره أحد بعد ذلك.

كان الشيء المطلق في مواعظ فيصل جميعاً - في الحقيقة رسالتها المركزية - يتركز في حاجة الشباب المسلم لتعلم استخدام الكَلاشنِكوف. اذ "يتعذّر تحقيق التحرر مستقبلاً"، كما جاء في أحد خطب فيصل، "عن طريق الديمقراطية. كما يتعذر المضي في الطريق مستقبلاً عبر ورقة الاقتراع. التقدم إلى الأمام هو عن طريق الرصاص. كان الإسلام قد انتشر بالسيف. اليوم سينتشر بالكَلاشنِكوف". كان فيصل رجل الحملة الوحيد الذي يرفع شعاراً من أجل بندقية الـ AK4؛ حتى أنه أوصى الأمهات المسلمات أن يشترين لأولادهن لُعب على شكل بنادق ليكونوا مستعدين لحمل بنادق AK47 حقيقية عندما يصبحون رجالاً. وكثمن للاستشهاد عرض اثنين وسبعين عذراء والخلود في جنة الفردوس، لكن بالنسبة للجمهور الغربي المعتاد على مشاهدة

شرائط مادونا وألعاب الكمبيوتر، كان العرض الذي قدمه هو الكَلاشنِكوف لأن موضوع العذارى مسألة ليس لها شأن كبير في أذهانهم.

لم يكن فيصل الوحيد الذي أدرك أن الجماهير الغربية تنجذب بشكل أكبر إلى الماركات التجارية وليس إلى وعود بالجنة. تحدث رحيم مطولاً حول الواعظ في المنطقة الباكستانية الذي كان يأتي بانتظام إلى مسجد محلي. ولأسباب تخص "أمن الجالية" لم يأت رحيم على ذكر اسم الواعظ ولا اسم المسجد، لكنه كان سعيداً في الحديث حول الطريقة التي أقنعته هو وابن عمه بالتدريج بأن عليهم أن يذهبوا إلى الباكستان لكي ينضموا إلى معسكرات الجهاديين.

"كان هذا الرجل قد رجع إلى الباكستان. قال لقد أمضيت الوقت في عبور الحدود إلى أفغانستان، ومع ذلك أدعى أنه كان مقاتلاً ومن الواضح لديه أنه كان واجباً علينا أن نذهب إلى هناك ونتدرب لنكون مقاتلين. كانت مواعظه أشبه بالكلام العادي منها إلى الخطب. لم يكن كالبعض من الواعظين الآخرين الذين يصرخون عليك، بل كان هادئاً للغاية، وكأنه يشرح شيئاً ما واضحاً على طول الخط، لكننا كنا نفتقده مسبقاً لأننا لا نوليه الاهتمام اللازم. لقد انخدعنا بكل الهراء الذي قذفه المجتمع الغربي لنا.

"مثَّل الذهاب إلى القتال كحلٍّ للمعضلة، لذلك كان كلامه يحمل عنواناً مثل "إلى أين أيها الشباب المسلم؟" كان يتحدث حول بعض الآيات من القرآن. بعد ذلك نحضر جلسة سؤال وجواب. يبدأ بالسؤال عن شيء ما مثل، "ماذا تشبه حياتك في الغرب؟ كم حصلت من الاحترام؟ كيف يتعامل معك رجال الشرطة؟ يعاملونك وكأنك مواطن من الدرجة الثانية لأنك مؤمن والناس الذين يضطهدونك غير مؤمنين". بعد ذلك يتحرك قدماً نحو الحل: علينا أن نعود مسلمين صالحين مرة أخرى ويجب علينا أن نقاتل. إنه لأمر مثير، عندما قال: "عليكم واجب مقاومتهم، أن تقاتلوا الكفار إذا حاربوكم"، حقيقةً

جعلني أشعر بأن عليّ ألّا أكون هنا حيث الحكومة التي تقف ضد إخوتنا المسلمين حول العالم ويقع علينا واجب مساعدة أولئك الإخوة بأي وسيلة ممكنة. لذلك كان القتال هو أفضل طريقة. إننا نراه في نشرات الأخبار على كل حال، لكنه جعل الأمر واضحاً بالنسبة لنا: يقوم الغرب بتخريب وتدمير الحضارة الإسلامية، إن كنت تشك بذلك، انظر إلى تأييد الحكومة للصهاينة في فلسطين ودعمها لهم وللهند في كشمير.

"لقد تحدث أيضاً حول المجتمع البريطاني، وكم كان فاسد الأخلاق. وفي الحقيقة، كان من الصعب ألّا تتفق معه عندما يقول: "يقولون لك أن الإسلام ضد النساء لأن أخواتنا وأمهاتنا اخترن أن يتبعن وصية تغطية الرأس ويدافعن عن حشمتهن، لكن انظروا إلى الصور الإباحية للكفار [الغربيين] التي تُعرَضُ في التلفزيون وفي البوسترات في الشوراع وفي الصحف. لن تكونوا مسلمين صالحين وأنتم تتحملون هذه المعاملة".

كان رحيم متحمساً لرسالة الواعظ من بدايتها الأولى، وأصبح بالتدريج منجذباً إلى فكرة الذهاب إلى معسكر القتال في الباكستان. "كنا ذاهبين إلى باكستان في كل الأحوال، وبدأت أفكر بجدية في موضوع الذهاب إلى المناطق القبلية والالتحاق بفصيل، بل حتى الذهاب إلى داخل أفغانستان. سأكون صادقاً بالقول إن مشهد القتال كان جذاباً للغاية بالنسبة لي. كنت ما أزال فتىً في شكل من الأشكال، وهؤلاء الأشخاص عرضوا عليّ فرصة لكي ألعب دور الجندي، لكن بالطريقة التي تجعل مني رجلاً صالحاً في عيون أبناء ديني. عرضوا علينا أفلاماً عن المقاتلين في باكستان. أستطيع القول إن المقاتلين كانوا رجالاً عاديين؛ ولم يكونوا أبطالاً خارقين أو أي شيء آخر، إلا أنهم بمجرد حملهم بنادق الـ AK أصبحوا مختلفين".

تساءلت فيما لو كانت هذه الأفلام مروعة كالفيلم الذي جلسنا لنشاهده.

"يمكن أن تكون كذلك. أحياناً كان هناك فيلم عن هجوم في باكستان أو أفغانستان. لكن عادة ما تكون أفلاماً لإثارة الحماس. عادةً ما يكون هناك مئات من الرجال يستمعون لخطبة زعيم، بعد ذلك يتقدمون ذهاباً وإياباً أو يتوقفون فقط لإطلاق النار. يحدث كل هذا على وقع أنغام موسيقية إسلامية حماسية، مادة بطولية حقيقية. قد تبدو سخيفة، لكني كنت أحياناً أتحمس لمشاهدتها أكثر من أفلام الإثارة والتشويق! لمجرد مشاهدة أولئك الرجال مع بنادق الكَلاشنِكوف، الآلاف المؤلفة منهم، وكأنهم إلى جانبنا في هذه الحرب وبسلاحنا الخاص المتوفر بما فيه الكفاية لكل من يريد الانضمام إلينا. كان من السهل أن تلتقط السلاح؛ كنا حقيقة مطلعين على ذلك. كان الواعظ ينوه بالكَلاشنِكوف طوال الوقت. وجعل ربط السلاح بالدين يبدو كأنه شيء مقدس يجب أن تتعامل معه. كانت عبارته المميزة هي "من الواجب عليك أن تحمل الكَلاشنِكوف". عندما أخبرته أني أفكر بالعودة إلى باكستان في رحلة عائلية مع عبد الله أعطاني اسم مسجد كان عليّ أن أذهب إليه في كراجي وقال، "بينما تكون هناك عليك أن تتعلم بعض المهارات التي تمكِّنك من خدمة المسلمين في المعركة المقبلة. إنه واجب عليك. تَعَلَّم كيف تطلق النار من بندقية الكَلاشنِكوف، لأن الحرب قادمة بيننا وبينهم. ليس المهم أن نريدها نحن، فلقد أعلنوها علينا مسبقاً. إنهم يقاتلون في فلسطين والقدس والشيشان وكشمير. إذا استطعت، فاذهب إلى أفغانستان وتعلم كيف تقاتل. لقد أعطانا الله بنادق الكَلاشنِكوف. ومن الخطأ ألّا نستعملها". كان هناك الكثير من الإشادة والتميّز التي تخص بندقية الكَلاشنِكوف وذلك ما جعلني في آخر الأمر أصاب بهاجس الرغبة في حمل واحدة منها".

كان عبد الله ابن عم رحيم أقل ميلاً منه في موضوع اقتناء السلاح. "اعتقدت أنه مس من الجنون. نحن نعيش في يوركشاير الغربية، ولم أستطع أن أفهم أين سيأخذنا استخدام بنادق الكَلاشنِكوف، أعني، نحن لن نذهب

إلى "ليدز" ونطلق نيرانها على الناس، هل كنا سنفعل ذلك؟ اعتقدت أن هناك حلولاً أقل عنفاً لمشاكلنا. أعتقد أن الجهاد يمكن أن يكون اقتناعاً شخصياً، بالالتزام الديني الصارم، وليس بإطلاق النار على الناس. كنت متشوقاً جداً لرحلة العودة إلى الباكستان، لكني كنت قلقاً من رغبة رحيم في الاختفاء في معسكر تدريبي وألا أراه مرة أخرى أبداً".

قبل ذهاب الصبيان إلى كراتشي، كان عبد الله قد تحدث في أحد الاجتماعات التي يديرها أحد الوعاظ قائلاً: "المسلمون الآخرون يعيشون هنا ومختلطون بالمجتمع. لماذا لا نستطيع ذلك؟ أجابه الواعظ قائلاً: "المسلم لا يمكنه أن يتكيف مع هؤلاء الناس. والأشخاص الذين يقولون إن بإمكاننا العيش معهم هم أسوأ من الكفار لأنهم يكذبون على المسلمين، فمن الكذب أننا نستطيع أن نختلط بهم، لا يمكننا أن نعيش معهم جنباً إلى جنب. لا يمكن أن نكون إلى جنب هؤلاء الذين يكذبون على الله. هناك من يطيع الله وهناك من لا يفعل ذلك. فإما أن تكون مؤمناً أو تكون كافراً. "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ"، (سورة التوبة آية 123.م).

أجاب عبد الله "لكن هذه الآية جاءت لزمن مختلف، كان فيه الإسلام في جزيرة العرب يكافح ليستمر. لا يعني أنه يجب قتل هؤلاء الذين لا يؤمنون في زماننا هذا".

توقف الواعظ لوهلة من الزمن قبل أن يجيب مبتسماً بوجه عبد الله: "هذه الكلمات كانت تقول الحقيقة وما زالت تقول الحقيقة. ليس هناك أوقات مختلفة بالنسبة لله. الكفرة يقاتلون الإسلام على الدوام. انظر حولك. من الذي بدأ بالقتال برأيك؟ علينا أن ندافع عن أنفسنا. وهو واجبنا أمام الله".

سأل عبد الله "ماذا لو كنت لا أريد أن أطلق النار على أي شخص؟".

"هناك العديد من الوسائل كي تقاتل، فليس عليك أن تحمل السلاح. افعل ما خططت له، وارجع إلى باكستان مع ابن عمك واعثر على الدين مرة أخرى. وخذ مهاراتك معك. لا تعطها للكفار. امنحها لقومك. اجعل منهم أقوياء".

في حزيران من العام 2000 سافر رحيم وعبد الله جواً إلى كراتشي. وأمضيا أسبوعاً مع أقاربهما، يتجولون في المدينة. كان الجنود ينتشرون في كل مكان وهم يحملون بنادق AK47. لم يسبق لعبد الله أبداً أن رأى هذا الكم من الأسلحة: "كانت في كل مكان، جميع أنواع وموديلات بنادق الـ AK حولك في الشارع". كان رحيم مستفزاً من البداية، لكنه تعب من جولات التسأول وشرب الشاي وخلال شهر من وصوله قرر الذهاب إلى المناطق القبلية ذات الإدارة الفيدرالية.

حذرتهما عائلتاهما من الذهاب. ونبههما عمهما إلى أن الحدود منطقة وحشية لا تعرف القانون، وحيازتهما لجوازي سفر بريطانيين لن يضمن لهما السلامة. لكن رحيم كان مصراً على الذهاب، فسافرا جواً إلى بيشاور، وبعد بضعة أيام من الضيافة وجدا موقعهما كمتطوعين في معسكر للاجئين ومركزاً طبياً كما قيل لهما قرب سهل صغير يطل على وادي "توتشي" على مقربة من الحدود الأفغانية.

أخبرني عبد الله قائلاً: "استقلينا الحافلة في رحلة دامت سبع ساعات في مناطق الأقاليم وما إن توقفنا عند المعسكر حتى تبين لنا أنه لم يكن معسكراً مؤثراً. ليس سوى تجمع لبنايات منخفضة وأكواخ جمعت سوية في أرض لا تتجاوز المائة متر مربع. قيل لنا إن الحكومة تديرها، لكن الحراس لم يكونوا يرتدون أي زي رسمي للجيش الباكستاني. كانوا يضعون الوشاح الذي يُلف

على الرأس، ويرتدون الصدريات على قمصانهم مع بنطلونات من القطن ملفوفة عند الكاحل، وكانت بنادق الكَلاشنِكوف معلقة على أكتافهم".

وصلا مع توصية كان رحيم قد جلبها من مسجد في كراتشي، هو المسجد نفسه الذي طلب منهم واعظ يوركشاير زيارته. في المدخل نظر الحارس إلى ورقة التوصية بعجلة رجل لا يعرف القراءة، ثم طلب من أولاد العمومة أن يتبعوه. ساروا عبر المجمّع ونحو أكبر بناية من البنايات الخفيضة وهناك تعرّفا على المسؤول الإداري في المعسكر، الذي قدم لهما الشاي وأخبرهما أن المعسكر ليس قاعدة عسكرية للمقاتلين. كان من المفترض أن يكون مستشفى من حيث المبدأ. لكن طبقاً لما أورده عبد الله أنه أكثر من ذلك: "كل شخص تقريباً في المناطق القبلية يحمل الكَلاشنِكوف، لذلك فكل مكان يوحي وكأنه قاعدة عسكرية: الأسواق والمدارس والمستشفيات. لكن من الواضح أن هذا المكان كان شيئاً خاصاً. كان هناك رجال بصحة ممتازة يمرون به ويمكثون ليوم أو يومين، ثم يذهبون عبر الحدود مع إمدادات طازجة. وكان هناك خلف المجمع ساحة ترابية بمساحة ملعب كرة قدم مواجهة لسفح الجبل يتدرب فيها الرجال مع بنادقهم الكَلاشنِكوف".

تجوّل رحيم وعبد الله حول المستشفى في وسط المعسكر. "كان مبنيّاً بكسارة البلوك الخشنة. ثمة صفان من الأسرَّة المختلفة على جانبي الغرفة. كانت جميع الأسرَّة مشغولة. كان العديد من الرجال بأعمارنا أو أكبر منّا، كان بعض الرجال بسن أجدادنا، من الذين تمرسوا بالقتال لسنوات عديدة. ويحتضن جميعهم بنادق AK. لم يكن أحد منهم في موقف من ينتظر أن يسقط زميله جريحاً لكي يلتقط سلاحه، فيلم يكن هناك شحة في الأسلحة. كان هناك تخمة مطلقة ببنادق AK، كانوا يضطجعون على أسرتهم مع بنادقهم، فإما أن تكون معلقة في هيكل السرير أو إلى جانبهم.

"أخبرنا زعيم المعسكر أن معظم الرجال في المستشفى كانوا مقاتلين

جرحوا أثناء القتال في أفغانستان". تذكر عبد الله قائلاً: "عندما كانوا يتصادمون على الحدود مع عصابات التهريب المتنافسة أو في العداءات البسيطة بين القبائل كانت بندقية الـ AK هي من يحسم الخلافات هناك، فلا وجود للشرطة هناك، وكل شيء يجري على الطريقة القديمة. كل شيء عبارة عن رد فعل، لذلك إذا تعرضت للإصابة بطلق ناري فإن عائلتك تبحث عن تحقيق العدالة في القصاص من الجاني. لكن لن يمنعك أحد من أن تطلق النار في الموقع نفسه على خصمك. عندما تصاب بطلق ناري من بندقية الـ AK فأنت في ورطة. فليس لديهم سوى القليل من المضادات الحيوية والأدوية، وإذا تعرضت ساقك أو ذراعك للإصابة فإنك ستفقد أحد أوصالك. وإن كان الجرح في الجسم فستكون محظوظاً إن بقيت على قيد الحياة. وليس لدى أي من المقاتلين درعٌ مضادٌ للرصاص، ماعدا الزعماء الكبار، وبعض الرجال كانوا يعتبرونه أمراً مشيناً لا يمت إلى الرجولة بصلة، بل هو علامة على الجبن".

المدهش أن عبد لله غير مرتاح لحمل السلاح، وليس رحيم الفتى المحب للحرب والمتلهف لحمل AK، هو من تكيَّف بسهولة مع حياة المعسكر، وكان يعمل كمساعد كاتب في مكتب كبير الموظفين. "في الصباح أساعد في الأعمال المكتبية في مكتب المعسكر. لا يأخذ مني هذا العمل سوى ساعة من الزمن. كان جميع المرضى أميين تقريباً، وكان هناك القليل جداً من طلبات الأدوية التي تتطلب تدقيقها على الفواتير. بين الفينة والأخرى كان الهلال الأحمر يرسل بعض الإمدادات؛ ضمادات معقمة للتنظيف وقفازات جراحية، لكن القليل جداً يأتي من الحكومة مع ذلك افترضت أن المدير كان يحصل على راتبه. كان يتم تغطية نفقات المستشفى اليومية عن طريق التبرعات الخيرية من المواطنين المحليين والمليشيات التي تدفع القليل من أجل العناية برجالها الجرحى. أثناء وجودنا هناك حدث، ولثلاث مرّات على

الأقل، أن شاحنة كانت تأتي في الليل وكانت تفرغ حمولتها من الصناديق المحملة ببنادق AK. لا أعرف أعدادها بالضبط لكن كان هناك ما يكفي ليشغل أربعة رجال مدةَ نصف ساعة. كانوا يضعونها في ملجأ تحت الأرض مبني بالإسمنت المسلّح، لكن لم يسمح لي بالنزول هناك".

عمل رحيم كموظف خدمات عامة في المستشفى وكان عليه أن ينتظر شهراً كاملاً قبل أن ينال فرصته في إطلاق النار من بندقية كَلاشنِكوف."لم نكن مقاتلين رسميين ولم يبدُ أن هناك من يتوق لإعطائنا هذه الفرصة. وقد يكون علينا إثبات أهليتنا أوّلاً. في البداية كانوا يشككون إلى حدٍ كبير بأي شخص قادم من الخارج ما لم يعرفوه. وكانوا واعين للغاية أن مكاتب الأمن الباكستانية أو السي آي أي قد يحاولون زرع عميلٍ لهم في المعسكر".

لكن الفرصة جاءت لرحيم في صباح أحد الأيام لكي يقوم بما جاء من أجله: لكي يتدرب على بندقية AK. "كان قائد المعسكر يحتفظ ببندقية AKM ذات الأخمص المطوي في خزانته، وقال لقد استولى عليها أحد المظليين السوفييت. ما إن جاء إليّ بعد سبعة أسابيع حتى سألني إذا ما كنت أرغب في أن أجرِّب الكَلاشنِكوف. أتذكر كلماته تماماً. قال، "لنرَ أيّ الرجال أنت". أخذنا إلى حقل الرماية الكائن خلف المعسكر وعلّمنا كيفية إطلاق النار. لقد أحببتها. كل ماسمعته في إنكلترا توارد إلى ذهني عندما ناولني البندقية. شعرت على الفور بأني مجاهد. كان السلاح متوازناً تماماً. لم أبذل أي جهد في حمله، إذ بدا وكأنه قطعة مني لكن عبد الله لم يحبه على الإطلاق".

بعيداً عن تلك التجربة بستة آلاف كيلومتر الآن، جالساً في الغرفة الأمامية في يوركشاير وهو يضحك من ذكريات التدريب على الكَلاشنِكوف. قال عبد الله "لم أكن أجيده، ما إن عبر الرجل من أمامي حتى أطلقت النار في كل اتجاه، كنت على وشك الإطاحة برؤوسهم!".

وافقه رحيم على ذلك "نعم لقد فعل ذلك، ثم طلبت الإذن بأخذ عبد الله خارجاً في اليوم التالي لكي أعلمه بنفسي. كنت متلهفاً لذلك. قالوا وهو كذلك مادام هناك مقاتل آخر سيذهب معنا وما دمنا قد قدمنا تبرعات هي ثمن الذخيرة". حتى في اليوم التالي، كان عبد الله متفاجئاً من ارتداد البندقية التي أرجعته إلى الوراء ما إن ضغط على الزناد. لكن بعد عشرين دقيقة من تعليمات ابن عمه استطاع الوقوف من دون أن يتراجع، وبعد ساعة من التدريب استطاع إصابة علب الحليب التي كانوا يستخدمونها كأهداف.

كانت بقرة وبوابة هما الضحيتين لجهاد أولاد العمومة. سلّم رحيم طوعاً قائلاً "لقد كنت خائفاً، وأدركت أنني لا أنتمي إلى هناك. كان التبشير بالكَلاشنِكوف واحداً من الأشياء التي أغرتني بالذهاب، لكني كنت قد نضجت وكان في متناول يدي، لكني عرفت أنني لا أستطيع التوجه لمعركة. لأن الأمور ستكون مُخيفةً للغاية".

ما أن وصلت الحرارة في الصيف إلى أعلى درجاتها حتى بات الكثير من الرجال يأتون إلى المعسكر. كان بعضهم جرحى والبعض الآخر مرضى؛ وكان آخرون يتوقفون لأخذ الإمدادات، وصيانة البنادق والتقاط الأخبار.

قال رحيم "معظم الوافدين كانوا من الباكستانيين، لكن كان هناك رجال آخرون من البوسنة والجزائر وأماكن أخرى من أوروبا، كانوا ذاهبين عبر الحدود إلى أفغانستان لتلقي التدريبات. لقد التقينا بمقاتلين من كل مكان. لكني كنت مشوشاً بخصوص أهدافهم. كان الجميع من السُنة، مثلنا، لم يكونوا يحبون الشيعة. كنت أعتقد أن ذلك غباء. في إنكلترا كنت قد تعلمت احترام ما يقوم به الشيعة من أمثال حزب الله، في مقاومة الإسرائيليين، لكني التقيت بأحد طلاب مدرسة دينية وكان شاباً باكستانياً لا يؤمن حتى بأنهم من المسلمين. لكن كيف لك أن تقول إن الشيعة في لبنان ليسوا مُسلِمين

صالحين؟ لقد طرد حزب الله الإسرائيليين. ماذا فعل السنة لوقف اضطهاد الصهاينة لإخوتنا في فلسطين؟ فالعائلة المالكة في الأردن تدعم إسرائيل، فيما يدعم المصريون إسرائيل. على كل حال، كانوا أناساً جادين للغاية، وشديدي التدين، وقد جُبلوا من خليط غريب فلديك رجل قبلي لم يسبق له أن غادر المنطقة الجبلية يجلس إلى جانب شخص يعرف ماذا عرضت محطة MTV الأسبوع الماضي! بصراحة، شعرت أني داخل معمعة".

إن السؤال الذي يطرح نفسه هو من يعادي من، عندما تصل الشحنة الكبيرة التالية من الأسلحة، من الذي يستأجر المسلحين. إنها تلك المجاميع التي يجلس معها رحيم ويتبادل الحديث. لكن الجميع يقولون الشيء ذاته: القتال الحقيقي يحدث فيما وراء الحدود داخل أفغانستان. أعادت طالبان نظام الخلافة، وهو عالم مصغر في بلد واحد يتمنى الكثير من المقاتلين فيه أن يتحول إلى نواة لحكومة إسلامية عالمية في المستقبل.

تحرر أولاد العمومة تدريجياً من الوهم ومن الحياة في المعسكر، وعندما سنحت الفرصة لعبور الحدود لم يحرك أي من الرجلين ساكناً. في صباح أحد الأيام شاهد عبد الله ورحيم سلسلة من الرجال والبغال تغادر المعسكر وتتخذ طريقها بين الجبال. كان كل رجل منهم يحمل بندقية الـ AK ومخازن ذخيرة إضافية، وكيساً من الطحين لصناعة الخبز وقارورة ماء؛ بعد عشرين دقيقة توارت القافلة في أفغانستان. وبعد أسبوع رجع الشابان إلى كراتشي، وبعد مرور شهر طارا إلى موطنهما في بريطانيا.

تركا وراءهما بلداً تغمره بنادق الكَلاشنِكوف ولهذا أصبح من المستحيل حتى على أعتى الديكتاتوريات العسكرية أن تحكمه. فعلى المستوى المحلي وجد رجال الشرطة أنفسهم غير قادرين على فرض أبسط قواعد القانون، فلو أرادوا إلقاء القبض على أي شخص سيجدونه ليس أقلَّ منهم تسليحاً. صرح رئيس الشرطة المحلية المدعو "منور حسين" في تموز من العام 2004 في

"كوجرات" وهي المدينة التي لها علاقات وطيدة بالقاعدة ولديها إفراط في حيازة بنادق AK، بما نصه "إني اتعهد بإزالة ثقافة الكَلاشنِكوف من هذه المنطقة". لم ينجح في ذلك: فبعد سنة واحدة كانت المخازن المنتشرة في الشوارع المواجهة للمدينة مشرعة أبوابها وتبيع بنادق الكَلاشنِكوف كسلعة مكشوفة للزبائن.

في العام 2005 حاول معين الدين حيدر وزير الداخلية في حكومة الجنرال برويز مشرّف، وهو جنرال سابق في الجيش أن يخضع المناطق القبلية والإسلاميين المتشددين في المدن الرئيسية لحكم القانون. كانت مقترحاته تحدياً مباشراً لثقافة الكَلاشنِكوف الباكستانية. حيث كانت المقترحات تقضي بمنع أيٍّ كان عدا قوى الأمن من حمل السلاح علناً. كما تقضي بمنع المدارس الدينية والمليشيات الإسلامية، مثل فيلق طيبة، من جمع التبرعات من أجل شراء السلاح. شدَّد الجنرال حيدر على أن جمع الأموال لشراء السلاح عمل غير قانوني حتى ولو كان "باسم الجهاد". ردّ زعيم فيلق طيبة، حافظ محمد سعيد، بالقول: "إن هذا قرار غير إسلامي صادر من وزير في جمهورية إسلامية. نحن نجمع التبرعات لقضية مُقدَّسة ونشتري السلاح فقط لغرض الجهاد". بعد مرور سنة أصبح حمل بنادق الكَلاشنِكوف في شوارع بيشاور وكراتشي أمراً مألوفاً.

في العام 2006 كشفت الصحف البريطانية، وبطريقة هستيرية إلى حد ما، عن وجود معسكرات تدريب إسلامية في مناطق وايلز، ولايك ديستركيت، ويوركشاير دايلز، وهامبشاير وبركشاير. كانت هناك في العديد من التقارير جدية صارمة في نشر الخبر معززة بإصرار على أن هناك "تدريباً يجري على بنادق AK47". على أية حال لم تبرز لا الصحف ولا قوات الأمن البريطانية أية بندقية كَلاشنِكوف، ولم يكن هناك أي دليل يثبت وجودها. لم يكن الأمر مهمّاً، كان السلاح قد استخدم ليعبّر مجازاً عن الروح القتالية الإسلامية. بهذه

الطريقة وجدت صحف بريطانية يمينية مثل صحيفة "صن" والديلي ميل نفسها متورطة بالمشروع نفسه الذي تعتاش من خلاله وسائل الإعلام على أخبار أسامة بن لادن، وعبد الله فيصل وأبو حمزة المصري.

بقيت على اتصال مع رحيم وعبد الله وسعدتُ عندما سمعت إنهما لم يذهبا إلى أفغانستان ليصبحا جهاديين. حصل رحيم على وظيفة في مصرف، أما عبد الله فقد أصبح سائق سيارة أجرة. عندما استعاد عبد الله ذكريات أيامه في المعسكر قال شيئاً ما بشكل قاطع فيما يخص رمزية الكَلاشنِكوف وأهمية الدعاية للإسلام المقاتل: "إنهم يدربونك على استخدام الكَلاشنِكوف، لكن ما يريدونه فعلاً منك هو أن تقوم بتفجير نفسك في حافلة أو قطار. وأنت لا تحتاج إلى بندقية الـ AK لتفعل ذلك".

لم يتورط لا رحيم ولا عبد الله مع أي فصيل مقاتل، ومنذ تفجيرات لندن لم يشاهدا أي فيلم آخر عن أي نوع من الجِّهاد. ويفكر كلاهما بالزواج. في قضيتهما، على الأقل لم تكن قوة الكَلاشنِكوف كافية لتغريهما كي يبتعدا عن الحياة الطبيعية وعن الحلول الوسطى مع الكفار اللامتدينين في غرب يوركشاير. لكن السلاح سيسحب شباناً بريطانيين آخرين بعيداً عن وطنهم ويلقيهم في عاصفة رملية من الصراع والدعاية الإعلامية في المنطقة. في العام 2003 شنت الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا حرباً في الشرق الأوسط لتثبت أنها منطقة مثالية للكَلاشنِكوف.

٧ - العراق

بعد عشرة شهور من غزو العراق على يد قوات التحالف الذي قادته الولايات المتحدة وبريطانيا في العام 2003، كنت جالساً في ثكنة محصنة في جنوب بغداد مع جنود أميركيين في الفرقة المجوقلة الأولى عندما تذكر أحد الرقباء ما جرى مع "المجاهدين" في إحدى المواجهات دفاعاً عن جسر على نهر الفرات في مدينة السماوة. "انطلقنا من السعودية. ولم أر من العراقيين سوى من كانوا يرفعون أيديهم في الهواء أو القتلى. لم يطلق أحد النار علينا حتى وصلنا إلى السماوة على نهر الفرات، عندها تعرضنا إلى وابل كثيف من نيران الكَلاشنِكوف ما أن وصلنا إلى الجسر. كانت السياسة المتبعة لدينا في موقف كهذا هي أن نجلس متراصين ونستدعي القوة النارية، للطائرات أو الدبابات. لم نكن بحاجة إلى استدعاء أحد فقد التفّت من ورائنا ثلاث دبابات "أبرام" وعبرت الجسر. عادة ما تجعل الدبابات الناس يبتعدون عن الطريق. فكان من المؤكد أن أبتعد عن طريقها ففعلت. لكن هؤلاء الأشخاص لم يفعلوا ذلك. خرج المجاهدون من الطرق الجانبية من الضفة الأخرى وبدأوا بإطلاق النار على الدبابات. لم يكن لديهم قذائف آر بي جي، لم يكن بحوزتهم سوى بنادق الـ AK. كانوا يطلقون النار على الدبابات من بنادق كَلاشنِكوف!" أستطيع أن استنتج من نبرة صوت الرقيب أنه لا يزال من الصعب عليه تصديق ما رأت عيناه. "حتى أنهم لم يحاولوا الابتعاد عن الطريق. وكأنهم تحت تأثير مخدر، فقط ينتصبون واقفين هناك ويطلقون نيران

الكَلاشنِكوف على دروعنا. في آخر الأمر أدارت دبابات أبرام مدافعها وهذا ما كان. بووم! وانتهى الأمر لكن ما أعنيه هنا هو، إطلاق النار من بنادق الـ AK! هذا هو الأمر الجلل".

أعطى النجاح الذي حققته عاصفة الصحراء انطباعاً للبعض في إدارة بوش بأن الحرب التقليدية قد انتهت. كما أن النصر في صراعات المستقبل سيتحقق عبر القوة الجوية وصواريخ كروز التي لا تدع للقوات البرية سوى مهام بسيطة تقوم بها وهي تطويق الناجين من صدمة القذائف. في العصر الجديد هذا بدا أن الكَلاشنِكوف لم يحظ إلا بحيز قليل يتحرك فيه. ما الذي تملكه بندقية هجومية عمرها ستون سنةً بمواجهة صواريخ كروز ودبابات أبرامز؟ لم أقتنع بأن القوة العسكرية الأميركية يمكنها أن تتغلّب على سلاح حقق نجاحاً لفترة طويلة في الملمات والشدائد وحالات الفوضى، لذلك كان عليّ أن أذهب بنفسي إلى العراق لكي أرى بنفسي ما إذا كانت هي فعلاً حقيقةً بداية النهاية لبندقية الكَلاشنِكوف.

تم القضاء على المجاهدين في السماوة، وعبر الأميركيون إلى الضفة الأخرى واستمروا في التقدم إلى بغداد. ما صدمني، على أية حال، أن هذه القصة لم تكتب النهاية لاستخدام بندقية الـ AK في الحرب الحديثة، بل أكثر من ذلك كان هناك تذكير صارم بأنها لن تخرج من الخدمة أبداً. في الواقع كانت الحرب التي يفترض أنها أعطت إشارة الختام لحكم الكَلاشنِكوف هي من قدمت لها العلامة التجارية التي تدفعها بقوة نحو السوق، وخلقت جيلاً جديداً بكامله من المناهضين لقوة الولايات المتحدة الإمبريالية. وهو من سيقتل أيضاً المزيد من قوات GI.

لا يعرف أحد على وجه التحديد مخزون العراق من بنادق الكَلاشنِكوف؛ ولم يكن الأميركيون والبريطانيون بالتأكيد يعرفون ذلك عندما غزوا العراق. كانت استراتيجيتهم هزيمة الجيش العراقي على الأرض - وهو ما أنجزوه بسهولة

- مع قليل أو حتى من دون التخطيط لمواجهة حرب المقاومة التي يمكن أن تأتي بعد الغزو. افترضوا وبما يمكن أن نسميه اليوم وقاحة مذهلة أنهم سيعاملون كمحررين، وهو الخطأ الذي سيندمون عليه، ولات حين ندم. وهكذا، تفاجأ المخططون للحرب بضراوة المقاومة التي بدأت بغضون بضعة أشهر بعد الإعلان الرسمي عن نهاية الحرب. بالأحرى بات من الواضح أن الخلاصة الجديرة بالاعتبار للتاريخ الراهن للبلد، حتى وإن كانت نسبة قليلة من الشعب العراقي رافضة "للتحرير"، تؤكد أنهم يمتلكون ما يكفي من السلاح للمقاومة الضارية والموجعة. وربما الأكثر أهمية، أن الكَلاشنِكوف بالنسبة للعراقين لم يكن سلاحاً فحسب: لقد شق طريقه إلى كل مستوى في المجتمع، كممثل عن الرجولة، والقوة، وعند الضرورة، العنف.

وصلت بنادق الـ AK إلى العراق في أول الأمر في أواسط الستينيات عندما انقسم الشرق الأوسط على طول الخطوط التي رسمتها الحرب الباردة: اصطف الأردن وإسرائيل مع الولايات المتحدة الأميركية، والعراق وسوريا ومصر مع اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية. بعد استيلاء صدام على السلطة في العراق الذي تلا الانقلاب الذي قام به حزب البعث في عام 1969 (انقلاب حزب البعث كان في عام 1968 وليس كما ذكر المؤلف. م) وقّع العراق عقوداً مع الصين الشيوعية ويوغسلافيا على أيام تيتو لاستيراد بنادق موديل 56 صينية وبنادق "زازتافا" M70B1 (وهي نسخة معدلة عن بندقيةAKM السوفييتية). ازداد مخزون السلاح عندما بدأ العراق بإنتاج نماذجه الخاصة من بنادق كَلاشنِكوف: تبوك وهي نسخة عن بندقية "زازتافا" M70B1، وكَلاشنِكوف A1 القدس (الاسم العربي لأورشليم) وهي رشاش خفيف. كل تلك الأنواع كانت من إنتاج معمل الأسلحة العراقية خارج بغداد.

كان الكثير من المناطق السنية في وسط العراق تدار في كل المستويات عبر التقاليد والأعراف القبلية التي تستند على سلطة كبار السن والشيوخ،

وقد تشكلت تقاليدهم بواسطة نمط الحياة القديم في الصحراء التي تؤكد على العائلة والعشيرة والملكية الخاصة لبنادق AK47. بعد غزو العام 2003 وما تلاه من احتلال، تزايد رقم تداول بنادق الكَلاشنِكوف تزايداً فعلياً. فقد فشل الجيش الأميركي في حراسة مستودعات أسلحة الحكومة العراقية، وفي شهر آذار من تلك السنة كان احتياطي الأسلحة من بنادق الكَلاشنِكوف قد اختفى بأيدي السكان حتى أن سعر البندقية الواحدة كان متاحاً بأقل من 100 دولار.

لم يكن مركز الإمداد الشامل للأسلحة هو بالتأكيد ما يشكل محور الصراع مع الكَلاشنِكوف بل أيضاً، وكما حدث مع السلطات الباكستانية، كان ثقافة الكَلاشنِكوف. الصورة التوضيحية لهذا السيناريو هي ما جرى ليلة 22 من تموز العام 2003، عندما أوردت الأخبار نبأ مقتل كل من عدي وقصي نجلي صدام حسين. فقد شهدت بغداد إطلاق نار كثيف في الهواء من بنادق الـ AK وكانت حرفياً مثل زخات المطر: على الأقل كان قد قتل واحد من قوات GI وجرح العديد من العراقيين بسبب الرصاص الطائش. عندما كان العراقيون يحتفلون في مناسبات الزواج والولادة أو حتى عند افتتاح مبنى جديد في قرية، كانوا يطلقون النار في الهواء من بنادق الكَلاشنِكوف ابتهاجاً، وفي السنة الأولى من الاحتلال كان المشاة الأميركيون يردون بقوة نار تدميرية. في أيلول عام 2003، على سبيل المثال، ردت القوات الأميركية على إطلاق نار في الهواء كان في حفلة عرس في الفلوجة وقتلت طفلاً في الرابعة عشر من العمر وجرحت ستةً آخرين. كانت سياسة الوحدات الأمامية للجيش الأميركي ببساطة كالآتي: إذا سمعت إطلاق نار ولم يكن من جانبك، فعليك أن ترد على مصدر إطلاق النار حتى يتوقف. لكن في العراق دائماً تسمع صوت إطلاق النار. حاول الضباط الأميركيون بطريقة شخصيّة إقناع قوات GI بأن يتخذوا إجراءات للرد أقل تدميراً، لكن القيادات الأميركية كانت غير مقدرة

للعواقب الخطيرة لمثل هذه التوجيهات. في الحقيقة، كانت أوامر القيادات رفيعة المستوى توصي برفع سقف الرد: في شهر آيار من العام 2004 أدت ضربات جوية على حفل زفاف قرب الحدود السورية إلى مقتل خمسة وأربعين شخصاً. في تبريرهم لهذه الضربات ادعى المسؤولون في قوات الاحتلال بأن هناك بنادق كَلاشنِكوف كانت على أحد البنايات. كان ذلك صحيحاً: قبل هذا الحادث بسنة، بالضبط في آيار من العام 2003، صرّح المسؤول الأميركي الأول في العراق، بول برمر أن قوات الاحتلال سمحت للعراقيين بحيازة بندقية كَلاشنِكوف واحدة لكل فرد في البيت "للدفاع عن العائلة"، على الرغم من أنه طلب تسليم كل الأسلحة الحربية الأخرى.

عندما وصلت إلى العراق في كانون الثاني العام 2004، كان الصدام بين التحالف والمقاومة العراقية يتسارع ليتحول إلى واحد من الصراعات المعروفة في تاريخ الكَلاشنِكوف، ولأني أردت أن أفهم القوة والفاعلية المستمرة للسلاح كان لزاماً عليّ أن أكون شاهداً على الصراع. ذهبت في رحلة جوية في طائرة من طائرات النقل العسكرية من نوع هرقل من البصرة وهي المنطقة التي يحتلها البريطانيون إلى بغداد عبر المناطق الصحراوية قبل أن تحط بنا في إحدى الضواحي النائية. هبط الطيار منخفضاً إلى مستوى سقوف المنازل ليتجنب نيران الأسلحة والصواريخ، مطلقاً عصفات من غبار الألمونيوم فضية اللون وهو يترنح في هبوطه ليربك الصواريخ الحرارية التي قد تطلق عليه. لكنه غير متأكد تماماً من عدم وجود تهديد ببنادق الكَلاشنِكوف. "يجب أن تجعلها ترتد" قال ذلك بحرفية المُختصّ لكن ذلك لم يفعل سوى القليل ليهدئ من روعي. طار منخفضاً للغاية حتى إن مساعد الطيار كان يوجهه ويحذره عندما يقترب من أسلاك الكهرباء أو خطوط الهاتف ليرتفع فوقها. بعد ذلك توقف الإنذار في طائرة هرقل مشيراً إلى أن الصاروخ أخطأنا، وطار الطيار بنا لمدة دقيقتين وهو يقذف بالمزيد من العصفات الفضية قبل أن ينزل بنا بسلام.

عندما حطت الطائرة قال مساعد الطيار "نحن آسفون بشأن ذلك، فقد كان إنذاراً خاطئاً". أفادني هذا الأمر كي أتذكر خوفي المسبق من فقدان حصافتي عندما التقي مع الوحدة التي يتوجب علي أكون برفقتها.

انتقلت من القاعدة العسكرية الضخمة حول مطار بغداد إلى الجنوب الغربي من بغداد، بواسطة قافلة من ثلاث دبابات من نوع "هامفي" التي اعتادت على مقولة أحد الرجال الذين يقفون خلف الرشاش في أعلى الدبابة وهي "أنها منطقة جميلة ومخادعة". داخل قاعدة "الذئب" على تخوم المدينة وجدت رجالاً من فرقة "ألفا" يجلسون على مقربة من غرفة القيادة الرئيسية. قيل لهم إنهم سيستدعونهم للعودة إلى الوطن قريباً، وكما حدث في حالات سابقة لم يحدث شيء يجعلهم يسمحون لأنفسهم بالأمل بأن الأمر قد يتحقق. قال أحدهم وكان شاباً في العشرين من العمر من ولاية لويزيانا: "بالتأكيد نحن خائفون، وأن تكون بهذا القرب من العودة إلى الوطن وتُقتل، فهو أمر مرعب".

كان الجندي ورفاقه من قوات الطليعة التي اجتازت الصحراء في السنة السابقة. ومنذ إعلان الرئيس بوش من على ظهر البارجة "إبراهام لنكولن USS" في أيار من العام 2003 كانوا يرون رفاقهم وهم يقتلون على أيدي القناصين، أو بقذائف الآر بي جي، أو بالعبوات المتفجرة المزروعة في جوانب الطرق (فقد تطورت تقنيات التفجيرات، من العبوات على جانب الطرق إلى مفخخات للمعادن المتشظية تفجر من بعيد عبر أجهزة تحكم إلكترونية كالتي تستعمل لأبواب الكراجات وتشغيل التلفزيون وإطفائه)، إضافةً إلى الهجمات بقذائف الهاون. قبل أسبوعين قُتل رجلان وجُرح آخران بجروح خطيرة عندما انفجرت أداة تحت دبابتهم. وقال لي أحد الضباط الذين كانوا في قافلة تعرضت لإصابة في الشهر السابق: "بعد الانفجار خرجوا علينا وهم يطلقون النار على الناجين من بنادق AK. لم نكن قافلة كبيرة، لأنهم

يعرفون أن لدينا قوة نارية قادرة على نسفهم. لكن مع قافلة صغيرة، مؤلفة من ناقلتي جند هامفي أو ثلاثة، يمكن أن تواجه مشاكل. اذ ان تحصُّن ثلاثة أو أربعة رجال بمواقع جيدة مع بنادق كَلاشنِكوف بإمكانهم أن يثبّتوك في مكانك حتى تأتي طائرة هليكوبتر للمؤازرة. في بعض الأحيان كان لديهم شخص يحمل آر بي جي ينتظر على مقربة منهم لكي يطلق القذيفة على الهليكوبتر، لكن عليك أن تكون خارق الشجاعة لكي تفعل ذلك لأن طائرات الهليكوبتر تستطيع تنظيف منطقة كبيرة بسرعة هائلة. كذلك قد تتعرض لإطلاق نار بنادق الكَلاشنِكوف وأنت في الشارع".

كانت هناك مجموعة من الصور معلقة بمسامير على طول الممر خارج غرفة القائد. كانت صوراً لأفراد من الفرقة لاقوا حتفهم، وإلى جانب الصور علقت نجوم بلاستيكية على قطع من القماش؛ أضفت جواً من الكآبة على طول الممشى المؤدي إلى مهجع للنوم. بعد ليلة متعبة بسبب التقلب في كيس للنوم لأني لم أكن معتاداً على النوم فيه، التحقت بدورية صباحية تسير في إحدى الضواحي الجنوبية المعدمة لبغداد. كانت المهمة حسب ما أوجز الملازم، هي الذهاب إلى بعض القرى القريبة، والترجل من الناقلات والقيام بجولة. هذا النوع من الدوريات كان بغرض طمأنة السكان المحليين بأن القوات الأميركية هي المسيطرة ولإقامة علاقات صداقة مع زعماء القرى. عندما بدأنا الرحلة، أعطاني الرقيب الذي يجلس إلى جانبي في الهامفي تلخيصاً بليغاً عن المهمة قائلا: "اذهبوا إلى هناك ثم عودوا إلى هنا من دون أن تتعرضوا للتفجير أو إطلاق النار".

بعد ساعة من المسيرة المثيرة للأعصاب بين القرى الصغيرة المتناثرة هنا وهناك وبين الضواحي، كان يخرج فيها الملازم المسؤول عن الدورية بين الفينة والأخرى من الدبابة ليتحدث مع أحد الشيوخ المحليين أو مع مختار المنطقة. وكان الرجال داخل ناقلات الهامفي حذرين من التعرُّض

لهجمات المقاومة العراقية، غير أنّه من المحتمل أن يتعرضوا لإطلاق النار وهم خارج عرباتهم لأنهم سيكونون هدفاً أكثر سهولة لبنادق الـ AK التي يحملها عدوُّهم الذي لا يرونه.

التفت إلي الجندي المسؤول عن أجهزة الاتصال الجالس إلى جانب الرقيب وقال: "إذا جاءوا نحوك وكانوا يطلقون النار، ما عليك سوى الوقوف في مكانك. فطالما هم يصَوِّبون عليك، فلن تتعرض للإصابة". قلت له لو اعتبرنا القوة النارية الهائلة للكَلاشنِكوف فإن هذا التكتيك الذي تنصحني به غير مجدٍ. هم في النهاية سيصيبونك حتى لو لم يصَوِّبوا عليك. عندها ضحك الرقيب وقال: "لا هراء! طبعاً لا... لا تبقَ في مكانك بل اختبئ تحت شيء ما أو عُد إلى الهامفي بأسرع ما يمكن، لا تقلق... سنكون هناك قبلك".

بدلاً من أن نستمر نحو القرية الأخيرة في جولتنا، قمنا بعبور أرض تتناثر فيها بعض الشجيرات. كانت دبابات الهامفي تنتظر وصولنا في الجانب الآخر. حتى الآن كان الأطفال وقطعان الخراف والماعز يتبعوننا، لكن ما إن اقتربنا من خلال برك مياه الصرف الصحي الطافحة وركام القمامة والنفايات حتى خلا المشهد من مظاهر الحياة بالمطلق. مشى الرجال بالقرب من جدران المنازل يحثون الخطى نحو بيت المختار في وسط القرية. سأله الملازم فيما إذا كان صهريج المياه يصل بانتظام إلى القرية وفيما إذا كانت القرية تحصل على ما يكفي من إمدادات الطاقة الكهربائية. كانت هذه الأسئلة على مايبدو أسئلة تقليدية عامة لكنّها أسئلةٌ حيوية وهامة إذا كان الملازم يريد أن تتوقَّف القرية عن إيواء المسلحين. فالكَلاشنِكوف يزدهر وسط البؤس، ومعظم الأحياء في المدينة لا تصلها الكهرباء سوى أربع ساعات في اليوم - لكن حتى هذه المدة غير منتظمة بشكل تام - بينما يصل الماء النقي من الأنابيب الرئيسية في الطرقات أو بالصهاريج. كان علي وهو شاب عراقي يعمل مترجماً، ينقل أجوبة المختار. كان علي يضع قناعاً على وجهه ليخفي هويته: لو اكتشفت المقاومة

أنه يعمل مع الأميركيين، فإنه يُقتل أو يتعرض لما هو أسوأ من ذلك هناك مترجمون تعرَّضوا للتعذيب حتى الموت.

لم يصل للقرية شيء لا الكهرباء ولا صهريج المياه في ذلك الأسبوع، وبينما كان الملازم يهدئ من غضب المختار المتزايد كان باقي أفراد الدورية ينتشرون ويتخذون لأنفسهم مواقع يحتمون بها، باحثين على مايبدو عن مصادر لإطلاق النار من قناص محتمل. بعد عشرين دقيقة غادرنا المختار وبدأنا رحلة العودة للانضمام إلى قافلة دبابات الهامفي. كنت في حينها فاقداً لرباطة الجأش تماماً بسبب الجو الذي يلف القرية، وكنت شديد التوق للعودة إلى الدبابة والمغادرة.

كنا عند تخوم القرية عندما وصلتنا أصوات إطلاق النار: فرقعت الطلقات. ظننت أن الرجال سينبطحون على الأرض، لكن بدلاً من ذلك، كانوا ينظرون من حولهم ليكتشفوا من أي جهة جاء الصوت. لم يبدِ الملازم أي ملاحظة على الإطلاق.

أمرنا الرقيب قائلاً: "توجهوا نحو الجدار إنها طلقات كَلاشنِكوف".

فعلت ماطلبه منا الرقيب تماماً، وكنت هناك مع علي. على الرغم من خوفي إلا أني كنت متفاجئاً أن لا أحد من الرجال قد تحصن.

عادت الحياة إلى الملازم عندما صرخ "من أين أتى صوت إطلاق النار؟"

أشار الرقيب إلى جهة اليسار، حيث تندج القرية التي قمنا بزيارتها مع قرية أخرى إلى جوارها.

قال الملازم ببرود "سيكون قد ذهب. دعونا نعود إلى دباباتنا".

أجاب الرقيب "نعم سيدي".

عندما سرنا نحو الدبابة سألت الرقيب لماذ لم يلاحقوا المسلح؟

"الأمر لا يستحق، فلن تجد أحداً هناك الآن. ليس سوى هجوم لقناص منفرد أطلق بعض زخات من الرصاص، فأي إطالة في ذلك ستكون خطرة للغاية بالنسبة للمسلح. إنهم كثيرون جداً ولا نستطيع أن نذهب وراء الجميع بعد الآن، كما أنك لا تستدعي ضربة جوية لكي تقتل قناصاً واحداً. حتى أننا غير متأكدين من أنه كان يطلق النار علينا".

كان ذلك كل ما حدث. وهي المرة الأولى التي أكون فيها تحت نيران الكَلاشنِكوف - تجربة أشارك بها الآن مئات الآلاف من الناس حول العالم - كان حدثاً غريباً مُفرَّغاً من المضمون: بضعة طلقات ثم لا شيء بعدها. لم يُضرب أحد ولم يُرَ في المشهد لا سلاح ولا مسلح.

في اليوم التالي اصطحبوني لمنطقة تعرض فيها الأميركيون لإطلاق نار من بنادق AK. جاءت فرقة "برافو" إلى القاعدة في رتل مكّون من أربع دبابات هامفي لكي يأخذوا حصتهم من الطعام الساخن فانضممت إليهم عندما عادوا إلى محطة لتوليد الكهرباء كانوا مسؤولين عن حمايتها، تقع على بعد ثلاثة كيلومترات شمال شرق قاعدة "الذئب" بين نهر دجلة والطريق السريع الذي يربط الشرق بالغرب والذي كان يشكل الحد الخارجي لواجهة القاعدة الأمامية. سار الرتل عبر الطريق السريع الذي يربط الشمال بالجنوب نحو مركز بغداد إلى المنطقة الخضراء التي يفترض أنها آمنة. قبل أن نصل إلى دجلة استدار الرتل إلى اليمين وخرج من الطريق السريع نحو الشارع المؤدي إلى محطة الكهرباء. وفي الحال تقاطع الرتل مع صف طويل من السيارات العراقية المهترئة تنتظر أمام محطة للوقود كانت مزدحمة بالمدنيين والشرطة العراقية. كان هذا الموقع مسرحاً للعديد من الهجمات على قوات الاحتلال خلال الأشهر السابقة. شرح لي أحد الجنود لماذا كانت خطيرة جداً، قال إنها مثال صارخ على كيف أن انتشار الكَلاشنِكوف من حولهم له نتائج وخيمة.

"إن محطة الوقود هذه هي ألعن محطة وقود في العالم. هل رأيت ذلك

الصف الطويل؟ إنه فقط بسبب الوقود الذي يباع على فترات متباعدة. وعندما يغادر أحد ما من الصف يأتي غيره، لذلك فإن هذا الصف لا يصغر أبداً. ولأنهم يشترون الوقود ليس فقط لسيارتهم بل يأخذون أيضاً وقوداً من أجل الطبخ. في بعض الأحيان يصابون بحالات من الغضب والاهتياج فيقوم رجال الشرطة بإطلاق النار من بنادق الكَلاشنِكوف في الهواء لتهدئة الحشد الغاضب. إنها لا تجعل الأشياء هادئة جداً، لكنها توضح المشهد. إذا كان الحشد كبير بما فيه الكفاية تجد أن أحدهم يتقدم ويطلق النار على الشرطة عندها يجب علينا أن نتدخل. فيتختفي مطلق النار بين الحشد، عندها لا نستطيع أن نشق طريقنا بين مائتي شخص على أمل أن نمسك الرجل المطلوب مع بندقية AK".

عندما يشرع أحد ما بإطلاق نار الكَلاشنِكوف، كان رجال الفرقة يسمون الأمر "حالة". وكانت المقاومة تعتبر هذه "الحالات" في محطات الوقود فرصة متاحة لقتل الأميركيين. إذ كان اثنان من الجنود الأميركيين عرضةً لإطلاق النار هناك. أحدهم طعن في عنقه، وإطلقت قذيفة آر بي جي من رجل جاث على ركبته فعبرت الحشد والشارع ونجا الجميع بأعجوبة فقد مرّت من بين حشد من الرجال ولم تصب أحداً منهم. عندما اقتربنا، كان من الواضح أن هناك المزيد من المشاكل. جرى الإبلاغ عن إطلاق نار وقد كان هناك مائة شخص على الأقل يتحلّقون حول محطة الوقود. كانت هناك دبابتا هامفي قد وصلتا مسبقاً من قاعدة "الذئب"، وشكّل الرجال طوقاً دفاعياً حول المكتب الرئيسي. كان هناك ضابط شرطة عراقي يضع نظارة شمسية ويلف خرقةً على يده التي كانت قد تعرضت لإصابة برصاصة ارتدادية من بندقية كَلاشنِكوف في مكان ما على مقربة منهم. وكانت هناك طائرة هليكوبتر تحوم فوق رؤوسهم، يصوب منها رشاش ثقيل نحو الحشد في الأسفل. بعد مشاورات متبادلة مع الدورية الأخرى أمرنا الملازم بأن نكمل طريقنا نحو

محطة الكهرباء. ومرة أخرى تبين إن الرجال المسلحين ببنادق الكَلاشنِكوف كانوا ببساطة قد تلاشوا.

كان المزاج العام داخل دبابات الهامفي متوتراً كما هو متوقع. وبعد أن قطعنا نصف كيلومتر على الطريق خرجت سيارة قديمة من نوع نيسان برتقالية اللون من زقاق جانبي واندست خلف الدبابة الأخيرة وحافظت على سرعتها المتأنية. كانت الناقلة الأخيرة مُزوَّدة برشاش ثقيل في أعلاها وكان الرامي يوجِّهها مباشرة نحو الواجهة الزجاجية الأمامية للسيارة وكان يهز رأسه ببطء من جانب إلى آخر. لكن السيارة ظلت تمشي وراءهم، لذلك بدأ الرامي بالصراخ: "ابتعد عن الطريق! اللعنة، ابتعد عن الطريق!". أومأ بوحشية بيده اليسرى بينما كانت يده اليمين تمسك الرشاش الموجه إلى وجه السائق. في نهاية المطاف أبطأت السيارة من سرعتها ثم توقفت.

كانت هذه المسافة الأخيرة قبل الوصول إلى القاعدة تعتبر رسمياً ضمن نطاق المناطق الصديقة وليست الخطرة، لكن رغم ذلك تعرض الرجال إلى إطلاق نار في الشهرين الأخيرين على نحو منتظم. قبل ستة أشهر كانت المقاومة العراقية تتواجد بعيداً جداً عن القاعدة في أبعد نقطة يمكن أن تصلها الدوريات الأمر الذي، من الناحية النظرية، يجعل من الصعب وصول الإمدادات إلى الدورية المستهدفة بعبوات وفي الوقت نفسه يقلل من المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها المقاومون الذين يزرعونها. والآن أصبحت التفجيرات أكثر قرباً من القاعدة. كانت البيوت والأزقة تحيط بالقاعدة من ثلاث جهات وكان بإمكانها أن تخبئ ألفاً من الثوار، ثم إن تفجير العبوة بنجاح لا يحتاج سوى لرجلين، واحد لزرعها والآخر يقوم بالكبس على الزر عندما يقترب منها الأميركيون. فيما يحتاج الهجوم المنظم في الحقيقة إلى خمسة أو ستة رجال يحملون بنادق كَلاشنِكوف ويتخذون أمكانهم حول الكمين، وهم على أتم الاستعداد ليطلقوا النار على كل من يخرج من حطام الناقلة مترنحاً من هول الصدمة.

عندما اقتربنا من القاعدة زاد السائقون من سرعة المحركات، وفي المقاعد الأمامية من كل مركبة كان رجل ينظر إلى جهة اليمين وآخر إلى جهة اليسار، ليتفحصا بدقة جانبي الطريق بحثاً عن أي شيء يمكن أن يكون عبوة ناسفة. يمكن للعبوات أن تخبأ بأكياسٍ بلاستيكية أو بغطاء عجلة سيارة أو بصناديق الكرتون، أو وسط كومة من الخضار الفاسدة أو تحت سعف النخل. وكان أي شيء يبدو أنه نفايات متروكة مثيراً للريبة، وكنا في بلد تترك فيه النفايات على جوانب الطرقات.

كانت ناقلة الجند الهامفي غير مُجهّزة كما يجب للنجاة من الانفجارات. وكانت المركبات الثلاث الأولى غير مدرعة، فكان الرجال يضعون ألواحاً صلبة على الجوانب وفي داخل السقوف القماشية ليحموا أنفسهم. كانت الدبابة الأخيرة فقط، التي تحمل رشاشاً ثقيلاً، مُدرَّعةً بطريقة مناسبة. انفجرت دبابة هامفي على الطريق في آخر الصيف الماضي وانقلبت رأساً على عقب في خندق، حيث تعرضت لإطلاق النار من بنادق الـ AK حتى جاءت دورية أخرى إلى الزاوية نفسها وقتلت اثنين من المتمردين. قال الرقيب "كانا يقفان هناك ويطلقان النار، وكأنهما محصنان ولا يستطيع أحد أن يمسَّهما". قلت في نفسي تماماً كما كان الرجال على جسر السماوة.

تجاوزنا صفاً من الحوانيت الصغيرة، التي كانت قبل عام تستقبل الجنود الذين يتوقفون لشراء علب الكوكا كولا والسجائر والبسكويت الناشف، قبل أن تبدأ القوات الجوية بفتح النار على كل احتفال تطلق فيه أعيرة نارية من بنادق الكَلاشِنكوف. وقف رجال عراقيون متجهمون عند المداخل؛ لوّح لنا بعض الأطفال وقام آخرون برشقنا بالحجارة. سحبت الشرطة العراقية بعض السيارات من طريقنا بسرعة لأنهم كانوا يعرفون أن الأميركيين المكلفين بحماية محطة الكهرباء لن يتوقفوا أو يتمهلوا في سيرهم لأي سبب بعد الآن. كان رجال الشرطة يضعون النظارات الشمسية ويدخنون رافعين أيديهم في الوقت الذي

تجأر فيه دبابات الهامفي وهي تمرُّ من أمامهم من دون أن يُعبِّر أحد مِنهم عن ترحيبه. على بعد كيلو متر مِن محطة الكهرباء، رأيت عبر الزجاج الأمامي المُغبّر، أكواماً من الخردة لمولدات كهربائية مُتفحِّمة تقف بلا جدوى منذ أن تعرضت للقصف من قبل طائرات التورنادو البريطانية، القاصفة المقاتلة، في أول الحرب. توقفنا لدونما سبب، اجتزنا المسافة في مدة يبدو أنها استغرقت دقيقتين. كنت مفتقراً إلى سترة مضادة للرصاص، لذلك حشرت نفسي قدر المستطاع داخل الهامفي عندما انطلقنا بسرعة في أرض قليلة الأشجار ومن بين زرائب الحيوانات وبيوت البلوك. كان هناك خمسة دبابات تقف مباشرة أمام القاعدة لكي تسد الطريق على الانتحاريين المُحتمَلين، كما أن هناك رشاشاً ثقيلاً تمَّ تركيزه على جدار من أكياس الرمل بارتفاع مترين يجلس خلفه جندي أميركي. في مواجهته من الجانب الآخر من البوابة هناك خمسة من رجال الشرطة العراقية يحملون بنادق كَلاشنِكوف ويتحلقون حول نار أوقدوها في برميل للوقود.

قال الرقيب للسائق: "لا يبدو عليهم القلق الشديد".

نادى السائق على أحد رجال الشرطة باسمه، "يا آشتي، هل أولاد عمك سيهاجموننا الليلة؟"

أجاب الشرطي مبتسماً "مرحباً، سيدي، ليس هناك أولاد عم الليلة".

نزل الملازم من الدبابة الأولى وخطا نحو الرجل المتحصن بأكياس الرمل. "هؤلاء الرجال يفترض بهم أن يحرسوا البوابة معك".

أجاب الجندي "اللعنة، نحن في وضح النهار، سيدي، لن يحدث شيء".

"إذن أنت تقول إن المقاومة تهاجم القاعدة في الليل فقط، لذلك ليس هناك ضرورة لأن تكون تحت الحراسة خلال النهار؟".

فكر الجندي بالموضوع لثوانٍ معدودات ثم قال، حسناً، سيدي، إنهم يهاجمون في الليل فقط".

ضغط على البلوك الموضوع على الحاجز لكي يرفعه كي تمر القافلة.

مرت القافلة ثم توقفت عند بوابة داخلية في أول طريق مشجر بالنخيل يؤدي إلى برجين لمحطة توليد الكهرباء. عند البرجين التقينا بمجموعة من المستخدمين العراقيين بملابس رثة يعملون في الموقع، يتجولون وراء رافعة شوكية تحمل صندوقاً للعدد. خلف العراقيين كان ثمة مهندسان ألمانيان، يرتديان الشورتات والقمصان الصيفية رغم أن الفصل كان لا يزال شتاءً. كانا المهندسان الممثلان الرسميان لشركة أميركية تملك عقداً لإصلاح المحطة. في الأسبوع السابق تعرضت القاعدة لهجوم بقذيفة هاون كانت قد دمرت السقيفة التي يحفظون فيها العدد والأدوات، فأصبح مِن الواضح أن المهندسين والميكانيكيين العراقيين لم يعودوا مهندسين ولا ميكانيكيين. لذلك لا ينجح العمل في الموقع مرةً تلو الأخرى.

كانت هناك سيارتا لاندكروز بزجاج مظلل تقفان عند ركام البرجين. كانت الأبواب مفتوحة، رأينا اثنين من الجنود البريطانيين السابقين يعملان في الأمن لصالح المتعاقدين للعمل في الداخل. كان يحمل كل واحد منهما رشاشاً نصف آلي.

استدرنا من ورائهم نحو مجمع أمام مبنى الثكنات الصغير المكوّن من طابق واحد. على السقف كان هناك موقع آخر محصن بأكياس الرمل يشغله أربعة من رجال الشرطة العراقيين كانوا يبتسمون وهم ينظرون إلى الأسفل كالرجال الذين نزلوا من دبابات الهامفي. على بعد خمسة وعشرين متراً على الجانب الآخر من المجمع تقف أربع كابينات دورات مياه بلاستيكية مكعبة الحجم مثبتة بالكونكريت الواحدة بجانب الأخرى، كانت أبوابها في الجهة التي لا تواجه

الثكنات. شرح الرقيب باستخفاف ذلك التنافر قائلاً: "قرر أحد مهندسي الفيلق بأن الوضع السليم لموقع المراحيض هو هذا، لكي نمنع وصول الروائح إلى النوافذ، لكن بعد فترة ليست طويلة سيكون من الصعب علينا العودة منها بأمان إذا تعرضت القاعدة لهجوم". من الجلي أنه كان رأياً متفائلاً إذا أخذناه بالاعتبار قبل أن يصبح تعرض القاعدة للقصف بالهاونات وإطلاق النار من بنادق الـ AK منتظماً؛ بعد ذلك امتنع الرجال من الذهاب إلى تلك المقصورات بعد منتصف الليل عندما بدأت المقاومة بإطلاق النار من الجانب الآخر للطريق السريع.

نزل الرجال من الدبابات وخلعوا من رؤوسهم الخوذ وعن صدورهم الستر الواقية من الرصاص. البعض منهم ذهب إلى حشد يؤدي صلاة الشكر على العودة سالمين من الدورية من دون أن يُقتلوا أو يُشوهوا. جلس آخرون حيث هم وفتحوا عُلب الكوكا كولا المستخرجة من صفيحة للنفايات مُلئت بمكعبات الثلج. وأشعل كل واحد منهم سيجارة.

كان السائق يمازح الشرطي "آشتي" كون ابن عمه من المقاومة، لكن العديد من رجال الشرطة العراقيين كان لديهم اتصالات بأحد ما يعرف متى تبدأ المشاكل بالظهور. في الليل عندما تقوم إحدى الفرق بدورية خارج القاعدة وتبقى أخرى على أهبة الاستعداد في الداخل، كان رجال الشرطة العراقيون يدافعون عن القاعدة بمنتهى الشعور بالمسؤولية والدفاع عن النفس. كان لديهم عادة في الاختفاء تماماً قبل أزيز رصاص بنادق الـ AK الذي ينهمر على الطريق المشجر وقبل أن تبدأ قذائف الهاون بالتساقط على المجمع. إذا خرجت في الليل ولم ترَ الشرطة على السقف أو في الأسفل عند البوابة فمن الأفضل لك أن تعود أدراجك بسرعة داخل الثكنة لأن شيئاً ما سيئاً على وشك الحدوث في أي لحظة. على الرغم من ذلك استمر رجال الشرطة العراقيون في عملهم بالقاعدة، وكان الأميركيون يعاملونهم بودّ على

اعتبار أن بضعة بنادق كَلاشنِكوف توجه نيرانها خارج المجمع أفضل من أخرى تستهدف المجمع.

أمضيت ليلتين مع الرجال في محطة الكهرباء. في الليلة الثانية قمت بجولة نحو البوابة وانضممت إلى مجموعة من الجنود يقفون حول جَمَرة إلى جانب الشرطة العراقيين. سمعنا صوت إطلاق نار من بنادق كَلاشنِكوف قادمة من أسفل الطريق. نظر الجنود من حولهم.

سألتهم، "هل ستذهبون لتتحققوا عن مصدر تلك النيران؟".

هزّ الرقيب رأسه قائلا: "هراء، كلا. لقد غابت الشمس - لن يرسلونا خارج القاعدة لنتحقق. ليس لدينا أحد هناك الآن. فقط العراقيون - إنهم إما يضربون رجال الشرطة العراقية أو يصفّي بعضهم بعضاً.

في الأيام التي تلت عُدت إلى مطار بغداد لكي أعود إلى البصرة بطائرة نقل عسكرية. في الطريق اجتازت القافلة مجموعة من الشرطة العراقية تقف عند حاجز تفتيش على الطريق. لاحظت أن العديد من الرجال كانوا قد أجروا تعديلات على بنادق الكَلاشنِكوف وذلك بإزالة الأخمص منها. هذا التغيير أعطى للبندقية شكلاً مميزاً وملفتاً للنظر أكثر - وكأنها مسدس من نوع خاص أكثر من كونها سلاحاً هجومياً. فهي تناسب مقاربة أفلام "الغرب الوحشي" التي دأب العراقيون على تحويل أسلحتهم لتشبهها، لكن التخلي عن جزء مهم في الكَلاشنِكوف في القتال عمل يائس وغير دقيق ويجعل السبطانة غير موجهة بشكل دقيق فلا تصيب الهدف بأي مستوى من مستويات الإطلاق الآلي. حتى الآن كان الحديث عن مسألة حب العراقيين للكَلاشنِكوف، فحتى الشرطة كانوا يتعاملون معها كرمز متوهج للرجولة. فإذا كان هذا سلوك رجال حفظ القانون والنظام، تساءلت، بينما كنت أنتظر طائرة النقل العسكرية لتقلني بعيداً، أي فرصة تمتلك هذه البلاد؟ هل يمكن أن تنجو من لعنة السلاح؟

سيرى مراقبون آخرون أشياء مشابهة. في نيسان من العام 2004 قابل جون بيرنز مراسل جريدة "نيويورك تايمز" مجموعة من رجال المليشيات في الفلوجة: "كان بعض الرجال في سن الخمسين والستين، لكن معظم الباقين كانوا من الشباب، حتى أن من بينهم من كان بعمر الثانية عشر والثالثة عشر. بيد أنهم لم يتلقوا تدريبات على استخدام السلاح؛ كانت مخازن الذخيرة لبنادق الكَلاشنِكوف معبأة بالرصاص والبندقية ليست مؤمنة ومع هذا كانوا يلوحون بها في الهواء بلا مبالاة".

في ربيع العام 2004 سافرت جواً إلى إيجيفسك وقابلت الجنرال كَلاشنِكوف. كان مأخوذاً بحقيقة أنني تعرضت لإطلاق النار من بندقية الـ AK47. ليس بسبب شجاعة في التصرف - ومن المحزن أن لدي القليل منها - بل بالنتيجة التي وصلت إليها. قال باستحسان "يبدو أنك جدّيٌ فعلاً بخصوص بندقيتي". نعم إنني جَدّي، بعدما رأيت أداء بنادق الكَلاشنِكوف والتأثير الذي أحدثته في الأزمة العراقية والذي لا يتناسب مع إمكانياتها. على كل حال، إنها ليست سوى بندقية متاحة لأي شخص في الشرق الأوسط، وكانت لا تزال تحظى بموقعها الجدي لدى المقاومة بوجه قوة آلة القتل الأميركية القاهرة التي تواجهها في العراق.

في العودة لأيامه الأولى، بينما وصلت بندقية الـ AK47 إلى الإنتاج الشامل في العام 1948، كان جسر برلين الجوي الذي رسخ الحرب الباردة بإطلاق الصلية الأولى، والتهديد الناشئ من النزاع مع الولايات المتحدة قد أعلنا عن امتداد مهنة الجنرال من هذه النقطة وحتى سقوط الشيوعية. وعلى الرغم من أنه أصبح يتعامل بود مع "ستونر" مخترع بندقية M16، بعد انهيار الاتحاد السوفييتي (فقد قام بزيارته عدة مرات أثناء سفره إلى الولايات المتحدة الأميركية) لكن بقيت الحقيقة تقول إن كَلاشنِكوف قد أمضى جل حياته التخصصية في تصميم أسلحة لقتل الأميركيين. كان من الواضح أن لديه

فضولاً صبيانياً حول رأي الأميركيين بأداء بنادق الكَلاشنِكوف في العراق.

سألني قائلاً: "أخبرني ماذا يقول الجنود الأميركيون في العراق عن بندقيتي؟"

"إنهم مندهشون من قدرتها على مقاومة الرمل والتراب. فلديهم مشاكل مع بنادق M16- فهي تخطِئ الهدف بين الحين والآخر بسبب الظروف الجوية. لكنهم استولوا على بنادق كَلاشنِكوف من المقاومة كانت غير منظفة بشكل جيد لأيام معدودة لكنها كانت لا تزال قادرةً على إطلاق النار بنجاح".

ابتسم الجنرال لسماعه ذلك فقال: "لقد أكملت الحياة دورتها، إذن. وقد سقطت بندقية M16 قبل بندقية الـ AK47 بزمن طويل".

وكما حدث في فيتنام، فقد أثبتت بندقية الكَلاشنِكوف أنها أفضل من بندقية M16. وكان الجنود الأمريكان يتذمرون مرةً أخرى ويشكون من أن أسلحتهم الآلية لا تعمل كما يجب. في العراق لم تكن الحرارة والرطوبة هما سبب تعطل السلاح بل كان الرمل والتراب الناعم، ولجعلها تعمل بشكل صحيح، أضيف وقت جديد للعناية بالسلاح يسمى "وقت تنضيف الأسلحة".

وكان الجنرال بالغ السعادة بسبب الإنجاز الذي حققه سلاحه. "لقد صنعته ليلائم كل الظروف المناخية" قال ذلك بصوت يملأه الفخر.

اكتشفت في طريق عودتي إلى بريطانيا أن التقارير التي تنشر عبر الصحف والمحطات التلفزيونية كانت تتحدث عن تزايد الهجمات على قوات الاحتلال في العراق. وبالرغم من أن "تقارير الحالات" التي كان يصدرها كبار المسؤولين في البنتاغون منذ آيار 2003 وما تلا ذلك التاريخ كانت إيجابية، إلا أن أمريكا كانت قد خلقت في العراق شروطاً شجعت على اندلاع التمرد الشامل عليها والذي بدأ في ربيع العام 2004. فقد رافق الإهمال في إعادة البنى التحتية للشعب العراقي ازدياد ملحوظ ومطّرد في برنامج الهجمات

بنادق الكَلاشنِكوف. لم تعد قوات GI الأميركية راغبة في مغادرة القواعد للقيام بدوريات، فقد ضاعفت المقاومة العراقية من هجماتها المنتظمة عبر تفجير العبوات في الشوارع عند مرور الناقلات الأميركية وكان يتبع ذلك إطلاق نار كثيف بشكل مباشر على الجنود الأميركيين الذين يتقدمون لإنقاذ رفاقهم في الناقلات التي تعرضت للضربة. كنت قد رأيت الإرهاصات الأولى لهذه المقاومة مع القوات الأميركية المجوقلة، لكنهم الآن قد عادوا إلى وطنهم ولكني أتساءل كيف يتحمل بقية العناصر في الجيش الأميركي قيامة بنادق الكَلاشنِكوف على نطاق واسع. بعد شهر من لقاء "جون بيرنز" برجال المليشيات الذين يرفعون بنادق الـ AK عالياً في الهواء، رجعت إلى بغداد.

في فترة النصف سنة التي كنت فيها بعيداً، انسحب الجيش الأميركي إلى قواعده المُحصّنة التي تنتظر تفكيكها وسحبها. بالنسبة للمشاة الأميركيين العاديين كان خوض قتال مباشر وجهاً لوجه مع العدو قد أصبح في حالات استثنائية، وبشكل متقطع فقط وفي مناسبات مُخيفة كالتي جرت في هجوم الفلوجة، 2004، عندما قاموا بعملياتهم متحصنين وراء الدبابات والطائرات القاصفة المقاتلة التي قامت بهجمات شرسة وواسعة النطاق على مراكز المقاتلين في المنطقة. فقد انعطفت الأمور نحو الأسوأ - باعتماد السُنّة على تكتيك قطع رؤوس الرهائن الغربيين بشكل مطّرد - لكني كنت مفتوناً بصوت الكَلاشنِكوف كأي مراسل آخر في منطقة حرب وأردت أن أرى بنفسي تأثير اندماج الرجال بالعبوات الناسفة ببنادق الكَلاشنِكوف.

في رحلتي الثانية كنت قد اتصلت بالكتيبة المدرعة الأولى. بعد رحلة طيران أخرى مثيرة للأعصاب وثلاثة أيام من الانتظار في الحر القائض في قاعدة مطار بغداد، تم إرسالي إلى "معسكر نسر الحرب" على تخوم مدينة الصدر. وهي حي فقير ذو كثافة سكانية تتجاوز مليوني نسمة غالبيتهم من الشيعة في وسط الشمال الشرقي من بغداد، في العام 2004 أصبحت قاعدة لمقاتلي

جيش المهدي الذي أسسه رجل الدين مقتدى الصدر. على مقربة من مدينة الصدر كانت هناك قاعدة كان يستخدمها الجيش العراقي السابق أيام حكم صدام، وقد أصبحت بيد الأميركيين الآن فاستخدموها ليراقبوا عن كثب هذا الموقع التقليدي للثوار. كانت قاعدة "نسر الحرب" مُحاطة بجدار من القرميد والإسمنت على ارتفاع مترين، وأسلاك شائكة وأكياس من الرمال. وهي عبارة عن بناية مُسطَّحة السقف بأربعة طوابق يستخدمها الأميركيون كمركز لقيادة العمليات يهيمن على وسط المجمع. على طول الجدار الجنوبي الذي يواجه مدينة الصدر مباشرةً كانت هناك ثكنات عسكرية بثلاثة طوابق، هي الأقرب لفرق الهاونات التابعة للمقاومة، إلا أنها كانت تميل للنجاة من القذائف القادمة التي تطير فوق الجدار وتسقط في عمق المعسكر، لكنها كانت عرضة لنيران الكَلاشنِكوف إذا كان لدى أحد مقاتلي المقاومة الشجاعة الكافية أو الطيش لكي يقترب لهذه المسافة. كان حول مركز القيادة عربات "برادلي" المقاتلة - وهي بين السيّارة المُصفّحة والدبابة الخفيفة - تصطف برتلين في كل رتل ست مركبات، وفي الجانب الغربي من المجمع ثمة زوج من طائرات الهليكوبتر المقاتلة تستريح في مهبط الإقلاع.

كانت مدينة الصدر تحتاج لبضعة مئات من رجال قاعدة "نسر الحرب" يفترض أنهم قادرون على ضبطها، لكنهم بطريقة أو بأخرى كانوا هم أنفسهم تحت الحصار. وفي معظم الليالي كانوا يتعرضون لقذائف الهاون وإطلاق النار من قبل رجال الصدر، وفي أحد الأيام دخلت دوريات من دبابات الهامفي عميقاً في الشوارع التي تطفح فيها مياه المجاري، حيث تجد على كل عمود كهرباء وكل جدار بوستر لقائد جيش المهدي. تجمع المدنيون حول تلك الدوريات وكانوا خليطاً غريباً من العراقيين المتجهمين والمتهكمين وذلك ما جعل الجنود الأميركيين يتقدمون شيئاً فشيئاً. كان من الصعب للغاية تحديد مزاج تلك الحشود، لذلك كانت سياسة القوات هي أن تفترض أن

هناك دائماً متدربين على بنادق الـ AK يجيدون إطلاق النار على المنطقة القابلة للعطب بين أعلى السترة الواقية وربطة الذقن حيث يمكن للرصاصة أن تحدث ضرراً مروِّعاً.

كنت جالساً في دبابة هامفي في عمق مدينة الصدر وكان السقف العلوي للدبابة مفتوحاً، شعرت أني قابلٌ للعطب أكثر من غيري. كان الصدر مدعوماً من مؤيديه لا يسمح بتفجير العبوات في الشوارع، لكن تهديد نيران بنادق الـ AK كان دائماً حاضراً. في الأزقة الضيقة التي تكون فيها الحركة مُقيّدة، حيث الوجوه بادية للعيان والأيدي قريبة من دبابات الهامفي على الرغم من صراخ الجنود بالناس لكي يبقوا بعيداً، إلا أن بنادق الكَلاشنِكوف التي كانت لا تزال غير منظورة شكلت عائقاً حقيقياً أيضاً. لم أتمكن من رؤيتها، لكني كنت أعرف أنها هناك.

في ليلتي الأولى في قاعدة "نسر الحرب" صعدت على سطح البناية المركزية للطوابق الأربعة الحصينة وانضممت إلى اثنين من القناصة مُزوّدين بالأسلحة ونواظير للرؤية الليلية. استمعنا إلى أصوات بعيدة هادرة لبنادق الكَلاشنِكوف المميزة وهي ترسم خطوطاً حمراء في السماء عندما أطلق رجال الصدر نيرانهم في الهواء. لقد كانت جميلة وكأنها تنويم مغناطيسي. كان نصف التنويم المغناطيسي بسبب الصوت والضوء الذي نشره رجال جيش المهدي في السماء السوداء التي تعلو الأحياء الفقيرة، شردت معها لفترة من الزمن كي أربطها بذهني مع رجال حقيقين وأسلحة.

تساءلت: "لماذا يفعلون ذلك؟".

"جزئياً ليلفتوا انتباهنا. اجلس هنا وابحث عنها، بعد ذلك ستتفاجأ عندما تسقط الهاونات. كما أنهم يوصولون لنا ما يودون قوله وهو، انظركم لدينا من بنادق الكَلاشنِكوف، وكم لدينا من الذخائر!"

"إنهم يريدون أن تنطلق الهليكوبترات لكي يطلقوا عليها النار من قاذفات الآر بي جي بالإضافة إلى استهدافها من قبل قناصين آخرين."لكننا لم نفقد طائرة هليكوبتر هناك حتى الآن، وعندما نطلق النار مباشرة على السطوح فسيوقفون إطلاق النار على الفور".

بدا وكأن النهار من حصة الأميركيين ودوريات دبابات الهامفي المتوترة الأعصاب، والليل من نصيب جيش المهدي وبنادق AK. لكني استنتجت بفترة قصيرة أن ساعات العتمة هي الساعات التي يتعرض فيها الأميركيون للقتل أكثر من غيرها، على الرغم من أن العراقيين كانوا لا يزالون محرومين بشكل كبير من إمكانيات الرؤية الليلية. نظرت من خلال ناظور القناص الأول؛ كان يركز على أعلى جدار على بعد ما يقرب من 400 متر.

قال القناص "فليجرؤ أحدُهم أن يُطِلَّ برأسه من هناك". "سيفقده حتماً".

لم يُطِلّ أحدٌ برأسه من فوق الجدار تلك الليلة، لكن بعد أربعة وعشرين ساعة وجدت نفسي مرة أخرى وأنا أتفرج على الرصاص الخطّاط من بنادق الـ AK وهو يلتمع في السماء. في هذه المناسبة كنت أسير من الثكنة نحو مركز القيادة، حيث تمت الدعوة لعقد اجتماع لغرفة العمليات في الساعة الحادية عشرة. قال الجندي الذي كان يرافقني عبر المجمع "ثمة أمر ما سيحصل الليلة".

وهذا ماحدث. لم أسمع شيئاً على الإطلاق، لكن بعد ثوانٍ من حديثه صرخ الجندي "انبطح على الأرض!"، ودفعني نحو جدار منخفض. سقطت أول قذيفة هاون في وسط المجمع، ضربت الأرض وأرسلت صوتاً مدوياً وتشظت إلى قطع صغيرة حمراء من معدن ملتهب منطلقة عبر الأرض على ارتفاع كاحل قدم. كانت على بعد ثلاثين متراً لكني لم اتحرك من مكاني وكذلك الجندي، الذي كان يعرف أن الهجمات بقذائف الهاون لا تأتي فرادى بل برشقات

بين اثنتين وثلاث قذائف، فالعراقيون يعملون على شكل طاقم للهاون الأول وطاقم للهاون الثاني، وستكون لدينا فرصة لنعود أدراجنا إلى الداخل في الوقت الفاصل بين سقوط القذيفة الأولى والثانية وبين الثانية والتي تليها. عندما يطلق طاقم الهاون الأول قذيفته ينتظر حتى يطلق الثاني وعندها يُغيّر موقعه فكانت أشبه بلعبة القط والفأر بين طواقم الهاونات وطاقم طائرات الهليكوبتر. ولكن قصف الهاونات لم يكن يتجاوز ثلاثة قذائف وإلا سيتعرض مطلقها للخطر المحدق به من السماء فيكون في مرمى نيران الهليكوبترات. سقطت قذيفة هاون أخرى على المجمع، وكانت هذه المرة بعيدة عن الثكنة.

كانت القنبلة الثالثة قد سقطت حيث قفزنا أنا والجندي راكضين نحو مركز العمليات. في الداخل كان المكان يضج بالنشاط وبصراخ الرجال. سينتهي القصف بعد بضع دقائق، لكن الأوامر كانت قد صدرت إلى الهليكوبتر للتحليق فوق مدينة الصدر. طلب الكابتن من جميع الضباط المجتمعين أن يتحلوا بالهدوء بسرعة. أصبح واضحاً أنّ علينا جميعاً النزول إلى الأرض وبقوّة. وبناءً على طلبهم قمت بتغيير أسماء الشخصيات المحورية، لكن الأحداث التي نشرتها عن تلك الليلة كانت قد جرت فعلاً لأناس مشابهين في طول البلاد وعرضها، أما بالنسبة لحَمَلَةِ بنادق الكَلاشنِكوف فقد خرجنا لنقاتلهم في كل مكان.

لم يكن الكابتن الذي أدار الاجتماع سعيداً. لم يُقتل أحد، لكن القاعدة تعرضت لهجوم وبدا واضحاً أن الكابتن أخذ الأمر على محمل شخصي "السكان المحليون يعتقدون أنه لا بأس من إطلاق الهاونات علينا. حسناً، دعوهم يعتقدون ذلك، لكني سأذهب إلى هناك الليلة وسيرون ماذا نستطيع أن نفعل". أشار الكابتن نحو خارطة لمدينة الصدر مثبتة بدبابيس على الجدار في غرفة المؤتمرات. "سنذهب برتلين من عربات "برادلي" في كل رتل أربع عربات

داخل مدينة الصدر. الرتل الأول يدخل من جهة الشرق حتى هذه النقطة هنا في الوسط". لقد اختار منطقة مفتوحة هي نقطة تقاطع بين الطرق. من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب في مركز مدينة الصدر. "أريد من الرتل أن يقوم بافتعال ضجة كبيرة ما إن يصل إلى هناك". أريد أن يعرف كل سكان مدينة الصدر أنك هناك أومأ برأسه إلى الملازم، الذي سيكون في العربة الأولى، عندما قال ذلك.

" سيِّدي هل تريد منّا أن نجلس هناك وتركهم يطلقون النار علينا؟"

"تماماً، أيها الملازم، وعندما يقومون بذلك، سيكون هناك خلفهم مصفحة برادلي تتولّى الإجهاز عليهم".

لم تكن هذه المحاولة خطيرة كما بدت لي في بادئ الأمر. فعربة برادلي محميّة بدرع ردّ الفعل الذي ينفجر لدى اصطدامه بصاروخ قادم أو بقذيفة ويدفع قوة الصدمة بعيداً عن العربة. وليس هناك أي إمكانية لنيران الكَلاشنِكوف كي تسبب الضرر لها، فما بالك باختراقها فهي مُحكمة وجاهزة للقتال. كان الأمل الوحيد للمهاجم بالنجاح هو أن تكون بوابات العربة مفتوحة ويستطيع أن يقترب منها ويلقي بداخلها قذيفة، في هذه الحالة تتحول العربة إلى غرفة للموت ليس منها مهرب. لكن سطوة الكَلاشنِكوف على الرجال العراقيين هي التي أوصلت المقاومة إلى أن تقوم بإطلاق النار على أهداف بعيدة الاحتمال. وسواء كانوا يعتقدون أنهم قادرون فعلاً على إيقاف سيارة مصفحة أم لا، إلا أن الأميركيين كانوا يدركون أن مسلحي جيش المهدي يرغبون بالمواجهة وإطلاق النار على أي شيء تقريباً في العتمة حتى لو كانت فرص النجاح صفر.

التفت الكابتن نحو هانسون، وهو الرقيب الذي يقود الرتل الثاني. "عليك أن تنزل من جهة الشمال وتتوقف هنا. أطفئ المحركات وانتظر فحسب. أظن أن الضجة المنبعثة من دباباتنا ستغطي على ضجيجك. سنكون الحدث

الأهم الذي يشغل البلدة. لا أظن أنهم سيبحثون عن عربات برادلي في الخلف، وبكل الأحوال ستكون هناك ظلمة شديدة – ستنطفئ الكهرباء مرة أخرى الليلة. إذا لم يسمعوك فلن يأتوا للبحث عنك، وإذا لم يبحثوا عنك فلن يروك. سننتظر حتى يخرجوا ليطلقوا النار علينا وعندئذ، عندما تحصل على هدف واضح، عليك بهم بالرشاش الثقيل".

كانت عربات برادلي مزودة بنوعين من الرشاشات المزودة بأشرطة الرصاص، الرشاش الأول من نوع "بوشماستر" 25 ملم M242 (وكذلك زودت العربات برشاش M240) وكلا الرشاشين يطلقان 200 طلقة 25 ملم في الدقيقة وبإمكانها تدمير أي شيء غير مصنوع من المعادن يقف في طريقها.

أكمل الكابتن كلامه قائلاً: "إذا تجولوا في الأزقة ببنادق الـ AK فستقتلهم في الأزقة. لكن وحسب القواعد، حاول أن تحدد هوية الشخص الذي تضعه في مرمى سلاحك قبل أن تطلق النار".

صار لدي انطباع غريزي بأن إصدار هذا التحذير العملاني كان بسبب وجودي هناك، أكثر من كونه إيماناً راسخاً بتجنيب المدنيين الكوارث. "القاعدة الوحيدة" فقط في مدينة الصدر كانت: اقتلهم قبل أن يقتلوك.

لكن هل سيحاول أحد ما قتلي؟ حتى الآن لا أعرف فيما إذا كنت سأذهب معهم في هذه الرحلة أم لا. لم يكن الرجال في قاعدة "نسر الحرب" مُلزمِين باصطحابي أثناء عمليات هجومية، واعتقدت أنهم من الممكن أن يحدّوا من مشاركتي في الدوريات اليومية، فضلاً عن أن يتحملوا شخصاً عديم الخبرة، ومن المحتمل أن يكون غير متعاطف، في مهمة ابحث ودمر. لكن البقاء محاصراً في العراء أثناء هجمات الهاونات كان قد وهبني كمّاً مؤكداً من مشاعر الزمالة مع الرجال وعندما غادرنا غرفة القيادة اقترب مني هانسون.

"مرحباً، هل أنت على ما يرام الآن؟"

"نعم، أنا بخير".

"حسناً، هل ستأتي معنا؟"

لم أكن بحاجة إلى أن يطلب مني ذلك مرتين.

عندما ركبنا في عربة البرادلي أنا وهانسون معاً أراني الطاقم آثار معركة على الدرع مشيراً إلى الفرق بين ضربات رصاص الكَلاشنِكوف وضربات الأر بي جي. كان تأثير كلا النوعين تافهاً، مع أن المعدن ظاهر من بين الطلاء الرملي اللون. غادرنا القاعدة في الساعة 10.30 قبل أن يكون فريق هاونات جيش المهدي في مواقعهم في شمال مدينة الصدر؛ وعلى الأقل لم يكن هناك من يفترض أننا كنا تحت المراقبة، لأن هناك طائرة هليكوبتر تحركت في الوقت نفسه لتتأكد من عدم وجود أي مسلح على السطوح.

كنت وحيداً في ركن منعزل داخل عربة برادلي، حيث استطعت أن أتفرج على شاشة تظهر الصور نفسها وكأن مسلحاً يراها وهو فوق برج دبابة أوسائق في مقدمة سيارة. خلال عشرة دقائق كانت مؤخرة العربة قد امتلأت بالرمل وبرائحة دخان سجائر رجال آخرين، وكانت الحرارة خانقة. عندما نزلنا من الطريق السريع الذي يمتد إلى جانب مدينة الصدر حاول السائق أن يتجنب الأخاديد والحفر في الطريق، لكن من المستحيل تقريباً أن تتجنب ذلك في الظلام فكنت معرّضاً للهزات العنيفة والارتجاجات. بعد عشر دقائق انقسم الرتل كما هو مرسوم في الخطة: أربع دبابات هامفي ذهبت باتجاه الشرق بمسار دائري طويل حول ضواحي المدينة، بينما دخل الرتل الذي أنا فيه مدينة الصدر واتجه جنوباً. كنا سنلتقي كما هو مقرّر بعد ساعة في وسط المدينة.

من خلال أجهزة الاتصال كان الرتلان يدققان موقع كل منهما بين الفينة والأخرى، بينما كان السائق والرامي يتجاذبان أطراف الحديث عبر نظام

الاتصالات الداخلي لعربة البرادلي. بقي هانسون هادئاً، يتحدث فقط عندما يوجه إليه سؤال عن تقدمه من الرتل الآخر. رصد الرامي الذي كان ينقل رشاشه الـ "بوشماستر" من اليمين إلى اليسار، مسلحين ينتقلون بسرعة بين البنايات. الرامي الآخر في الرتل الثاني رصدهم هو الآخر، وبدأت النداءات تتعالى عبر جهاز الاتصالات طالبة الإذن بفتح النار. جاء صوت الكابتن عبر جهاز الاتصال، يأمر رجال الرتل الثاني بالتريث وعدم إطلاق النار.

"انتظروا حتى نصل إلى موقعنا. لا أريدهم أن يختبئوا الآن. لا تفتحوا النار".

فيما عدا التعثُّر في الحفر والانحراف عبر الحاجز الذي يتوسط الطريق بين الاتجاهين كان السائق دقيقاً جداً ويعرف تماماً ما يريد أن يفعله مع الفتاة التي تنتظر عودته إلى ولاية "مينوسوتا". وكم سيحتسي من البيرة قبل أن يفعل ذلك بها.

إنه لأمر غريب أن تذهب للحرب، وتساءلت ترى ماذا سيكون رأي الجنرال كَلاشنِكوف في الذريعة والجهود التي تبذل لملاحقة الرجال الذين يحملون بندقيته وقتلهم. كان كَلاشنِكوف صياداً طبيعياً، رجلاً أنفق وقتاً طويلاً وهو يطارد الأيائل حتى تتمكن "فورسا" من صنع الحساء له. لكن هل تتخيل أن هناك رجالاً سيذهبون لصيد اختراعه أم أنها تكتيكات القوة العظمى - أو بالأصح القوة العظمى الوحيدة، التي بقيت بعد زوال محبوبه الاتحاد السوفييتي - والتي ركزت جل اهتمامها من أجل تحطيم رجال يحملون سلاحه؟

لم يكن الرامي مهتماً بالجنس، وإن كان مهتماً فهو لا يرغب في الحديث عنه. فهو الآن يطلق النار في معركة ويستعرض بطولاته، من أجلي ربما، فكم من مقاتلي المقاومة قتلوا على يديه. "قد يكونون أربعين الآن. حالما أرى ذلك الشكل لبندقية الـ AK أعلم أني نلت منهم - إنه الضوء الأخضر لي

لكي أطلق النار. أستطيع أن أتعرف على صورتها المظللة في أي مكان. هل تعرف ذاك التقوس - هذا هو كل ما أحتاجه، بعد ذلك أنال منهم. عندما تصيبهم هذه الطلقات لن يعود هناك المزيد من المقاومة، لا مزيد من بنادق الكَلاشنِكوف، لا شيء. هذا الرشاش يمكنه أن يقرع بيوتهم".

بينما كان الرامي يضحك على كلماته هو، انضم السائق إليه. أدركت أن الطاقم يجب أن يكون قد أدى دوره في أمثال هذا الاحتفال في كل مرة كان يخرج فيها للحرب بواسطة ماكينة القتل المرعبة التي لديه. فليس هناك وسيلة معقولة لنشر عربات برادلي ضد كائنات إنسانية، لذلك ربما احتاجوا لأن يجعلوا من أنفسهم مجانين مؤقتاً قبل أن يسيطروا على رجال مسلحين بالكَلاشنِكوف في مدينة الصدر المبهمة. أو ربما، كانوا خائفين مثلي.

سأله السائق: "ماذا عن الرجل الذي أخطأت في إصابته الأسبوع الماضي؟"

"أنا لم أخطئ ابداً. أشر لي إلى أي شيء وسأفجره لك في الحال".

"أنت تعرف أنك أخطأت الرجل حامل بندقية الـ AK ورجلاً آخر كان يحمل قاذفة آر بي جي إلى جانبه تماماً".

قال الرامي وهو لا يتجاوز التاسعة عشر من العمر "أنا لم أخطئهم، لقد أخترت أن أبقيهم أحياء".

كان الرامي والسائق يتجادلان مازحين، وكانت عربة البرادلي تنحرف إلى اليسار نحو حفرة. تقيأت بهدوء وبسرعة في الخلف، ثم غسلت قرفي في مؤخرة العربة بعلبتين من كوكا كولا جلبتهما معي لتبقياني يقظاً.

سألني السائق وهو لا يكاد يتمالك نفسه من الضحك "مرحبا مايكل، هل أنت بخير؟".

استدارت عربة البرادلي نحو اليمين، وسارت لمسافة 200 مترٍ في طريق ترابي ثم توقّفت. انتظرنا من دون أن ينبس أحد ببنت شفة لمدة خمس دقائق حتى جاء صوت من جهاز الاتصال ليخبرنا أن الرتل الثاني أصبح في موقعه تقريباً على بعد 200 متر إلى الجنوب من موقعنا، على الرغم من ذلك لم يكن بوسعنا أن نراهم من موقعنا. ثبتّ عيني على الشاشة بينما أخذ الرامي وضعية الرمي مستهدفاً المشهد الذي أمامه مباشرة نحو الزقاق الذي يقع في الجهة اليمنى الموازية لموقع الرتل الآخر. احتجتُ إلى دقيقة واحدة تقريباً كي يتأقلم نظري مع العالم الغريب المكوّن من اللونين الأخضر والأبيض من خلال منظار الرؤية الليلية. من خارج عربة البرادلي استطعت أن أسمع هدير محركات الرتل الآخر، الذي يحاول استدراج المسلحين إلى خارج البيوت. بقي الطاقم في داخل العربة ينتظر بثبات.

لم ينتظروا طويلاً. فبعد سبع دقائق مرت وأنا أنظر إلى ساعتي تحدث الرامي.

"انظروا - هناك للجهة اليسرى على بعد نصف الطريق عبر الزقاق الأيمن".

كان الزقاق يتجه صعوداً بعيداً عن موقعنا، وكانت هناك سيارات متوقفة على جانبيه. بحثت وأنا استمع لحديث الطاقم الذي يزداد حماساً، لكنني لم أجد أي شيء مما كانوا يتحدثون عنه.

استطاع هانسون أن يراه، فقال: "إنّه هناك على بعد خمسين متراً تقريباً. خلف السيارة المتوقفة على جهة اليمين عند الزاوية الثانية، هل رأيتموه؟"

أجاب الرامي، "نعم، نعم، شيء ما هناك". فجأة استطعت أن أراه. على بعد خمسين متراً إلى الأمام خرج للتو من المدخل. إنهم يلمعون كأشباح بلون أبيض على خلفية بلون أخضر باهت.

لقد أفادني السائق من حيث لا يدري بمعلومة عندما همس عبر جهاز

الاتصال الداخلي قائلاً: "العراقيون لا يعرفون ماذا تعني الرؤية الليلية، فهم لا يدركون أنهم مرئيون بالنسبة لنا". أراد السائق أن يكمل حديثه، لكن صوت إطلاق نار بندقية الـ AK أوقفه قبل أن يكمل. جاء صوت متشنج وعالي النبرة من جهاز الاتصال.

"ما بالكم هناك؟ نحن نتعرّض لإطلاق نارٍ هنا".

استطعت أن أسمع عربات البرادلي الأخرى، ترد على إطلاق النار برشقات قصيرة.

"يوجد أحدٌ ما هنا سيدي، لكنّهم ليسوا الأشخاص الذين يطلقون النار عليكم".

عدت إلى النظر في الشاشة. برز أولاً رأس ثمَّ كتفان، وإلى جانبهما سبطانة بندقية الكَلاشنِكوف مجهّزٌ بمنظار كبير.

كان صوت السائق يختلط بمزيج من المتعة والغل. "ها قد حصلنا على واحد... تعال أيها الوغد، هيا اخرج. سندفئك هيا اخرج".

تراجع الرجل، ثم عاد مرة أخرى بصحبة رجل آخر يحملُ هو أيضاً بندقية كَلاشنِكوف. نظرا إلى أول الزقاق ثم إلى آخره. ربما كان الرجل الثاني قيادياً، كان يبدو واثقاً من نفسه ثم مشى من بين السيارات المتوقفة وخرج إلى وسط الزقاق. نظر مباشرةً نحو عربات البرادلي. من المحتمل أنه لم يتمكن من رؤيتها في العتمة لكنه ظل ينظر بشكل مستقيم نحو المكان التي توقفنا فيه وكأنه يدرك أن هناك شيئاً ما تعسّرت عليه رؤيته. على الشاشة تم ضبط شكل غير قابل للخطأ لرجل يحمل بندقية كَلاشنِكوف.

"جيد، لقد رأيته".

صدر أمر هانسون "لا تطلق النار!، انتظر حتى أقول لك "أطلق النار". هل فهمت؟"

خمد إطلاق النار الآن فعاد الصوت من جهاز الاتصال. "لقد أوقفوا إطلاق النار، لكننا لا نعلم إذا كنا قد أصبنا شيئاً. هل هناك أحد في مرماكم؟".

رد هانسون. "نعم هناك اثنان. نستطيع فتح النار الآن، لكننا نعتقد أنه من الممكن وجود رجل آخر، هناك أشخاص في الخارج وربما آخرون في الداخل. هل تستطيعون أن تثيروا بعض الضجة؟ أريد أن يخرج الرجل الثالث من البيت".

كان هناك أمر مكتوم جاء عبر جهاز الاتصال غطى عليه صوت رشاش ثقيل. استطعت أن أسمعه من الجهاز ومن خارج العربة في الوقت نفسه. استدار الرجل بعيداً عن موقعنا ونظر عبر الزقاق نحو الجهة التي تجيء منها الأصوات، ظهر في العتمة من دون أن يدرك أنه أصبح هو الطريدة وليس الصياد.

"نعم، سمعته. سأنال منه الآن، أنا أنتظر فقط خروج الرجل الثاني".

نظر الرجل الأول ليستكشف الزقاق من أوله إلى آخره ثم عاد إلى المدخل ليقول شيئاً، ثم جاء الرجال الثلاثة وهم يحملون بنادق الكلاشنِكوف، وحدقوا باتجاه موقع عربات البرادلي من دون أن يتمكَّنوا من كشفها. ثم استدار الرجال جميعاً نحو الضجة التي افتعلها الرتل الآخر. في النهاية التحق بهم رأس رابع، بدا كأنه لا يتفق مع الرجل الأول الذي لوّح له ببندقيته أن يعود إلى الداخل.

كان الرامي يتحدث مع نفسه بصوت عال قائلاً. "نعم، تعالوا، تقدموا هيّا تقدموا".

ارتفع صوت هانسون بإصرار في جهاز الاتصال الداخلي وهو يردد. "هل أصبحوا في مرمانا؟ هل أصبحوا في متناولنا؟".

لم يكن الرامي مثل هانسون فقد كان هادئاً عندما اقترب من اللحظة التي سيطلق فيها النار. "سيدي، لدي ثلاثة أهداف لكني لا أستطيع أن أميّز

الرابع. لا أستطيع أن أجزم فيما إذا كان مسلحاً أم لا".

"كان يجب عليه ألّا يتحدث مع رجال مسلحين ببنادق كَلاشنِكوف. فهل حصلت على هدفك الآن؟".

"فقط أول ثلاثة، سيدي. لا أستطيع أن أنال من الرابع".

"النار، أطلق النار، مرة تلو الآخرى!".

اهتزت عربة البرادلي عندما بدأ الرامي بإطلاق النار، وأصبحت الفسحة التي انحشرت بها وكنت أحاول أن أريح نفسي فيها مليئة بالغبار ورائحة البارود النتنة.

كان السائق يصرخ. "هيا، اقتل هؤلاء الأوغاد!"

أما الرامي فأخذ يضحك بصوت مجلجل وهو يرسل قذائفه المتفجرة التي تنهمر على الزقاق المواجه له. دخل الرجل الرابع أحد البيوت أما الرجال الثلاثة فكانوا محاصرين بزخات المعدن الملتهب التي تمطر عليهم بسرعة هائلة. حاولت جاهداً أن أفهم ما يجري في المشاهد التي أراها. كان نظام الرؤية في الشاشة يُحوِّل أي مادة شاحبة إلى اللون الأبيض الساطع، وبين الصور التي تخفق بين الأخضر والأبيض على الشاشة بدا الرجل الأول وكأنه يرتدي قميصاً أبيض اللون. بعد ذلك رأيت الجرح الذي أودى بحياة الرجل، ثم اختفت فجأة بقية الصورة. دخلت الرصاصة جسمه من فوق منطقة الصدر على الجانب الأيسر. وفي الحال أظهرت الشاشة ثقباً أسودَ في القميص الأبيض، لكن بدا أن الرجل أدرك حقيقة ما هو عليه بعد ثانية واحدة أو اثنتين. كان لا يزال واقفاً، مع أن الجرح الذي سببته الرصاصة كان قد فجر معظم رئتيه، وقلبه، وعموده الفقري بخروجها من الجانب الآخر من جسده. كان من الواضح أنه قُتِل في الحال، لكن المحير هو بقاؤه منتصباً لثلاث أو أربع ثوانٍ بعد تلقيه مثل هذه الصدمة الهائلة. كان الرجال الآخرون مُلطَّخين

بدمائه وغير مُدركين وهم في العتمة من أين تأتي تلك النيران.

وما أن استداروا ليهربوا داخل الزقاق كان الرجل الثاني قد تلقى رصاصة في قدمه. استمر الرجل الثالث بالركض نحو عربات البرادلي وهو يطلق النار من بندقية الـ AK يسندها على خصره بينما كان الرشاش ذو الشريط ينثر قذائفه في الشارع ومن حوله حتى أصابته رصاصة تماماً في منطقة البطن طرحته أرضاً.

كان الرامي يصرخ، "لقد نلت منه! نلت منه! لقد أصبته".

تحدث هانسون من خلال جهاز الاتصال مع الكابتن: "سقط ثلاثة منهم. نلنا من ثلاثة منهم. لدينا ثلاثة قتلى هنا".

عدنا إلى القاعدة في الساعة الثانية. ضرب براحتيه على جوانب عربات برادلي ودبابات هامفي ثمّ ربت على ظهور الرجال النازلين منها. لقد كانت مهمة جيدة. كان هناك قتيلان أحصاهما الرتل الأول عدا المُسلَّحين الثلاثة الذين قتلتهم برادلي هانسون، لكن من يستطيع أن يخبرنا عن العديد من العزّل الذين قُتِلوا أو جُرِحوا بمدافع برادلي الرشاشة التي كانت تصب حممها على الجدران المهلهلة لأزقة مدينة الصدر وشوارعها. لذلك، فالتكلفة الباهضة التي يتحملها دافعو الضرائب الأميركيين كان نتيجتها سقوط حفنة من خمسة مقاتلين في مدينة الصدر. لكن مع عودة الرتل سالماً إلى قاعدة "نسر الحرب"، هناك أيدٍ جديدة ستخرج لكي تلتقط الأسلحة الساقطة على الأرض.

خلال تلك الليلة الطويلة التي عاشتها مدينة الصدر، كنت أستمع، وأنا بحالة ضيق شديد، لأصوات إطلاق النار من بنادق كَلاشنِكوف وهي تضرب الأبواب الفولاذية، إلا أنني لم أشعر بالخوف لأني لم أكن بوضع خطر على نحو حقيقي. عربة برادلي التي كانت تقلّنا حصينة. الحمقى فقط هم من يهاجمونها برصاص بنادق AK47، وكما رأيت بأم عيني، كان مقاتلو جيش المهدي

يواجهونها تقريباً بغطرسة وعجرفة تتجاوز الحدود كلّها. في طول العراق وعرضه، كانت المقاومة العراقية على مختلف أشكالها، والمليشيات وحتى قوات الشرطة لا تطلق النار من بنادق الكَلاشنِكوف في الهواء فحسب بل كانت بارعة في هذا الأمر، وكأنها ماركة مسجلة وأيقونة طبيعية للسلاح الآلي وقد دخلت إلى وجدان الرجال أنفسهم. كان الأميركيون قد قتلوا خمسة من الرجال، تماماً كما قتلوا العديد من المقاتلين في ليالٍ أخرى قد يصل عددهم إلى العشرين، ولكن كما قال لي الرامي الشاب في طريق عودتنا إلى قاعدة "نسر الحرب" بينما كان يسحب نفسه بحذر من بوابة العربة، "ليس مهماً كم قتلت، فهم يعودون ليلةً بعد أخرى، ويطلقون نيران بنادقهم علينا".

أصبحت أنظر إلى بندقية الـ AK أكثر من كونها سلاحاً. صارت الكَلاشنِكوف في العراق، كما في فيتنام، رمزاً للمقاومة ضد الولايات المتحدة، على الرغم من أن رمزيتها في العراق بدا وكأنها تخص شأنها الشاغ وليس قدراتها الميكانيكية. لم تكن قوات الفيت كونغ فطنة لرفع بنادق AK47 كشعار في قتالها، لكن مقاتلي المقاومة العراقية فعلوا ذلك بانتظام. وسيصبح الاحتلال الأميركي واحداً من أكثر الحملات التسويقية تأثيراً لصالح الكَلاشنِكوف. وإذا مابقيت القوات الأميركية، خمس سنوات أو عشرة، فسيعزز كل يوم يمر صورة السلاح، وفي كل مهمة لعربات برادلي في قلب مدينة الصدر، سترسخ سلطته وسيتموضع تهديده لأولئك الذين يسيطرون بالقوة على العالم. في النهاية سيصبح الكَلاشنِكوف في العراق، سلاح الناس، وسيجر قائمة طويلة من الأضرار على البلاد وينزل المصائب على سكانه.

٨ - زنوج بوسطن

في صيف عام 2004، أرسل فلاديمير بوتين إلى جورج بوش الابن زجاجة من الفودكا الروسية. كانت الزجاجة من الكرستال وشكلها يشبه بندقية الكَلاشنِكوف الهجومية هديةً غير عادية لرئيس لا يشرب المُسكِرات وامتنع عن تأدية الخدمة العسكرية في فيتنام وبالتأكيد لم يسمع أبداً إطلاق نار غاضب من بندقية AK. ربما تكون الهدية اعترافاً بأن جنود الولايات المتحدة، مثل نظرائهم في الجيش الروسي، كانوا يتعرضون لإطلاق النار من بنادق الكَلاشنِكوف كل يوم. بوضعه قنينة فودكا بين يدي رئيس الولايات المتحدة، كان بوتين قد أدرك أمرين: قوة بندقية الكَلاشنِكوف ودورها ومطالب روسيا في جني الأرباح من منتوجها الناجح في طول العالم وعرضه. كان بوتين يذكّر بوش من أين أتى الكَلاشنِكوف، ويعترف له أيضاً أين ذهب الكَلاشنِكوف. لم يعد الموطن الأم للكَلاشنِكوف هو المهم؛ بل أمريكا حيث أصبحت الـ AK مدار صفقات تجارية.

قامت الحكومة الأميركية بشراء أربعين ألف بندقية الـ AK جديدة لتسليح قوات الشرطة العراقية الجديدة، المنوي نشرها في بضعة مناطق في المدن. كان المخططون الأميركيون قد شعروا بأنها يمكن أن تكون تحت السيطرة العراقية. كان انتشار المليشيات يفترض أن يترك القوات الأميركية حرة في التركيز على العديد من المناطق الأخرى، مثل الفلوجة ومعظم مناطق بغداد، حيث تنتشر ثورة بنادق الكَلاشنِكوف والعبوات الناسفة على جوانب الطرق لمواجهة الاحتلال الأميركي. على الرغم من أن وجود قوة الشرطة العراقية

كان طموحاً أكثر من كونه حقيقة على الأرض فقد كانت الولايات المتحدة مستقتلة لتظهر أنها عائدة لأرض الوطن، فكان ذلك هروباً إلى الأمام من احتلال أصبح كارثياً بكل معنى الكلمة. كان المراد من بنادق الـ AK أن تقدم البرهان على رؤوس الأشهاد أنها هي من سيفرض انسحاب الاحتلال. مرة أخرى لعب الكَلاشنِكوف دوره كسلاح مؤثر وكفء.

لكن الحكومة الأميركية لم تأمر أن يكون سلاحها من "إيزهامش" في إيجيفسك؛ فقد ذهبت بدلاً عن ذلك إلى "أرسنال"، معمل صناعة الأسلحة البلغارية، وطلبت بنادق AK74، وهي نسخة مباشرة عن بندقية AKM التي حدَّثها السوفييت عام 1974. كان الساندينيون (النقابيون. م) قد استعملوا هذه البندقية لمحاربة عصابات الكونترا، وهي الجيش اليميني الموكّل من الولايات المتحدة للقتال في الحرب الأهلية النيكاراغوية في أواخر السبعينيات، وكذلك سُلِّح بها الجيش السوري، الذي يشكل تهديداً مباشراً لإسرائيل، الحليف الرئيسي لأمريكا في الشرق الأوسط.

لم تعلق حكومة الولايات المتحدة على هذه التناقضات. ولم تُسلِّم بأن الصفقة كانت اعترافاً مباشراً بسيطرة بنادق الـ AK في الشرق الأوسط، وأنها وبرهان ساطع على ضعفها في العراق في وقت واحد. كانت واشنطن مهتمة بالحفاظ على المال أكثر من اهتمامها بحفظ ماء وجهها؛ فبنادق أزهامش تكلف 500 دولار للبندقية الواحدة بينما البندقية البلغارية لا تتعدى كُلفة شرائها المائة دولار أميركي.

في العام 2004 كانت مصانع إيجيفسك تنتج ما يتراوح ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف بندقية فقط. ولو ذهب العقد إلى إيجيفسك لكانت قد أعادت لمصانعها وشوارعها شيئاً يشبه أيام المجد التي كانت قد عرفتها قبل ثلاثين سنةً. شجبت شركة التصدير الروسية، "روبونس اكسبورت"، بمرارة الموقف الخانع للدولة من المبالغ النقدية التي دفعت لما ترى أنه،

ولا يزال في نظرها، تقنية روسية. لكنهم اكتشفوا أن الرأسمالية الحديثة للدول التابعة سابقاً لا تميل إلى دفع الفائدة عن براءة الاختراع لحلفائها الرسميين من الشيوعيين الذين تخلصت منهم في أواسط الستينيات. كانت قد أعدَّت هدية بوتين لبوش ببراعة فنية، كانت تذكيراً بأُسلوب متألِّقٍ وبليغ للقول إن الكَلاشنِكوف هو سلاحنا، وهو روسي كالفودكا.

لكنه لم يكن كذلك. ومع أن السلاح ظلَّ يعذِّب وطنه الأم في الشيشان وما وراءها، فإن السلاح الذي وصفه ميخائيل كَلاشنِكوف بـ "غولم" (راجع مقدمة الكتاب. م)، أي العفريت الذي نفخت فيه الحياة في الأسطورة اليادیشية، كان قد غيَّر شكله مرة أخرى. كانت بندقية الكَلاشنِكوف تظهر على شاشات التلفزيون الأميركية وتُعرض في شوارع الولايات المتحدة، متحدة مع ما تمثله من تجسيدات مجازية سابقة لرزمة ثقافية واحدة تمثل قوة ساحقة. كانت عملية التقدم في تحوله لماركة تجارية كبرى قد بدأت جزئياً كاستجابة للهزيمة في فيتنام، تلك الحرب التي انتصر فيها الكَلاشنِكوف على كل من قوات GI وعلى السلاح الهجومي المتبجح كثيراً وهو بندقية M16.

كان أعضاء نادي الأسلحة اليمينيّ الأميركيّ الذي صوّت للجمهوريين، ينظرون إلى الكَلاشنِكوف، في الأعم الأغلب، وكأنه "طوطم" يمثل العدو، لكنّه في الوقت نفسه نصر للتقنية البسيطة - السلاح الأساسي للجندي. هذه هي أمريكا، أمريكا التي كانت يمينيّة متشددة في وجهة نظرها السياسية عن العالم مما جعلها أقل قوة مما كانت عليه في عقد من حكم رونالد ريغان، في العام 1981 عندما خرجت مُترنحةً من هزيمتها في جنوب شرق آسيا. لكنها كانت قد قررت الآتي: إذا كانت قوات الفيت كونغ (حركة المقاومة المسلحة الفيتنامية 1954—1976م) لا تُهزم، فإن الثقافة الأميركية ستهزم رمزها المُهيمن. سيأتي النصر، لكنه سيكون نصراً باهظ الثمن. إذ أنّ دعوة بندقية الـ AK إلى بلادك مماثلة للتطوع لحقن فايروس في جسمك من دون أن تعرف هل سيصيبك بالزكام أم سيقتلك.

في العام 1982 قاتل رونالد ريغان بشراسة، باعتباره حاكماً لولاية كاليفورنيا ضد الحركة المناهضة لحرب فيتنام، وكانت بداية التقدم لإعادة تموضع القوة العسكرية الأميركية في العالم. فبعد أن أصيب ريغان بحمى النجاح الذي حققته المملكة المتحدة في صراعها مع الأرجنتين على جزر الفوكلاند في تلك السنة، وإن كان مُكلِّفاً، أرسل ريغان الأسطول السابع الأميركي إلى لبنان، في حلف مع فرنسا وإيطاليا، في محاولة لفرض الأيقونة الأميركية على العاصمة، بيروت، تلك المدينة التي ترافقت فيها الحرب الأهلية مع الغزو الأجنبي ليخلقا ساحة صراع أساسيّة للكَلاشنِكوف.

ولأنَّ الولايات المتحدة الأميركية لها صلات حميمة مع إسرائيل، التي هي أحد أهم المشاركين في الصراع اللبناني، وبالتأكيد الأكثر قوة، كان من المُحال على رجال الجماعات المُسلَّحة الذين يحملون جميعهم بنادق الـ AK (سواءٌ كانوا شيعة أو سنة، ومسيحيين أو دروز أو من الفلسطينين الذين لم يغادروا مع منظمة التحرير الفلسطينية عندما تمَّ إجلاؤها من لبنان في أيلول من العام 1982) نقول كان من المحال على أولئك المسلَّحين أن يعتبروا وجود الولايات المتحدة في لبنان وجودا نزيهاً وغير متحيّز. ولذا كان رجال المارينز الأمريكان يتعرضون بشكل منتظم لإطلاق النار من بنادق الكَلاشنِكوف ومن قاذفات الآر بي جي، لكن القنبلة الانتحارية كانت شكلاً من أشكال الهجوم الذي يتعذر تقريباً التصدي له، وهو ما جلب النهاية للمحاولة الأميركية لإعادة هيمنتها العسكرية. في شهر تشرين الأول من العام 1983 قُتل 241 مستخدماً أميركياً عندما استهدفت سيارة ملغومة يقودها انتحاري مركز قيادة المارينز في مطار بيروت الدولي.

عندما اندفع المستخدمون الأمريكان الآخرون لمساعدة رفاقهم، قام المُسلّحون المسلمون بقنصهم ببنادق الـ AK من المنازل المجاورة، فأسسوا بذلك شراكة ما بين الكَلاشنِكوف والقنبلة الانتحارية، تلك الشراكة

التي استمرت حتى يومنا هذا في الشرق الأوسط. رأى جمهور التلفزيون الأميركي منظر الأشلاء المرعب والبناء المستهدف بالتفجير، كما رأى دبكات رجال المليشيات وهم يحتفلون بالنصر ملوّحين ببنادق الكَلاشنِكوف في الهواء.

لم يكن مهماً أي من المليشيات المتعددة كان المسؤول، فقد كانت بندقية الـ AK هي الساحر الذي نوّم المتفرجين مغناطيسياً. نُسب الهجوم إلى حزب الله في الحال، وهو فصيل شيعي راديكالي يتباهى باللوغو الذي يصور بندقية كَلاشنِكوف على رايته كتب فوقها "حزب الله". غادر الأسطول الأميركي السابع الحامل للطائرات ساحل لبنان في الوقت نفسه، ونفى حزب الله بسرعة مسؤوليته عن الحادث، فخوّل بذلك فصائل شيعية أصغر لتدعي أنها المسؤولة عن التفجير. أياً كان الفصيل الذي يتحمل المسؤولية، فقد هشمت القنبلة الصورة الأميركية وخلقت دعوات داخلية للانسحاب من الحرب بأقل ما يمكن من الخسائر. فانسحبت القوات الأميركية ذليلة من بيروت في شهر شباط من العام 1984 وكانت قواتها لا تزال تتعرض للقنص ببنادق الكَلاشنِكوف.

لم تنتصر الولايات المتحدة الأميركية في حربٍ انتصاراً تاماً منذ العام 1945، ولم يكن لديها انتصارات في صراع كان العدو فيه مُسلّحاً ببنادق الكَلاشنِكوف. في النهاية جاء النصر في 1983 عندما غزا سبعة آلاف جندي أميركي جزيرة غرينادا في البحر الكاريبي. هم الجنود أنفسهم الذين ظهروا في الصور مع صناديق مملوءة ببنادق الكَلاشنِكوف كانوا قد استولوا عليها، وكأن وجود الأسلحة كان إثباتاً كافياً أن حكومة "موريس بيشوب" المنتخبة كانت امتداداً للتهديد الشيوعي لكل المنطقة أكثر من كونها تجربة معتدلة للاشتراكية في الجزيرة المدارية.

أسهم الجيش الأميركي، إضافةً إلى هوليود، في بروز الكَلاشنِكوف في الوعي الثقافي الأميركي. لقد تجلّى ذلك كتقبُّل مؤقت لهزيمة أمريكا وتسويغ لتلك

الهزيمة في الوقت نفسه. وقدمت هوليود الفيتناميين الشماليين للعالم كشخصيات كاريكاتورية غير واقعية تتصف بالميل إلى الثرثرة. فقد أظهرتهم وكأنّهم مجرّدون من المشاعر الإنسانية مقارنة بالجنود الأميركيين المكبَّلين بإنسانيتهم، على الرغم من أن الولايات المتحدة الأميركية قاتلت قتالاً لا يعرف الرحمة بكل ما للكلمة من معنى. لو أنَّ الإتحاد السوفييتي زرع بلداً من بلدان العالم الثالث بالقنابل وقصف شعبه بالأسلحة الكيماوية كما فعل الأميركيون لكانت حكومة الولايات المتحدة أدانت قادته ولوصفتهم بمجرمي حرب، إلاّ أنّ تلك التدابير العنيفة للجيش الاميركي لم تكن كافيةً لهزيمة جيش الشعب العقائدي صاحب العزيمة والمُسلّح ببندقية كَلاشنِكوف. بل إن تلك التدابير عزَّزت المنطق الذي يقول: لم تكن الهزيمة في فيتنام غلطة أمريكا؛ فجنودها كانوا يقاتلون عدواً هو الشيطان نفسه.

إنّ فيلم ميخائيل سيمينوف "صائد الغزلان"، الذي عُرِض في العام 1979، بلوَرَ في مشهد شهير وفريد ومُغيظ هذا التفسير للتجربة المؤذية لأمريكا في فيتنام، وهو يُصوّر وقوع مجموعة من الجنود الأميركيين من قوات GI في الأسر. ويجبرهم الفيتناميون على لعبة الروليت الروسي بالمسدس. كان الجنود الفيتناميون المسلحون ببنادق صينية موديل 56 يقفون من حولهم ويضحكون، ويراهنون على من سيفجر رأسه أولاً. وعلى الرغم من الحضور الطاغي لروبرت دي نيرو الذي لعب دور مايكل، وهو السجين الذي يملك الإرادة القوية التي ستنجيه من مذبحة الحراس الفيتناميين وتمكنه من الهرب من قوات GI، إلا أن نجم المشهد كان الكَلاشنِكوف. وفي ختام "اللعبة"، يصل الدور إلى دي نيرو ليأخذ المسدس ليلعب الروليت، لكن وبعد أن يقنع آسره بأن يضع المزيد من الرصاص في المسدس بدل رصاصة واحدة كما تتطلب اللعبة. يدير المسدس نحو رأس الفيتنامي ويطلق النار ثم يختطف بندقية الكَلاشنِكوف منه ويردي الحراس الآخرين قتلى. كانت هناك وقفة قصيرة

قبل أن يهرب الأميركيون. فعندما يأخذ مايكل بندقية الكَلاشنِكوف في يده يتحول إلى رجل مُخَلِّص، ومحارب يستطيع أن يكون بلا رحمة مع أعدائه ولكنه في الوقت نفسه لا يفقد إنسانيته. لا يمكنك أن تجد أبلغ تشبيهاً لمسألة الحب الأميركي المتنامي لبندقية الـ AK. بعد أن قتل مايكل الحراس الفيتناميين كان هناك في الحال وقفة قصيرة قبل أن يهرب الأميركيون. لكي تسمح لنا أن نعتبر من كلا الأمرين، الشجاعة التي تمَّ إظهارها فيما حدث للتو وشناعة الوضع الذي مرَّ به الأميركيون. أمّا الأمر الأكثر صلةً بمستقبل أمريكا هو تركيز الكاميرا على أشلاء الفيتناميين، لنرى بالضبط ما تستطيع أن تفعله بندقية الـ AK47 بغرفة مليئة بأناس لا تحبهم.

مع أن فيلم صائد الغزلان كان لبرالياً في نواياه إلاّ أنّه يصوّر الفيتناميين وكأنهم شياطين يحملون بنادق AK. إلا أن الثمانينات شهدت أكثر الصور عنصرية ضد الفيتناميين، في الحقيقة، وشملت الصورة الشيوعيين الأجانب كافة عموماً، وأصبحت هذه العنصرية واضحة في الأفلام الأميركية. هكذا وبعدوانية فاضحة لا تمت إلى الحقيقة التاريخية بصلة، لفقت هوليود سيناريو بعيد الاحتمال يفضي إلى أن ما جرى في فيتنام لم يكن حرباً خاسرة بل كانت حرباً خاضها رجل واحد. هذا الرجل الوحيد كان رامبو، الذي مثل دوره سيلفستر ستالون، في سلسلة من الأفلام التي حولت الهزيمة الأميركية إلى انتصار مُلفّق. أظهر الفيلم، بطريقة إيمائية قوات الفيت كونغ الشيوعية، والفيتناميين ومستشاريهم السوفييت بصورة أوغاد كانوا مسلحين ببنادق الكَلاشنِكوف على الدوام وكذلك رامبو.

في فيلم الدم الأول الجزء الثاني (1985)، يتم إرسال الرجل القمة رامبو لكي ينقذ أسرى حرب أميركيين من معسكرات التعذيب على يد الفيتناميين الشماليين فيقع في الأسر هو أيضاً. ومثل مايكل في فيلم "صائد الغزلان"

يدير رامبو بندقية الكَلاشنِكوف وهي بيد آسره، لكن بثقة زائدة وبطريقة زمن العضلات، فيقوم بعمل أفضل مما قام به دينيرو في شخصية مايكل فيوجه بندقية جندي فيتنامي نحو عدو أمريكا الشيوعي على الرغم من أن البندقية كانت لا تزال بيد الجندي. بعد ذلك يثير رامبو موجة من العنف المعربد ويقتل ثلاثة آخرين من الجيش الفيتنامي الشمالي بسلاحهم قبل أن يصل مرحلة العنف الشهواني المتصاعد عندما يتناول بندقية الـ AK ويطلق النار عشوائياً من فوق كتفه ويحطم رأس جندي فيتنامي. في تلك اللحظة اكتسب فن إطلاق النار من بندقية الـ AK أُسلوباً أميركياً صرفاً بغاية الوقاحة: جون واين (في أفلام رعاة البقر-م) يلتقي بالكَلاشنِكوف.

لو أخذنا بنظر الاعتبار تقنية رامبو اللاواقعية فإنّه من الواضح أن الدقة لم تكن الهم الأساسي في أفلام هي بالأساس خرافية. في أحد مشاهد فيلم الدم الأول الجزء الثاني يسقط رامبو بندقيته الكَلاشنِكوف، ونرى في لقطة قريبة أن البندقية في وضع الأمان وأن عتلة الاختيار مرفوعة إلى الأعلى رغم أن رامبو كان قد أطلق مئات الطلقات منها (وهو شيء يبدو أنّه يستطيع فعله من دون الحاجة إلى تبديل مخزن الذخيرة الذي لا ينفد). بعد عشرين عاماً من أخطاء مماثلة مع تعاسة في كتابة الدور وفي التمثيل أصبحت أفلام رامبو شوفينية ومُضحِكة في الوقت نفسه، لكن وفي معرض محاولتها ادعاء النصر للولايات المتحدة الأميركية تركت هذه الأفلام أثراً كبيراً في جعل الكَلاشنِكوف سلاحاً جذاباً بالنسبة للأجيال الأميركية الشابة. لقد أرَّخَ فيلم الدم الأول الجزء الثاني نقطة التحول الثقافي في النظرة إلى البندقية الـ AK: حتى أنّ نوادٍ للأسلحة اعترفت بالأداء الجيد لهذا المنتج وأدخلت آلاف البنادق إلى البلاد، بينما يقوم رامبو بحملته الإعلانية المثالية لانطلاق السوق الجديدة.

سلم ستالون الكَلاشنِكوف للثقافة الأميركية، وفي منتصف الثمانينيات

أصبحت الثقافة الأميركية هي ثقافة العالم. أصبح رامبو بطلاً لعقد من الزمان، نسخة يمينية واحدة لتشي غيفارا، وانضمت بندقية الـ AK إلى فن الروك والكوكا كولا في قائمة المنتجات الأكثر نجاحاً في العالم والمطلوبة من أجل ما تمثله بقدر ما هي مطلوبة لذاتها أو لما تحققه. ظهرت المُلصَقات في جميع أنحاء العالم (وعلى الأخص، كونها لا تساوي شيئا، في العالم العربي) وهي تصور عضلات وضمادات ستالون وهو يحمل السلاح الذي كان في السابق يمثل العدو الذين وقفت أمريكا رونالد ريغان بوجهه. بالنتيجة حققت بندقية الـ AK مستوى من الشعبية والإشباع أبعد من أي شيء آخر كان قد حققه السوفييت أو ما جسده القتال من أجل الحرية. كان هذا أكبر من أن يكون صورة غلاف لمجلة التايم؛ إنه الهيمنة على العالم.

إنّ نوادي الأسلحة الأميركية الملتزمة على وجه الخصوص باستخدام بنادق الكَلاشنِكوف أو مشتقاتها موجودة منذ السبعينيات. سمحت النوادي لأبناء الضواحي بالذهاب إلى حقل الرماية ونصب بعض عبوات البيرة، واستخدام السلاح الذي كان بيد العدو، وأصبح الآن بيد رامبو، في محاولة لإعادة تشكيل العالم الذي أصبح الساحة التي تقيم فيها أمريكا حفلة انتصارها. بدأت شركات الأسلحة الأميركية تصنيع نسختها الخاصة من بندقية AK، وإعادة هندسة الكَلاشنِكوف كي يتحول إلى منتج أميركي. كما حدث في أوائل العام 1976 عندما أنتجت شركة "بينغهام" المحدودة في مدينة "نوركوس"، في ولاية جورجيا، بنادق الـ AK التي أعيد تشكيلها لتطلق رصاصة a.22 لكي تباع في الأسواق على أنها بندقية رياضية. وفي مدينة "سانتا آنا" في ولاية كاليفورنيا استوردت شركة ميشيل للأسلحة أسلحة آلية ووزعتها، ومن العام 1985 إلى 1994 صنعت الشركة نوعين مختلفين من بنادق الـ AK الرياضية. كانت سواعد بنادق شركة بينغهام من خشب الزان والجوز لتؤكد تقديم أوراق اعتمادها لرجال الغابات، لكن مع كل اللمسات التسويقية الأخيرة

الفاخرة بقيت هذه الأسلحة نصف آلية تناسب ساحات الحرب وليس النوادي الرياضية.

في أواخر التسعينيات عرض نادٍ للسلاح على موقعه في الانترنت بنادق الـ AK للبيع إلى جانب إدعائه بأنها تتصف بقدرات قتاليّة فريدة. كانوا يحتفلون بسقوط الشيوعية ومع ذلك يعبرون عن إعجابهم بقيمها العسكرية: كان الجيش الأحمر "متأرجحاً" وكانت "كورسك" معركة دبابات "مرعبة". كان المواطنون العاطلون عن العمل في إيجيفسك متفاجئين لرؤية بعض مجموعات صغيرة من المتحمسين للسلاح الأميركي يقومون برحلة إلى مدينتهم الموحشة. مع رامبو، وموت الشيوعية، وامتلاك بنادق AK... يبدو كأن الدولة الأقوى في العالم قد نجحت في النهاية في ترويض السلاح الأسوأ سمعة في العالم.

أصبحت أمريكا شيئا فشيئاً راغبةً بأن تفرض نفسها فعلياً على العالم، وكان الخوف من الأكياس البلاستيكية التي تنقل فيها الجثث قد تم التخفيف من وطأته عبر التفوق التقني الهائل للقوات الأميركية في ساحات المعارك مثل القاذفات المتسللة والجيل الجديد من طائرات الهليكوبتر الهجومية وآخر أنواع الأسلحة الهجومية ودبابات أبرامز: ما الذي يستطيع أن يفعله فلاحو العالم الثالث المسلحون ببنادق الكَلاشنِكوف لمواجهة مثل هذه القوة؟ خلال مدة قصيرة لا تتجاوز بضع سنوات كانت دروس الحرب في فيتنام قد طواها النسيان. وأثبت تحرير الكويت الناجح في 1991 أن العجلة قد دارت. فالجيش العراقي الذي طردته الولايات المتحدة الأميركية من البلاد كان مسلحاً تقريباً بشكل كامل ببنادق الكَلاشنِكوف ولم يستطع الدفاع عن نفسه أمام التقنية العسكرية الأميركية.

حتى الانتصارات العالمية الطازجة التي حققتها بنادق الـ AK أمام الولايات المتحدة الأميركية امتصتها الثقافة الأميركية وحوّلتها إلى سلعة نافعة في السوق، كما حدث في فيلم سقوط طائرة "بلاك هوك" (وتعني الصقر

الأسود.م) الذي أنتج في العام 2001، والذي رسم أثر طلقات الكَلاشنِكوف على أجساد أميركية مستخدماً فن الكرافيك. تلك الحادثة التي أدت إلى نشر الكتاب الذي استندت عليه أحداث الفيلم، الذي يدور حول مهمة اعتقال اثنين من زعماء المليشيات في مقاديشو عاصمة الصومال، في الثالث من شهر تشرين الأول 1993، والتي أسفرت عن مقتل ثمانية عشر مقاتلاً أميركياً. كانت القوات الأميركية في الصومال ليست القوات الإمبريالية المثيرة للحروب بل قوات لحفظ السلام تحاول أن تعيد الاستقرار إلى البلاد التي تشبه السودان التي تقع على مقربة منها، حيث كان إيمانويل جال يكافح من أجل أن يتمكن من حمل سلاحه بطريقة صائبة، تلك البلدان التي أصيبت بالآفات بسبب مئات الآلاف من بنادق الكَلاشنِكوف. كان ذلك، بلغة السياسة العالمية، محاولةً لكسب القلوب والعقول اعتمدتها إدارة كلينتون لبناء صورة عن الأميركيين تُظهرهم كرجال صالحين. عرض الفيلم الذي أخرجه "رايدلي سكوت" بوضوح أن بندقية الـ AK لم تبدِ أي احترام للقلوب أو العقول. عكست المئات من بنادق الكَلاشنِكوف وبطريقتها الخاصة التي يمكن رؤيتها في أحداث الفيلم العدد الكبير من الصوماليين المتورطين في الأحداث الأصلية (وقد قتل منهم ألف رجل). وكما في الأفلام التي تمَّ تصويرها عن فيتنام، لم يبذل فيلم المخرج "سكوت" أي جهد لأنسنة العدو بل كان جل تركيزه على بنادق الكَلاشنِكوف وقاذفات الآر بي جي التي كانت بحوزته. تم تصوير الصوماليين كمجانين أكثر من كونهم أشراراً؛ وبدت رغبتهم في قتال الأميركين وكأنها مسعورة وغير منطقية، بالأحرى لم يقدم الفيلم سوى الاعجاب بحالة رفض الخضوع لما يبدو أنه تفوق تقني هائل لهليكوبترات بلاك هوك الأميركية والرشاشات الثقيلة. ومثل الجيش الأميركي، كان اعتماد المخرج على الوميض وقوة الضربة وسرعة المؤثرات الخاصة ذات التقنية العالية. لكن فيلم "سقوط طائرة بلاك هوك" ترك المشاهد من دون أدنى شك يعتقد أن بندقية الـ AK كانت أفضل سلاح في الصومال. كان هذا أكثر مما ترغب أمريكا الاعتراف به؛ لكن

بعض الأسماء الأقرب إلى الوطن كانت قد أغفلت من رحلة التجوال في عالم الكَلاشنِكوف، أسماء مثل مدن "ستوكتون" و "واكو" و "نيو أورلينز".

ما إن أصبحت بندقية الـ AK مهيمنة ثقافياً في الولايات المتحدة الأميركية حتى تسربت من نوادي الرماية إلى محلات بيع الأسلحة. وانتشرت ثقافياً مثل بقعة حبر على ورق نشاف، من الأفلام إلى الموسيقى ومن الكتب إلى الفيديو. وجدت بندقية الـ AK شهرتها العالمية مع قدوم التقارير الإخبارية المتلفزة في الستينيات؛ أما الآن فقد أدخلت نفسها في شبكة من العلاقات مع قدوم الضيف الجديد، أي الكمبيوتر. فقد أفرغت الألعاب مثل "دوم والهجوم المضاد وثقافة ألعاب "الحرب" الكومبيوترية، معنى الكَلاشنِكوف من ميكانيكيته الفعلية. استخدم شباب الطبقة الوسطى في أمريكا ببراعة ونهم بندقية الكَلاشنِكوف في ألعاب الإنترنيت عندما يخلو المراهقون بأنفسهم في غرف النوم لا يرون إلاّ الناحية الهادئة للـ AK. بالنسبة لمثل هؤلاء الشباب كان الهدف هو تسديد ضربة عبر ارتكاب مذبحة، إذ زودتهم الكَلاشنِكوف بالذخيرة الثقافية الوافرة والدقيقة لهذا الأمر: في المستوى الأساسي الأكثر دموية، تجد حامل بندقية كَلاشنِكوف وهو يصرخ قائلاً "أنا ثائر"، وبالتالي يصبح الكَلاشنِكوف السلاح المختار للغاضبين المشوشين من الأميركيين.

في معرض تعريفه لكلمة "Columbine" يعطي لقاموس أيربن "Urban Dictionary" المثال التالي: "هو التلميذ المستضعف الذي يقع ضحية تسلّطِ زملائه ما يجعله يلتقط بندقية الـ AK47 ويطلق النار على الجميع انتقاماً – لكنّ المفارقة، وكما رأينا فهناك دائماً مفارقات بالنسبة لبندقية الكَلاشنِكوف - وذلك ما جعل "ديلان كلبولد" و "إريك هاريس" لا يستخدمان بنادق الـ AK عندما توجها إلى مدرسة كولومباين الثانوية في كولورادو في 20 من نيسان 1991، فقد كانا يحملان بنادق آلية وعبوات ناسفة للدروع مرعبة، لكن لم تكن هناك بنادق كَلاشنِكوف. لم يكن الأمر

مهماً؛ ففي ذلك التاريخ كانت بندقية الـ AK قد أصبحت راسخة في أعماق الثقافة الشعبية للأمة وليس مهماً إن كانت قد ظهرت في مشهد إطلاق النار أم لا: فكل جرائم السلاح كانت تُفهم على أنها جرائم ارتُكِبَت باستخدام بندقية الكَلاشنِكوف. من الممكن أن تُعدّ جريمة إطلاق النار في مدرسة كولومباين ذروة الجرائم السيئة السمعة التي ارتكبت بسبب التفاوت الاجتماعي، في عهد ثقافة الكَلاشنِكوف، لكن كان هناك العديد ممن يساويها في درجة الرعب في هذه الظاهرة.

قبل سنتين من هذه الحادثة، على سبيل المثال، في 17 من كانون الثاني/يناير 1989، أخذ باتريك بوردي بندقية الـ AK الصينية من موديل 56 – وهي بندقية استطاع شراءها قانونياً من محل في مدينة أوريغون وذهب إلى مدرسة كليفلاند الابتدائية في ستوكتون، في ولاية كاليفورنيا. ولكن لم يكن السلاح عادياً، فقد كان السلاح مزوّداً بمخزن مزدوج يتسع لمائة وخمسين رصاصة يشبه علبة البسكويت وتمَّ تطويره في معمل "نورينكو" التقني في الصين ليزيد من قوة إطلاق النار لدى مشاة جيش الشعب. كان هذا السلاح مميزاً في ساحات القتال، على الرغم من أنه لم يحظ بشعبية لدى جيش الشعب والقوات الشيوعية الفيتنامية الذين وجدوا أنه ثقيل للغاية ويصعب تحريكه ونقله لضخامته، وهو ما حدّ من قدرته على المناورة.

غير أنّه في الحقيقة مكّن الجندي الذي يحمله من صنع جدار ناري مرعب في القتال. فكان من الواضح أن سلاحاً من هذا النوع لم يكن قَط في المكان المناسب في ضاحية من ضواحي أمريكا، رغم هذا فقد تمكّن بوردي من شرائه من أحد المحال، ثم مشى بخطوات واسعة داخل فناء المدرسة وأفرغ محتوى مخزن الذخيرة من كلا المخزنين. عندما أكمل ما جاء من أجله كانت النتيجة مَقتل خمسة أطفال وجرح 29 وإصابة مدرس؛ فتكون النتيجة التي حققها برودي هي مذبحة سميت مجزرة فناء مدرسة ستوكتون. في شهر أيلول من

العام نفسه يقوم مستخدم ساخط بسبب تسريحه من العمل بحمل بندقية كَلاشنِكوف AK47 والتوجه نحو المكتب الذي كان يعمل فيه في لوشفيل في كنتاكي، ويقتل سبعة أشخاص ويجرح ثلاثة عشر قبل أن يدير السلاح إلى رأسه وينتحر. ثمة حادثة أخرى من الطراز نفسه، فبعد أن قام قسم الصيانة في شركة مواصلات كاليفورنيا (Caltrans) بفصل أرتورو رييس تورِّس بسبب السرقة وذلك في كانون الأول/ ديسمبر من العام 1997 ردَّ تورِّس بأن عاد إلى مركز العمل حاملا بندقية الـ AK47 وقام بقتل أربعة أشخاص وجرح اثنين. في العام 2000 قام مايكل ماكديرموت، الذي شعر بالغبن بسبب اقتطاع مبالغ من راتبه لتسديد ديون متراكمة لمكتب الضرائب، بإطلاق 49 رصاصةً من بندقيته الـ AK47 على زملائه في "إيدجووتر تكنولوجي" بولاية ماساشوتستس فقتل سبعة منهم قبل أن يفرغ من الذخيرة بسرعة لأنّه كان يطلق النار بالنمط الآلي. في 19 من نيسان 1993 عندما أنهى الحريق حصاراً استمر 51 يوماً لمجمع برانش دافيديان في واكو تاكساس حيث عثر ضباط قسم الكحول والسجائر والأسلحة التابع لمكتب التحقيقات الفيدرالي على 44 بندقية كَلاشنِكوف بين الأنقاض المحترقة حيث كان دايفيد كوريش يقف وقفته الأخيرة.

لكنَّ هجوماً كان قد وقع قبل مجزرة واكو باثني عشر أسبوعاً هو الذي دفع حكومة الولايات المتحدة إلى التحرُّك وإدخال عناصر استطاعت خلال عشر سنوات أن تجعل الكَلاشنِكوف محط انتباه العالم. كان مير عويمل كاسي مواطناً أميركياً مسلماً من أصل باكستاني وكان قد ضاق ذرعا بالمعاملة السيئة التي يتعرّض لها الفلسطينيون على أيدي الإسرائيليين، كذلك كان غاضباً مما تصوَّرَ أنَّه دعم أميركي ثابت لإسرائيل فقرر أن يعبر عن غضبه بطريقة عنيفة فوجَّه ضربته إلى قلب المؤَسَّسة الأمنية الأميركية؛ مقر قيادة وكالة الاستخبارات الأميركية في لانجلي بولاية فرجينيا. لم يكن كاسي ينتمي إلى أي مجموعة إرهابية.

كان مهاجماً وحيداً عندما شنّ هجومه. ومع ذلك فإنَّ أولئك الذين خانهم الحظ بتواجُدهم خارج مبنى السي آي أي في 25 من كانون الثاني 1993 ربما تعلّموا أنَّ من يحمل بندقية الـ AK ليس وحيداً في الحقيقة. إنَّ المسلَّح المنفَرِد، خاصةً الذي يهاجم مدنيين عزَّلاً، يمتلك قوَّةً هجوميةً لا تتناسب مع كونه وحيداً. عندما توقف كاسي بسيارته البيك - أب السوداء عند الإشارة الضوئية قرب مبنى قيادة السي آي أي، في ساعات الذروة الصباحية، كان قد أصبح منظمةً إرهابيةً قائمة بذاتها. بكل الهدوء اللاطبيعي، الذي يمكن أن يبدو على رجلٍ يحمل سلاحاً أوتوماتياً، ترجّل كاسي من شاحنته وألقى نظرةً سريعةً على السيارات المتوقفة حولها ورفع الـ AK إلى مستوى صدره وبدأ يطلق النار على السيارات بكل هدوء. لم يكن هناك أي هتاف أو صرخة من تلك الصرخات التي تُسمع أحياناً من رجالٍ في المعارك. بكل بساطة وقف كاسي إلى جانب شاحنته وراح يطلق النار كيفما اتفق على السيارات المحيطة وعلى من بداخلها من دون أن يبدي أي مشاعر؛ ربما كان واقعاً تحت سحر بندقيته. لم يطلق كاسي النار لأكثر من دقيقة واحدة أصاب خلالها خمس سيارات بإحدى عشرة رصاصة ثمَّ ركب شاحنته بالهدوء نفسه الذي ترجّل به منها وانطلق بعيداً مخلِّفاً وراءه زحمة سيرٍ طبيعية بعد أن حولها إلى لحظة من حرب أميركية يتصاعد منها الدخان والصراخ.

جرحت زخة الرصاص القصيرة التي أطلقها كاسي ثلاث ضحايا وقتلت موظفَين في السي آي أي هما لانسينج بينيت (66سنةً)، وفرانك دارلينج (28سنةً)، أمّا زوجة دارلينج التي كانت جالسة إلى جانبه فقد نجت بأعجوبة.

لقد تجاوز الهجوم على مقر قيادة السي آي أي الحدود كلّها بالنسبة للحكومة. فمن الجائز أن تتحمَّل الولايات المتحدة الأميركية معدّلاً عالياً لجرائم القتل، لكن يتعذّر عليها أن تتجاهل هجوماً إجرامياً على واحدة من الدعائم المركزية لسلطة الدولة. ففي شهر أيلول من العام 1994 قام الرئيس بيل

كلينتون بتوقيع قانون تحريم الأسلحة الهجومية الفيدرالي الذي يقضي بمنع بيع أو شراء أسلحة نصف أوتوماتية لمدة عشر سنوات. كان الفصل 921 30)) (a) من الباب (USC 18) من القانون دقيقاً بالنسبة لصنف بندقية الكَلاشنِكوف. اذ يطلق تسمية "غير قانوني" على "أيُّ سلاح ناري أو نسخة أو تقليدٍ لسلاحٍ ناريٍ والمعروف بإسم نورينكوNorinco أوميتشل Mitchell أو بولي تكنولوجِز Poly Technologies، أو سلاح كَلاشنِكوف الآلي".

قد تكون نوايا إصدار القانون حسنة، إلاّ أنه لم يكن مدروساً بدقةٍ. إذ أنه وبسبب صياغة بعض أجزاء القانون، لا يزال تجار الأسلحة الأميركيون قادرين على الاتجار ببنادق الـ AK. فالقانون ذكر فقط الأسلحة المصنّعة بعد تاريخ المنع، بينما الأسلحة المصنّعة كلياً أو المجمّعة قبل العام 1994 ظلّت تُباع برُخصة قانونية.

لم تكن هذه هي الثغرة الوحيدة في القانون؛ فأحد التعاريف المحددة للبندقية الهجومية هو أن يكون للبندقية قبضة كقبضة المسدس، فردَّ المصنِّعون بإضافة عقب خشبي يمتدُّ حتى القبضة المسدسية. تقنياً، جعل هذا من بندقية الكَلاشنِكوف حتى المصنَّعة حديثاً، بندقيةً مُرخّصة قانونياً، وكانت أسلحة كهذه تروّجها نوادي السلاح وجمعيات البنادق كأسلحة رياضية. لقد استطاعت المجلاّت أن تنشر كلا النوعين من بندقية كَلاشنِكوف المصنّعة قبل المنع وتلك المعدلة بعد المنع كسلاح رياضي. مع ذلك قلّما طُرح السؤالُ الآتي: لماذا يحتاج رجل يمارس الرياضة لإطلاق خمسٍ وسبعين عياراً نارياً؟

أعطى القانون أيضاً وصفاً لمخزن الذخيرة كأي مخزن يتسع لأكثر من عشر رصاصات، لكن لأن القيود التي تنطبق على المخزن تنطبق أيضاً على البنادق، فإنّ نوعية المخازن نفسها التي استعملها باتريك باردي بفاعليتها المُميتة في حادثة إطلاق النار في ملعب مدرسة ستوكتون كانت ما تزال قانونية

لأنّها كانت مصنّعة قبل المنع. وذلك يعني أيضاً أن آلاف المخازن المصنّعة قبل العام 1994 كانت تُستورد من بلدان الكتلة الشرقية، فالحكومات في دول أوروبا الشرقية المتحوِّلة إلى الرأسمالية والمتلهِّفة للحصول على العُملة الأجنبية، عملت على تصدير المنتج الوحيد الذي تمتلكه وتحتاجه أمريكا وهو السلاح الرخيص. وهكذا وجدت ألوفٌ من بنادق الـ AK وأكوامٌ من الذخائر طريقها إلى السوق عندما وجدت بلغاريا وهنغاريا ويوغوسلافيا سوقاً جاهزاً لبيع مخزونها الاحتياطي.

إذا كان المقصود من القانون نزع الكَلاشنِكوف من شوارع أمريكا فإنَّ مصيره الفشل من البداية، حتى أنَّ من الجائز القول إنّ القانون أسهم في وضع المزيد منها قيد التداول، وفي الوقت الذي كان يجري تداولها كانت تترسخ لدى شرائح من المجتمع الأميركيّ لتجد لها مأوى في مجتمع يتفكك. سيصير الأمر إلى فوضى شوارع أمريكا السوداء حيث يقوم الكَلاشنِكوف بأقذر الأفعال وسرعان ما انعكس وجوده على ثقافة الشباب السود، تلك الثقافة التي تأسست على المواجهة والأصوات العدائية الصادرة من موسيقى الهيب - هوب والراب.

لقد أثبتت الكَلاشنِكوف جاذبيتها لدى أصحاب القول الفصل في موسيقى الراب في منعطف الألفية تماماً كما كانت بالنسبة للإنتليجانسيا اليسارية في أواخر الستينيات وصناعة البروباغندا السوفييتية في أواخر الأربعينيات. وجد فن الراب في الكَلاشنِكوف تعابير جاهزة لاهتماماته؛ احترام وقوّة نارية وتمرُّد. يدَّعي فن الهيب - هوب أنه التمثيل الفني للشوارع التي أتى منها، بينما هو بالنسبة للأذن البريئة دعوةٌ إباحيةٌ إجراميةٌ لحمل السلاح. لقد أوضحت مجموعة سايبرس هيل (Cypress Hill Gangsta) في ألبومها "صرخةٌ من القلب" وفي أغنية "A to the K" التي ضمها الألبوم أنَّ بندقية الكَلاشنِكوف هي جزءٌ أساسيٌ في الترسانة المدينية إذ يقول أحد مقاطعها: "لقد سَمِعتَها

من الراديو وشاهدتها على شاشة التلفاز، من A إلى K؟ " A to moth-erfuckin Z". حتى الجنس يجد مكانه في الانحناءة شبه القضيبية لمخزن الذخيرة. أظهر فنان الراب كرايزي بونز في أغنيته الحماسية الرابط بين قوة البندقية وقوة العضو الذكري حيث تقول كلمات الأغنية: "أركض وبيدي الكَلاشنِكوف أقفز مهتاجاً، والفتيات السود يُحببن الطريقة التي أُبللهنَّ بها عندما أعلوهن، لتبلل أحداً ما يعني أن تهرق دمه، لتعلو أحداً ما يعني أن تضاجعه".

وما أن تسلَّلت بندقية الكَلاشنِكوف إلى الثقافة الشعبية حتى أصبحت تتناسخ. إذ تسمح مؤهِلاتها الثورية للفنانين أن يُصوِّروها كسلاح الرجل الأسود الواثق من نفسه والمبالِغ باستعراض رجولته وكعلامة تجارية للمقاومة. كما كانت في آنٍ واحد سلاح الشارع وسلاحاً أساسياً مضاداً للسلاح المؤسساتي، كانت السلاح الذي سبق أن واجه قوة الحكومة الأميركية في فيتنام وانتصر عليها، وهو الآن يقاوم القوة العظمى في الشرق الأوسط وأفريقيا. في أغنيته "اليوم الذي يسيطر فيه الزنوج" أوضح المغني "دكتور دري" أن الاحتكام إلى السلاح ستكون له نتائج وخيمة: يقول أحد مقاطع الأغنية "سأطلق النار من بندقية الـ AK رشَّاً وأضعها جانباً لأرتاح". إن الاحترام الفوري والمكانة اللائقة هما الأمران اللذان تقدمهما بندقية الكَلاشنِكوف إلى الشباب الذين لا يحظون إلا بالقليل من التقدير في المجتمع وحتى من أقرانهم في أحسن الأحوال. ويعبِّر عن كل ذلك ببلاغة ألبوم لفرقة "مكعب الثلج" يحمل عنوان "باستقامة نحو أوتاوا كومبتاون"، هذا الألبوم الذي يقدم أمريكا بألم وصرخات الغضب المنطلقة من العنف الأميركي الأسود والشوارع البائسة. تقول إحدى أغنياته "بندقية الكَلاشنِكوف هي الأداة" ثم تطلق الإنذار محذرة "لا تدعني أرتكب حماقة كما يفعل أبناء العاهرات".

إن المستوى البسيط جداً من التحدي لدفع شاب أسود لاستخدام

بندقيته الكَلاشنِكوف، عبَّر عنه "إيزي إي" عندما صرّح بأنه سيواجه أي شخص يحاول أن يسرق سيارته قائلاً: "لأن لدي مسدساً من عيار 9 وبندقية الكَلاشنِكوف فسأرسل له بطاقة ذهاب بلا عودة إلى جحيمي أو ربما إلى الجنة". في هذا الخليط الشائك من الجريمة والتفاخر المُتغطرس لن يمر أي أمر تافه من دون أن يكون محط اهتمام وليس هناك إساءة بلا عقاب. إنه عالمُ الاحترام فيه هو كل شيء، وأشياء قليلة فقط تتطلب احتراماً أكثر من بندقية كَلاشنِكوف محشوة بالذخيرة. احملها بيدك وسيكون العالم أقل شأناً أمامك. إنها قادمة من هذه الثقافة التي تعبد الكَلاشنِكوف وتتفهم التمرد الإجرامي عندما يتلاءم مع فتح النار عبر سلاح آلي ينطلق على يد "ستيفن وليمز" شاب بعمر الثامنة عشر، وهو عضو في عصابة "نيو أورينز". وهذه هي الخلفية لقصته.

بحلول العام 2003 أصبحت جرائم السلاح في "نيو أورلينز" أكثر وحشية وحصلت المدينة على لقب غير رسمي هو "عاصمةُ القتل". وقد قاست تلك المدينة من جرائم السلاح طويلاً كسائر المدن الأميركية الأخرى، لكن دخول الكوكائين إلى مجتمعٍ مسلّحٍ ببنادق الكَلاشنِكوف أسس لطريقة جديدة تماماً ومسعورة لقتل الناس. شيء ما أصاب مشاعر المسلحين، ليس بسبب كونهم مجرد مجرمين، فحوّلهم إلى شخصيات استعراضية تنتمي إلى أبطال الكتب الهزلية أكثر من انتمائها إلى الشوارع، تراهم وهم يواجهون بعضهم بسيارات مفتوحة النوافذ ليمدوا عبرها بنادق الكَلاشنِكوف في رؤية معاصرة لمبارزات السيوف في القرون الوسطى. أصبح إطلاق النار جنوناً لا يميّز بين ضحاياه، نساءً كانوا أم أطفالاً أم مسنين صادف وجودهم في الشارع مع السيارات الممتلئة برجال العصابات المتنافسة التي يفرّغ بعضُها ذخيرتَه على بعضها الآخر تاركةً المدينة في حالة من الفوضى والبؤس الفريد بسبب ثقافة العنف في أمريكا المتمدنة.

كان هناك ثلاثون قتيلاً في نيو أورلينز في شهر نيسان/ إبريل 2003، وهي قائمة القتلى لشهر واحد من السنة التي بلغ عدد الضحايا فيها 275 شخصاً. لم يكن القتل على مستوى المدينة ككل بل تركز في مساحة سبعة كيلومترات مربعة من مجموع مساحة المدينة البالغة 500 كم مربع والواقعة تحت السلطة القضائية لنيو أورلينز. وتتألّف تلك المنطقة الصغيرة من بضعة أحياء فقيرة يقطنها السود وفيها مراكز للرعاية الاجتماعية، وحيث ترتفع نسبة البطالة، وتنتشر المخدرات. كان لدى المراهقين السود هدفان مباشران هما الحصول على النقود والبقاء على قيد الحياة. ويتحقق الأمران معاً بالمخدرات، ويؤدي تعاطي المخدرات بالضرورة إلى الانخراط في العصابات.

كانت المدينة منقسمة إلى عدة أحياء، ويخضع كل حي لعصابة تسيطر على مسرح الجريمة. ولدى هذه العصابات الرئيسية فروع أصغر تتكون كوادرها من فتيان لا تتجاوز أعمارهم الثالثة عشر - وهم يقلدون الأكبر سناً منهم في تصرفاتهم آملين أن يؤخذ تصرفهم بعين الاعتبار، فيرتقون إلى مستوى أعلى. في عمر الخامسة عشر تكون جاهزاً لتصبح جندياً في شوارع نيو أورلينز؛ وعند بلوغك الخامسة والعشرين تصبح من المحاربين القدامى.

عندما يأتي ضباط شرطة نيو أورلينز للبحث عن المخدرات والأسلحة أو المشتبه بهم يأتون مزودين بأسلحة ثقيلة ويحملون المسدسات والبنادق التي بإمكانها أن تصرع رجلاً. لكن كل هذا الاستعراض بالقوة لن ينفع الضباط إذا تصادموا مع رجل أو صبي مزوَّد بسلاح هجومي. وبالتالي لا يدخل افراد الشرطة إلى الأحياء الأكثر خطورة ما لم يضطروا إلى ذلك. وكانت الأحياء المقفلة الأخطر في نيو أورلينز خارج سلطة القانون، واشتهارهم بالعنف والمخدرات أصبح شريعتهم الخاصة بهم.

غالباً ما يكون المسلحون المخدرون بالكوكائين من هذه الأحياء هدفاً لرجال الشرطة ذلك أنهم عندما يواجهونهم يخرجون من الأبنية وهم يطلقون

النار من بنادق الكَلاشنِكوف أو يظهرون تلك البنادق لعدوهم. وبما أن المسلح الذي يكون تحت تأثير الكوكائين لا يمكن التفاهم معه لذلك يعمد رجال الشرطة إلى طلب وحدة من القناصين لقتله. فمعظم الوحدات لا تندم على فعل ذلك، بل تزيد حالة الحصار والعنف في الأحياء وتحولهم إلى مناوئين للشرطة.

حاولت سلطات المدينة أن تحل هذه اللائحة من المشاكل الاجتماعية المخيفة وذلك باللجوء إلى هدم المساكن الشعبية القديمة التي تجاوز عمرها المائة عام وكذلك الأبنية المتآكلة منذ السبعينيات. لكن السلطات الإدارية كانت في نظر العديد من المواطنين متهمة بالفساد، وفي أحياء السود كان الناس مقتنعين بأن السلطات تعمد إلى ترحيلهم من بيوتهم بهدف تمكين المواطنين البيض من الدخول إليها. إن كلمات أغنية "كَلاشنِكوف" لمغني الراب "أستليان، تُقرأ كما لوكانت تعليقاً مباشراً على الوضع: "سمعت أنهم يريدون ترحيلنا/ إلى مخيم مؤقت آخر/ سيجرفون الأحياء بالبلدوزرات/ وسوروا المنطقة بالأسلاك الشائكة". لذلك وإضافةً إلى التوتر الناتج عن المخدرات والعصابات، كانت هناك كراهية متنامية تجاه مجلس بلدية المدينة. استمر إطلاق النار على الشرطة على نحو منتظم، وباقتراب شهر نيسان/ أبريل كاد عدد الجرائم يتجاوز المعدل المعقول. على أن هذا الغضب كان داخلياً؛ إذ كان معظم حوادث إطلاق النار يقع فيما بين الزنوج أنفسهم.

في بداية العام 1992 استطاعت فرقة الراب بون تُجز آند هارموني (Bonethugsandharmony) أن تؤدي أغنية "الجحيم نعم" "Hell yeah!" وتقول كلماتها: "هو الزنجي نفسه يركض حاملاً الكَلاشنِكوف، زنجي بوسطن وهو مصاب في البطن". والبطن هو أسوأ مكان يمكن أن يصاب به شخص برصاصة الكَلاشنِكوف.

كانت المشاجرات البسيطة تكبر وذلك بفعل غليان الغضب في المدينة.

كانت عصابات نيو أورلينز مستعدة لممارسة مستويات من العنف تذكِّر بما يحصل في الضفة الغربية والسودان. لكن سلطات المدينة بدت وكأنها مستعدة للسماح بذلك أن يحدث ما دام إطلاق النار محصوراً في أحياء السود الفقيرة، ولكن من الصعب جداً احتواء إطلاق النار من الأسلحة الأوتوماتيكية. حتى في المناطق مثل وسط المدينة كانت تتردد أصداء إطلاق النار من الأسلحة الرشاشة.

مع بداية شهر نيسان/ أبريل 2003 أصبح الوضع سيئاً إلى درجة أن دائرة شرطة نيو أورلينز اضطرت إلى طلب المساعدة من الشرطة الاتحادية الأميركية ومن مكتب التحقيقات الفيدرالي. كانت مهمة الشرطة الفيدرالية تعقُّب المشتبه بهم أما مهمة مكتب التحقيقات الفيدرالي فكانت تنظيم دعاوى قضائية ضد أخطر المسلحين. وسيتيح ذلك نظرياً لدائرة شرطة نيو أورلينز حرية التركيز على إحكام السيطرة على الفتيان ذوي الرؤوس الحامية الذين كانوا يطلقون النار من بنادق الكَلاشنِكوف في شوارع المدن الرئيسية.

كان المواطن الأمريكي/ الأفريقي ستيفن وليم من تلك الرؤوس الحامية في الأحياء. كان قد مضى خمس سنوات على عضويته في إحدى العصابات منذ أن كان في سن الثالثة عشر، ولكنه في الآونة الأخيرة خطا إلى الأمام واستلم قيادتها. وعادة ما تأتي فرص الترقية بانتظام في مدينة ما مع ارتفاع معدل الجرائم في نيو أورلينز ولكن بالنسبة لوليامز فإن سلطته كانت مدعومة ببندقيته البلغارية، أما بالنسبة لزملائه في العصابة فتأتي سلطته من استعداده لاستعمال هذه البندقية.

قبل أسبوع من نيل وليامز سمعة سيئة من جراء بندقيته وحكماً بالحبس مدى الحياة، كان أحد أعضاء عصابته والبالغ من العمر 18 سنةً ويدعى هليارد هيد سمث قد سقط رمياً بالرصاص في الشارع. لم يعرف وليامز أو أي فرد من أفراد عصابته من القاتل، لكنهم كانوا يعلمون من الذي ضغط

على الزناد عندما أصيب سمث منذ سنة خلت. عرفوا ذلك لأنه بعد اثني عشر شهراً كان جوناثان كيفمان وليامز (ليس هناك قرابة بينهم) البالغ من العمر 15 سنةً ما يزال يفتخر بأنه هو من أطلق النار. إن كيفمان، وكما يوحي به لقبه، كان صبياً ضخم القوام لكن المراهقين ميالون إلى المبالغة، ولم تُوجّه لكيفمان تهمة إطلاق النار، وسواء أكان ذلك صحيحاً أم لا، فإنه كان كافياً للحكم عليه بالموت.

في تمام الساعة العاشرة والنصف من صباح يوم الإثنين المصادف 14 من نيسان/ أبريل وصل وليامز مع أربعة آخرين من أفراد العصابة، هم تايرون كرامب وميشيل فولتون كلاهما في سن السابعة عشرة، هربرت إيفيريت وعمره ثمانية عشر سنةً ولاري موسيز وعمره تسعة عشر سنةً، وصل الجميع في سيارتين إلى قاعة الألعاب الرياضية في مدرسة جون دونوهو الثانوية. كان أفراد العصابة يرتدون لباساً موحداً هو كناية عن جينز وتيشيرت أبيض وكان الخمسة يرسلون شعرهم على شكل خصلٍ مخيفة. كان أحدهم يحمل مسدساً أمّا وليامز فكان يحمل بندقية الكَلاشنِكوف.

تقع المدرسة، المعروفة بالنسبة لطلابها الألف تقريباً باسم جون ماك، على بعد 2 كلم إلى الشمال من الحي الفرنسي على شارع مشجَّر من الجانبين بمحاذاة جادة الإسبلاناد المؤلَّف من أربعة مسارات وهو طريق سريع يربط المرفأ بالطرف الشمالي الغربي للمدينة. على أثر هدم المساكن الشعبية وإعادة إعمارها تمَّ إرسال أطفال العائلات التي أُعيد إسكانها إلى مدرسة جون ماك ناقلين معهم ولاءاتهم. وهكذا فإنّ أعضاء العصابات المتحاربة، الذين كانوا يسكنون على بعد كيلومترات من بعضهم يجدون أنفسهم في المدرسة نفسها فكان لابد من أن يؤدي ذلك إلى التصادم الذي أدى بدوره إلى الإرباك في الوقت الذي كان فيه العنف وبيع المخدرات في المدرسة يجذب انتباه المراهقين الأكبر سنّاً وهكذا خرجت جون ماك عن سيطرة المدرِّسين.

في اليوم الذي وصل فيه وليامز وعصابته إلى المدرسة كان هناك على الأقل 300 تلميذ من أصل ألف ومئتين لم يستطع المدرسون التأكيد أنهم من تلامذتهم. لقد غدت جون ماك مسرحاً فوضوياً للعصابات والعنف والترهيب، أصبحت مؤسسةً تعيش في الفراغ تماماً مثل العديد من المدارس الأخرى.

حاولت المدينة معالجة المشكلة لكن دائرتها التربوية كانت تخصص 4 ملايين دولار فقط من ميزانيتها السنوية لصرفها على الشؤون الأمنية في عشرين مدرسة ثانوية. فمدرسة جون ماك على سبيل المثال كانت مجهزة بسياج أمني وكان لديها أربعة حرّاس أمنيين لمراقبة مدخلين وتشغيل أجهزة كشف المعادن المفترض أن تساعد على منع الطلاب من إدخال الأسلحة. كما كان هناك عنصرٌ من شرطة نيو أورليانز يتواجد دائماً في المدرسة. لكن في خِضَمّ الفوضى السائدة في جون ماك أصبح حفظ الأمن كما التدريس يقتصر على التمسك بالحد الأدنى فقط، حيث التزم الحراس مواقعهم واقتصر عملهم على تفتيش الحقائب والتربيت على أكتاف الطلاب، فلو أنهم تمشوا حول السور الأمني ذلك الصباح، وقاموا بجولة تفقدية لمحيط المدرسة لاكتشفوا الثغرة في السور الأمني، بعد أن أوقف وليامز وعصابته سيارتيهم ودخلوا إلى حرم المدرسة بكل سهولة من خلال الثغرة.

تباينت الروايات حول ما جرى ذلك الصباح في قاعة الألعاب الرياضية لمدرسة جون ماك، روى البعض أن كايفمان كان يمازح ويغازل إحدى الفتيات، بينما آخرون لم يلاحظوا وجوده بتاتا، لكن عدداً من الشهود وافقوا على أنه في وقت من الأوقات كان يجلس على كرسي قرب مدخل قاعة الرياضة بناءً على إلحاح إحدى الفتيات. ومرة أخرى تختلط الروايات حول من هي بالتحديد الفتاة التي أقنعت كايفمان بالانتقال. ربما كان مهتماً بالظهور في دور الشاب قوي العضو في العصابة أمام أقرانه الذين فشل في أن يكون

حذراً منهم حيث يُفترض أن يكون أو ربما كان منجذباً إلى الفتاة التي خانته لكن في كلا الحالين كان كايفمان يجلس قرب المدخل.

لم يكن وليامز وعصابته من طلاب مدرسة جون ماك لكن شركاءهم أو أفراداً من عصابتهم كانوا من بين الطلاب كذلك الشخص الذي أقنع كايفمان بالانتقال كان واحداً منهم وهو الذي وجَّه المهاجمين عن طريق الهاتف الخليوي إلى باب قاعة الرياضة. في جو الارتباك الذي كان سائداً في مدرسة جون ماك لم يعمل أحدٌ على منع أفراد العصابة ذوي اللباس الموحد من دخول المبنى أو تساءل عن حقهم بالتواجد في حرم المدرسة كما لم يستطع أحدٌ رؤية وليامز وهو يحمل بندقية الكَلاشنِكوف متدليةً وملتصقة بجنبه تحت سترته.

كان هناك 200 طالب في قاعة الرياضة عندما دخل وليامز من الباب ومباشرةً رفع بندقيته إلى مستوى خصره وصوَّبها نحو كايفمان. استغرق الأمر بضع ثوانٍ من الصراخ والارتباك قبل أن يتم التعرف على شكل الكَلاشنِكوف لمن بداخل القاعة، وتعالت صرخات الرعب "إنَّ معه بندقية". لم يحتج أحدٌ ممن في القاعة إلى درسٍ عن تأثير الكَلاشنِكوف. لقد شاهدوا حجم الضرر الذي تحدثه بنادق الـ AK حتى في الأماكن المكشوفة، ويعلمون جيداً أنَّ الصليات التي يطلقها في الأماكن المقفلة ستكون عشوائية وفتَّاكة.

جمد كايفمان في كرسيه بينما أفراد العصابة تجمعوا أمامه، بدأ الفتى ابن الخامسة عشرة، وهو يواجه مصيرَه، يتوسل لإنقاذ حياته لكنّ ردة فعل وليامز كان الاحتقار وراح يضحك من توسلات ذلك الفتى ويلعنه وشاركه باقي أفراد العصابة في الاستهزاء من الرعب المسيطر على كايفمان. بعد ذلك قام وليامز بإفراغ نصف مخزن من الرصاص في جسد ضحيته. لكن وعلى الرغم من أنّ فوهة بندقية وليامز كانت على بعد بضعة أمتار فقط من كايفمان فإن بعض الرصاصات التي أطلقها لم تُصِب الهدف. قد يكون مردُّ ذلك إلى مستوى الإثارة العارمة أو جنون اللحظة أو الأعصاب المشدودة أو عدم الاكتراث،

لكن الأكثر احتمالاً هو أن وليامز كان يمسك الكَلاشنِكوف بيدٍ واحدة على طريقة رجل العصابات الواثق جدًّاً من نفسه وهو يُطلِق النار بيدٍ واحدة بدل اثنتين لإضفاء مسحة استعراضية على الهجوم، الأمر الذي يجعل انتصاره على كايفمان ناجزاً ويرسِّخ حادثة إطلاق النار في ذاكرة من شهدها.

أصابت الصلية الأولى جذع كايفمان بثمان رصاصات وجرحت ثلاث فتيات؛ فتاة في الخامسة عشرة أصيبت بساقيها وأخرى في السادسة عشرة أصيبت في فخذها وفتاة ثالثة أيضاً في السادسة عشرة أصيبت في ردفيها وذراعها الأيسر. هناك فتاةٌ رابعة حامل سُحقت تحت الأقدام عندما تزاحم الطلاّب مسرعين للهرب من مرمى نار وليامز.

عندما خلا المكان من حول كايفمان وقف وليامز فوقه ومن مسافة قريبة أطلق صلية أخرى مباشرة في رأس ابن الخامسة عشرة. كانت الصلية الأولى قد أصابت معظم أعضاء كايفمان الحيوية ورمته أرضاً. كانت إصاباته كفيلةً بالقضاء عليه إن لم يكن قد مات فعلاً. أما الصلية الثانية من بندقية وليامز أزالت وجهه، وبالتأكيد فإنّهَ لن يكون بمقدور عائلة كايفمان أن تعرض جسده في تابوت مكشوف.

كانت الحادثة برمتها فصلاً قاسياً وعلى مستوى عالٍ من الدرامية، كانت جريمة قتلٍ تمثّل تماماً الاستعراض المرعب لحرب العصابات والقوة التغيرية للكَلاشنِكوف.

دخل وليامز القاعة كساحر بعمر التاسعة عشرة يملؤه الحقد مع بندقية الكَلاشنِكوف وغادرها قاتلاً، كما غادرها رجلاً مهاباً يستحق الاحترام. لقد حفظ ماء وجهه بتدمير وجه كايفمان.

هرب المهاجمون من المدرسة عن طريق الفتحة في السور لكن ألقي القبض عليهم في الجوار. في خلال دقائق كان الأهالي المتألمون قد تجمهروا أمام مداخل

المدرسة متلهفين لرؤية أبنائهم، يسألون بغضب: "أين كان الحراس عندما دخل القتلة إلى المدرسة". هذه لم تكن كولومباين؛ إنها ليست فورةَ طَيشٍ قام بها أطفالٌ من الطبقة الوسطى، يواجهون التحدي بطريقةٍ وجودية، كانت لحظة وهمٍ شريرة تحوَّلت إلى فعلٍ وقع في مجتمعٍ موسِر أساساً. إنما هنا في نيو أورليانز الأمر مختلف، هذه حياةٌ عاديةٌ في مدينةٍ انضمَّت إلى رام الله وبغداد في لائحة بلديات الكَلاشِنكوف.

وصلَ الأب تومسون نوروود الابن (Thompson Norwood JR) إلى المدرسة وكان قد انتهى للتو من تنظيم حملةٍ شعبية لإعادة شراء الأسلحة، وهي عبارةٌ عن ترتيبات تقضي بتشجيع الشبان بتسليم أسلحتهم للشرطة لقاء مبلغٍ من المال. كان يبدو يائساً عندما صرَّح قائلاً: "أنا مندهش لوجود هذا النوع من السلاح في الشارع. لا أعرف من أين يحصل شبابنا على هذا النوع من السلاح، إنه أمرٌ يذكرك بأفغانستان والعراق". لكنّ بقية الولايات المتحدة ستنسى قريباً الشعور بالصدمة عندما تعلم أنّ اقتناء الكَلاشِنكوف أمر سهل حتى على شاب في سنِّ التاسعة عشرة.

لقد أصبح سكان نيو أورليانز الزنوج، ذلك المجتمع الذي يعيش شبابه حالة حرب حقيقية، على بينةٍ من أنَّ أمريكا غير مهتمةٍ بما يفعله الشبّان السود مادام الأمر محصوراً فيما بينهم. قامت دائرة الشرطة في نيو أورليانز، التي اضطرّت للاعتراف بفقدها السيطرة على قطاعات من المدينة، بمضاعفة جهودها لمصادرة الأسلحة غير القانونية. استطاعت الشرطة مصادرة مسدسات وبنادق حربية وبنادق صيد وعدد ضئيل من بنادق الكَلاشِنكوف.

بعد مرور شهرٍ على قتل كايفمان على يدِ وليامز كانت الفتاة الزنجية جلاديس دايسون، البالغة من العمر ثمانية عشر سنةً والتي كانت قد أنهت امتحاناتها المدرسية قبل أسبوع، تمشي في جادة واشنطن عندما جاءت سيارتان بسرعة جنونية من أول الشارع وفتح من بداخلها من المسلحين

النار من بنادق الـ AK. بدأت دايسون تركضُ مذعورةً لكنَّ السيّارتين استمرّتا بالسير باتجاهها وكان ركابهما يطلقون النار على بعضهم البعض بشكل جنوني وبينما كانوا يتجاوزونها بسرعة أصيبت بطلقة AK. تعوّد الناس في شوارع نيو أورليانز على العيش في ظل قواعد لعبة الكوكائين والـ AK إلى درجة أنّه بعد سنة، وخلال محاكمة الشبان الزنوج الثلاثة المتهمين بالتسبب بوفاة جلاديس دايسون لم تتحسر شقيقتها الكبرى على غياب القانون وهي تتكلم عن رد الفعل لدى شقيقتها عند سماعها الطلقات الأولى حيث قالت: "لو أنّ جلاديس انبطحت أرضاً بدل أن تركض لدى سماعها الطلقات الأولى لربما كانت ما تزال على قيد الحياة اليوم"، ثمّ أضافت: "عندما أسمع إطلاق نار الآن أنبطح أرضاً".

كان القس تومسون نوروود الابن محقاً عندما اعتبر أن معارك بنادق الكَلاشنِكوف هي من ميزات مناطق الحرب اليائسة في العالم الثالث لكن نيو أورليانز كانت على وشك أن تصبح يائسة تماماً كمناطق الحرب في العالم الثالث. خلال الأسبوع الذي أعقب وصول الإعصار كاترينا المدمِّر والفشل الكارثي لسد قناة الشارع 17 يوم 28 من آب/ أغسطس 2005 انهار النظام الاجتماعي للمدينة انهياراً سريعاً. عندما امتلأ الوسط التجاري لمدينة نيو أورليانز بالماء وتُرك السكان الزنوج الفقراء لتدبير أمورهم بأنفسهم بدأ اللصوص يخوضون عبر الفيضانات وكان العديد منهم يحمل الـ AK. كانت البنادق مصممة لمقاومة الماء الذي كان يتسرب إلى كل جهاز ميكانيكي في المدينة من المايكرويف حتى محطات الطاقة الكهربائية. كان الوضع في نيو أورليانز وهي تحت الماء تماماً مثل الوضع في فيتنام والعراق، أي الوضع الذي صُمم الكَلاشنِكوف من أجله. كانت فرصة لبندقية الـ (AK) أن تحدث تقدماً مرة أخرى. لقد وصف أحد رجال الشرطة الجو العام في نيو أورليانز بأنه متوتر جداً، جو هو في الحقيقة يرافق وجود بندقية الـ AK ليحل محله

الرعب أو الإرهاب عندما يحدث هذا السلاح الحربي أسوأ فعل له.

عندما انهار القانون في المدينة كلها كانت بندقية الـ AK تنتظر جانباً، اذ أن أي تمزق صغير في النسيج الاجتماعي كان كافياً للسماح لها بالدخول؛ إن الفيضان المدمر هو الباب الواسع للسلاح الذي يزدهر إبان الكارثة. راح الرعاع المهملون يدبرون أمورهم بنهب الطعام وأحياناً السلاح، إلا أنه لم يحصل، كما ادعت بعض الصحف في ذلك اليوم، أن تم سرقة الكثير من بنادق الـ AK في نيو أورليانز.

لقد تم نهب محال وولمارت في وسط المدينة في شارع تشوبيتولاس، مع أن وولمارت يبيع الأسلحة إلا أنه لا يبيع بنادق الـ AK وشبيهاتها. كان اللصوص يسرقون أجهزة تلفاز عريضة الشاشة وأجهزة حاسوب ودراجات هوائية (التي لا فائدة من استعمالها في مدينة غارقة) ومجوهرات بدلاً الأسلحة. كان هناك محال أخرى قليلة في المنطقة الغارقة ولكن كان هناك عدد قليل جداً من بنادق (AK) في صناديق بانتظار من يأتي ليسرقها. في الحقيقة كان سكان نيو أورليانز مسلحين قبل إعصار كاترينا. لقد هرع اللصوص للاستفادة من الفراغ الذي تركه رجال شرطة نيو أورليانز الذين كانوا منهمكين بأعمال الإنقاذ، وتم استدعاء رجال شرطة لويزيانا لملء الفراغ وتطبيق القانون في المدينة فتعرضوا لإطلاق النار على أيدي مسلحين.

كان هناك فريق من المسلحين يعملون بشكل ثنائي خرجوا من الحي الفرنسي قبيل منتصف الليل وأطلقوا النار مباشرةً من إحدى النوافذ على مركز الشرطة. هذه المناوشات ببنادق الـ AK حملت السكان على إقناع رئيس البلدية رالف ناكن (Ralph Nagin) بإعادة نشر 1500 رجل شرطة في الشوارع لتطبيق القانون تطبيقاً مباشراً. في البداية فضّل رجال شرطة نيو أورليانز الذين غالباً ما يعملون من دون قيادة وغير واثقين من أنهم سوف يتلقون الدعم في حال تعرضهم إلى مشكلة، عدم الدخول في معارك مسلحة

مع اللصوص؛ كانت هناك تقارير تُفيد بأن بعض اللصوص كانوا من رجال الشرطة، إضافة إلى ان عدم وجود وحدة متخصصة في استعمال الأسلحة الحربية سيجعل من المتعذر على الشرطة مواجهة بنادق الـ AK.

كانت كاميرات التلفزة موجهة نحو الأسفل لتصوير مناطق المدينة الغارقة من طائرات الهليكوبتر واستطاعت أن تلتقط صوراً لبعض الأشخاص المُنفردين. رجال سود في ثورة واضحة يتطاير الشَّرر من أعينهم غضباً، تماماً مثل المُسلَّحين الفلسطينيين ورجال المقاومة العراقية وهم يلوحون ببنادق الـ AK تحدياً. لم يكن المسلحون أقل إجراماً مما كانوا عليه قبل أن يتم تصويرهم، إلا أن البندقية كان لها أثر تغييري. أصبح أفراد عصابات نيو أورليانز ثوار العالم الثالث. في فيتنام كان مشهد جيش التحرير الشعبي وهو يحمل السلاح متجهاً إلى المعركة يعني الحرب ضد الإمبريالية - كان الفتى مقاتلاً ملتزماً بكل معنى الكلمة مُسلَّحاً فقط بحذاء وببندقية الـ AK لقتل الأميركيين. وفي الإمكان أن نتصور أن مخزن الكَلاشنِكوف المُقوس على شكل موزة مزوَّد بكاميرا رقمية خفيفة الوزن ولكنها موجودة في ذهن المقاتل. وبينما كانت طائرة فريق التلفزيون تصور الشوارع الغارقة تحت الماء وبنادق الـ AK تعرض واحدة من الانتقال المتميز لصورتها على شاشات التلفزة الأميركية، تحول سلاح العصابات وتجار المخدرات، ذلك السلاح الذي استعمل بدون رحمة في ثانوية جون ماك (John Mac) قبل سنتين، تحول إلى رمز المقاومة ضد أمريكا البيضاء اللامبالية والفساد الداخلي وعنصرية الحكومة. قبل الفيضان كانت بندقية الـ AK نقمة على نيو أورلينز. أما بعد الفيضان فقد رآها بعض المواطنين كمخَلِّص لهم. وبغياب القانون والنظام استغل الناس الفرصة لتحقيق بعض الأهداف. وفي ترجمة كئيبة لأغنية الراب لفرقة سايبرس هل 'A to the Z' وبينما كان أحد تجار المخدرات المعروفين يحاول أن يخرج بسيارته الليموزين من مركز المدينة الغارقة متوجهاً بها إلى

مكان مرتفع، فتح مجهولون باب سيارته وأطلقوا عليه النار من بندقية الـ AK. وقد وجدت الشرطة في مكان الحادث بندقية الـ AK ومخزنين مربوطين ببعضهما البعض بشريط لاصق لإعادة التلقيم بسرعة. أما المخزن الثاني فلم يكن ضرورياً لأن رصاصات المخزن الأول كانت كافية لتمزيق جسد تاجر المخدرات أيّما تمزيق من جراء قرب المسافة. استمرت بندقية الـ AK في استغلال ضعف الحكومة في المدينة. وبعد مرور سنة تقريباً من إعصار كاترينا، وتحديداً في شهر أيار من العام 2006، حمل رجل مصاب بالفصام لم يتناول دواءه، وقد حاولت عائلته من دون جدوى أن تؤمن له مساعدة طبية في مدينة لا تستطيع مساعدة نفسها، نقول حمل بندقية الـ AK وبدأ بإطلاق النار في حي الجزائر. تريثت الشرطة لمدة 6 ساعات قبل أن تقتله. وقد علق الناطق باسم مركز الأدلة الجنائي في نيو أورليانز قائلاً، "عندما اضطرت الشرطة أن تقوم بالمهمة التي كان يجب أن يقوم بها مركز الصحة النفسي، فإن الأمر كان خسارةً للجميع". تعافت نيو أورليانز شيئاً فشيئاً وتمكنت دائرة شرطة نيو أورليانز بتمويل من الحكومة الفيدرالية وتعافي شرطة المدينة من إعادة الأمن والنظام إلى الشوارع التي تعرضت للفيضان مجبرة المسلحين على الانكفاء إلى داخل المجمعات السكنية التي انطلقوا منها. لكن الامر لم يكن يحتاج إلى فيضان للسماح لبندقية الـ AK لتسيطر على مركز المدينة، ولا يحتاج الأمر أن تكون الدولة في وضع غير مستقر مثل السودان أو فلسطين أو الشيشان. كان يكفي أن يكون بعض أحياء المدينة في حالة فقر مدقع، وبتسويق ماركة الكلاشنِكوف فتحت أمريكا الباب لسلاح يفتك في أي مجتمع يفقد تماسكه.

من طبيعة الأميركيين أنهم يحبون العلامات التجارية فقد جعلوا من الـ AK47 كوكا - كولا الأسلحة الخفيفة، العلامة التجارية التي تسرّبت إلى وجدان العالم. لقد شكل حجم التبادل التجاري الضخم للكلاشنِكوف في

السوق العالمية للبنادق الحربية نموذجاً يحلم أيُّ مدير تسويق أن يحققه. وأصبح حضوره يتكرر تلقائياً في أخبار التليفزيون وفي ساحات المعارك التي تجاوزت حدود الصراعات وأحداث الساعة. حتى أنَّ العملية انعكست على روسيا حيث قام المتعهد ونجم الروك الروسي السابق أندري كولتاكوف عام 2004 بإطلاق جهاز MP3 على شكل مخزن AK ومن ميزاته أنّه عندما يُرَكَّب بالبندقية الـ AK47 يطلق الموسيقى في السماعات بدل الرصاص في الجسد. صرَّح كولتاكوف قائلاً: "هذه مساهمة منا في سبيل السلم العالمي، نأمل من رجال المليشيات والإرهابيين أن يستخدموا الـ AK47 لسماع الموسيقى والكتب الإلكترونية. إنهم بحاجة للاسترخاء".

للاسترخاء؟ ربما، ولكن لو استرخى رجال المليشيات فإنَّ الـ AK ستفقد أكبر مرتكزاتها الإعلانية.

لأنَّ الصراعات هي الإرث الذي بُنيت علامة كَلاشنِكوف التجارية.

في السابق تجلّت العولمة في فرض السلع الأميركية على السوق العالمية. جاءت الكَلاشنِكوف لتُغيِّر ذلك، فهي بحق السلعة العالمية الأولى، فهي تفرض نفسها بنفسها وتطغى على الثقافات المختلطة وحتى على البلدان التي تدعي ملكيتها، سواء أكانت روسيا المسؤولة عن خلقها أم الحيوية البالغة والمستوى العالي الذي اعتمدته الصين لإنتاجها الضخم. ولأنّ مصادر الإنتاج أصبحت الآن متباينة - من وُرش في باكستان إلى مصانع كوبا على سبيل المثال لا الحصر، فإنّ البندقية الـ AK47 هي ظاهرة عالمية.

لقد طافت في مد وجزر بين الموت والأموال: سواءً كانت أموال مخدرات، أو أموال سي آي أي، أو أموال سعودية، أو أموال روسية. فالإبقاء على الرقابة المشددة على المسوِّغات الاقتصادية لتدفق الملايين من بنادق الـ AK إلى العالم يشبه محاولة الإمساك برصاصة منطلقة، وهو أمر مُتعذّر.

في بداية فيلم "الدم الأول" الجزء الثاني، ثمة تعليق من أميركي على الدرع الذي اختاره رامبو لمهمته: "هل هو ضد طلقات الكَلاشنِكوف اللعينة؟ فكل طفل بعمر الثانية عشر في فيتنام لديه واحدة"، عندها يكون جواب رامبو: "تماماً".

مع حلول العام 2004 كانت المدن الداخلية الأميركية ذاهبة بالاتجاه نفسه. في النهاية حتى الولايات المتحدة الأميركية ليست آمنة من الكَلاشنِكوف التي تضع قواعد اللعبة الآن.

كلمة شكر

أقدم في الختام شكري الجزيل لكل من باتريشا ماكدونلاند هوجّز، وإيمي هوجّز ودامين وأليس بيرد، وبيل برروس، وكلار كونفيل، وتدي كران وتشيلو مككولتش، وغرانت فيلمينغ، وجوكستا هاملتون، وإيمانويل جال، وميخائيل كَلاشنِكوف وعائلته، وبيتر موزينسكي، وغوردون تومسون، وعلى وجه الخصوص آنا كران.

المؤلف: مايكل هوجّز

هو مؤلف وصحافي بريطاني. سبق أن نال جائزة العمود الصحافي في العام 2008، كما نال جائزة الحملة الإعلامية للمساواة بين الأعراق في العام 2006.

تُرجِم كتابه عن بندقية الكلاشنِكوف إلى عدد من اللغات، واختارته مجلة النيويوركر كأفضل اختيار في أسبوع الكتب. كما أنه سبق أن نشر كتاباً عن سيرة "كيفن كيغان-المسيح المتردد" في العام 1998، وأُعيد نشره في العام 2007.

اسهم هوجز في سلسلة "ألف كتاب لتغيير حياتك" 2008، وسلسلة Flight Free Europe 2007، وله إسهامات عدة في مجلة Time Out البريطانية.

مازال هوجز يكتب مقالاته على نحو منتظم في مجلة Financial Times Weekend، وNew Statesman، وظهرت تقاريره عن الحرب في العراق والصراع في فلسطين في صحيفة الفايننشال تايمز وعدد من الصحف الأخرى وما يزال يكتب مقالات عن الشرق الأوسط.

الفهرس

تسلسل زمني للأحداث..... ٩

المقدمة..... ١١

١ - المزحة القاتلة ١٥

٢ - مدينة البنادق ٣٩

٣ - فيتنام..... ٧١

٤ - فلسطين ١٠٧

٥ - أغنية الأطفال المجنّدين..... ١٤٥

٦ - منظر الارهاب ١٧٥

٧ - العراق ٢١١

٨ - زنوج بوسطن ٢٤٧

كلمة شكر..... ٢٨١

المؤلف: مايكل هوجز ٢٨٣

هو مؤلف وصحافي بريطاني. سبق أن نال جائزة العمود الصحافي في العام 2008، كما نال جائزة الحملة الإعلامية للمساواة بين الأعراق في العام 2006.

تُرجِم كتابه عن بندقية الكلاشنكوف إلى عدد من اللغات، واختارته مجلة النيويوركر كأفضل اختيار في أسبوع الكتب.

ترجمة: حربي محسن عبد الله
محمد مصطفى مقداد
مراجعة: فائز نمرود داود

دار نون للنشر

ISBN 978-91-87373-19-0

9 789187 373190

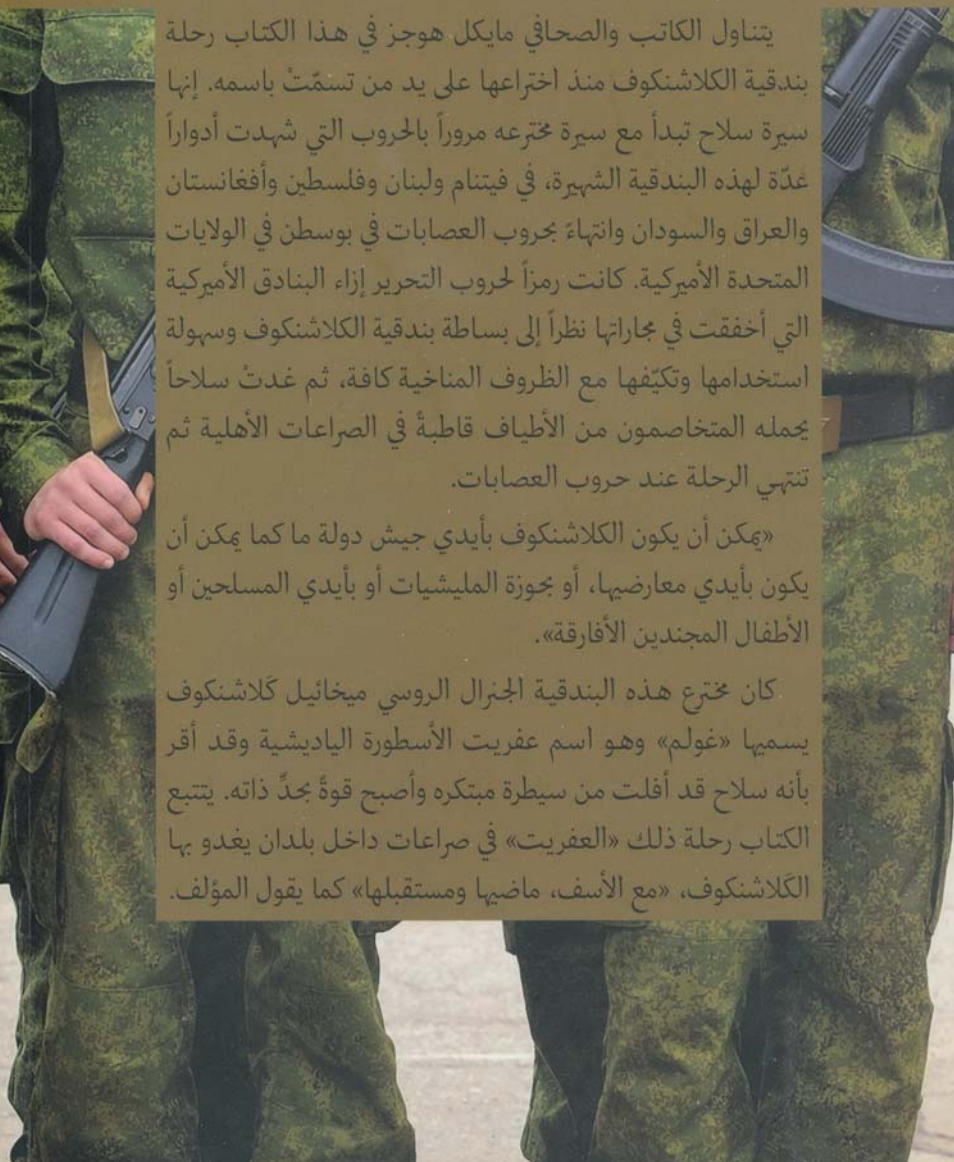

يتناول الكاتب والصحافي مايكل هوجز في هذا الكتاب رحلة بندقية الكلاشنكوف منذ اختراعها على يد من تسمّتْ باسمه. إنها سيرة سلاح تبدأ مع سيرة مخترعه مروراً بالحروب التي شهدت أدواراً عدّة لهذه البندقية الشهيرة، في فيتنام ولبنان وفلسطين وأفغانستان والعراق والسودان وانتهاءً بحروب العصابات في بوسطن في الولايات المتحدة الأميركية. كانت رمزاً لحروب التحرير إزاء البنادق الأميركية التي أخفقت في مجاراتها نظراً إلى بساطة بندقية الكلاشنكوف وسهولة استخدامها وتكيّفها مع الظروف المناخية كافة، ثم غدتْ سلاحاً يحمله المتخاصمون من الأطياف قاطبةً في الصراعات الأهلية ثم تنتهي الرحلة عند حروب العصابات.

«يمكن أن يكون الكلاشنكوف بأيدي جيش دولة ما كما يمكن أن يكون بأيدي معارضيها، أو بحوزة المليشيات أو بأيدي المسلحين أو الأطفال المجندين الأفارقة».

كان مخترع هذه البندقية الجنرال الروسي ميخائيل كَلاشنكوف يسميها «غولم» وهو اسم عفريت الأسطورة اليادیشية وقد أقر بأنه سلاح قد أفلت من سيطرة مبتكره وأصبح قوةً بحدِّ ذاته. يتتبع الكتاب رحلة ذلك «العفريت» في صراعات داخل بلدان يغدو بها الكَلاشنكوف، «مع الأسف، ماضيها ومستقبلها» كما يقول المؤلف.